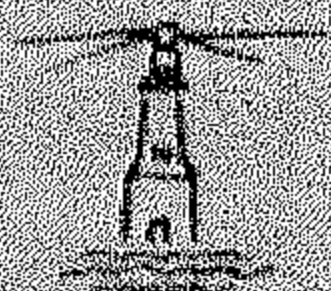


دكتور عبد السلام عبد العزيز فردي

تاريخ الدولة الممورية فد إیران



دار المعارف

تاريخ الدولة المملوكية في إيران

مكتور

عبد السلام عبد العزيز فاضل

استاذ الدراسات الشرقية المساعد
جامعة عين شمس

١٩٨١



دار المعارف

١٩٩١

١٩٩١

١٩٩١

١٩٩١

الناشر : دار المعارف - ١٩٩١ - كورنيش النيل - القاهرة ج ٠ م ٠ ع

مقدمة

تعرضت ايران لحملة مدمرة قدمت من الشرق - من منغوليا - على شكل جحافل بدوية وثنية متعطشة لسفك الدماء وتدمير ما تصادفه أمامها ، فكانت حملة مدمرة لم تحدث في تاريخ البشرية من قبل .

جاء المغول بقيادة چنكيز خان وهاجموا البلاد الاسلامية ، وكانت مدينة أوتزار مفتاح اقليم ما وراء النهر أولى بلدان الدولة الخوارزمية التي تعرضت للغزو المغولي في سنة ٦١٦ هجرية ، تبعه سيل جارف من المذابح استمر سنوات طويلة أتوا فيها على كل شيء صادفوه من انسان وجماد وحيوان .

وواجهت القوى الاسلامية المفككة في ذلك الحين والمثلة في الدولة الخوارزمية وبقايا دويلات السلاجقة والخلافة العباسية المغول بطريقة غير منظمة وفزع شديد لما سمعوه عن فظائعهم وما ارتكبوه من جرائم نزلت على اخوانهم في الدين والعقيدة ، فأصيبوا بصدمات متتالية أتت على كل شيء ، بحيث يمكن القول أن ما شيدته المسلمون طوال القرون الستة من عمران وحضارة وتراث دمره هؤلاء القوم البرابرة بوحشية بالغة ، وتركوا المدن الاسلامية التي كانت في يوم قريب مزدهرة تدب فيها الحياة الآمنة خاوية على عروشها واندثرت مدن متعددة بحيث لم يبق منها سوى الاسم فقط .

وكان استيلاء المغول على البلاد الاسلامية - وايران خاصة - قد تم على مرحلتين ، الأولى كانت بقيادة چنكيز خان مؤسس الدولة المغولية الذي تمكن من تحطيم الدولة الخوارزمية وتقويض بنائها وهي التي كانت تحكم ما وراء النهر وخوارزم وأجزاء من خراسان وغرب ايران ، فخضعت خراسان في عهد چنكيز خان دون سواها من المناطق الايرانية للسيطرة المغولية .

وتصور الحكام المسلمون أن المغول انما قاموا بغارة للسلب والنهب

ليس أكثر ، وأنهم سيعودون الى بلادهم بعد ذلك . وكان الحكام المسلمون في حالة من الضعف لا تمكنهم من مواجهة المغول لا لشيء الا لما كان بينهم من خلافات ومشاحنات لدرجة أنهم كانوا يفرحون عندما يهزم أحدهم ويشمقون فيه . وقد ذكرت كتب التاريخ بعضاً من هذه النواذر منها أن الخليفة العباسي الناصر لدين الله (٥٧٥ - ٦٢٢هـ) اتصل سرا بالمغول يحرضهم على الاسماعيلية ووافاهم بخرائط كاملة لمواقعهم .

أما المرحلة الثانية فتتمت على يد هولاكو خان حفيد چنكيز خان مؤسس الامبراطورية المغولية ، ذلك أن أخاه الخاقان قوبيلاي كلفه بفتح بلاد فارس والجزيرة والشام ومصر ان أمكن ذلك . وأمهده بجيوش مدربة وقيادة عسكرية واعية أشرف بنفسه عليها ، ومنحه حكم المناطق الغربية من الامبراطورية المغولية له ولخلفائه من بعده ، يضاف اليها ما يفتحه من مناطق جديدة . وقام هولاكو خان بالمهمة خير قيام ، قضى فيها على قلاع الاسماعيلية وأباد الشعب الاسماعيلي ، وتقدم نحو بغداد واستولى عليها ، وقتل المستعصم بالله آخر خليفة عباسي حكم في بغداد ، وقضى بذلك على الخلافة العباسية . ثم زحف الى الشام واستولى على حلب ودمشق وأطاح بالحكم الأيوبي في بلاد الشام ، وامتدت فتوحاته فشملت آسيا الصغرى التي كان يحكمها فرع سلجوقي يعرف باسم « سلاجقة الروم » ، وامتد نفوذ المغول فشمّل بلاد البلغار وشرقي أوروبا ، ولم يوقفهم عند حدهم الا المماليك حكام مصر الذين هزموا المغول هزيمة منكرة في وقعة « عين جالوت » بين بيسان ونابلس في فلسطين ، ولم يخل المغول مصر وان كانت سياسة مصر تأثرت بهؤلاء القوم فيما بعد تأثراً كبيراً .

وبعد وفاة هولاكو خان خلفه ابنه أباقا ، وحصل من الخاقان في خانباق (يكنى الحالية) على موافقة بحكم ما كان تحت سيطرة أبيه من قبل ، فتأسست في ايران دولة جديدة في ظل النظام الجديد ، عرفت باسم « الدولة الايلخانية » (١) . وقامت هذه الدولة على أنقاض الدولة الخوارزمية والخلافة

(١) ايلخان : كلمة تركية مركبة من لفظين ، هما : ايل وخان . وايل لفظ تركي بمعنى تابع ، وخان بمعنى حاكم وملك ورئيس عشيرة . وبذلك

العباسية وبعض الدويلات الاسلامية الأخرى التي هادنت المغول وقدموا لهم الطاعة والولاء مثل ما حدث من آل كرت في هراة والأتابك سعد بن زنكي في فارس ، فشملت الدولة الايلخانية خراسان وبلاد الجبل وفارس وكرمان وما بين النهرين (العراق) وآسيا الصغرى ، وجزءا من بلاد الشام الى فترة محدودة .

واستمرت الدولة الايلخانية تحكم تلك المناطق مدة قرن من الزمان الى أن انقرضت في سنة ٧٥٦ هجرية ، بعد أن شاخت بالسرعة التي قامت بها ، وأيضا بسبب الصراع بين الأمراء المغول وقادة الجيش ورؤساء القبائل والعشائر المغولية والتتارية .

والفترة التاريخية التي نستعرضها تعد من أخطر فترات تاريخ ايران وأكثرها اضطرابا وأشدّها فتكا وإيلاما بالنسبة للشعب الايراني نتيجة ما ارتكبه المغول من مجازر ومذابح وتدمير ولم يوقفهم عند حدهم الا اسلامهم الذي هذب من نفوسهم فتحضروا وهدأت نفوسهم وتركوا قوانينهم وعاداتهم المغولية واتبعوا الشريعة الاسلامية وخالطوا المسلمين واتخذوهم أصدقاء وأعوانا ودخلوا بلاطهم ومجالسهم بعد أن كان ذلك محرما عليهم . ثم انهم قلّدوا الايرانيين في حضارتهم واقتبسوا منهم أشياء كثيرة ، وبعثوا عن بنى جلدتهم في منغوليا والصين الذين انتشرت بينهم البوذية وانخرطوا في الحضارة الصينية وثقافتها ، حتى أننا نجدهم مغولا شكلا ، فرسا حضارة وثقافة . كذلك نجد بعض ملوكهم قد تعصب للاسلام واعتبر نفسه حاميا له مدافعا عنه مقربا رجال الدين الاسلامي له ويؤثرهم على غيرهم من رجال بلاطه بعد أن كان وثنيا مغوليا قلبا وقالبا .

وعرضت أحداث الدولة المغولية في ايران بطريقة مبسطة وواضحة

يكون معنى ايلخان ، الملك التابع أى حاكم احدى الولايات في الدولة ويتبع الخاقان (الخان الأعظم) الذي يحكم الدولة كلها . وقد أطلق هذا اللقب على بيت هولاكو خان ابتداء من أباقا عندما أسند اليهم حكم ايران ، ثم ألصق بحكام المغول في ايران بعد استقلالهم عن الدولة المغولية الأم ، وأطلق اسم « الدولة الايلخانية » على البلاد الايرانية التي حكموها .

مستعينا على ذلك بمصادر فارسية وعربية وأوروبية متخصصة وحاولت أن أوفق بينها واستخلص الحقائق التاريخية منها وتحليلها . وأرجو من الله العلى القدير أن أكون قد أصابنى التوفيق فى هذا العمل الذى أقدمه ، وأطمح أن تنال تلك الفترة التاريخية من تاريخ الشعوب الإسلامية من الدراسة والاهتمام ما هى جديرة به لأن التاريخ الإسلامى سلسلة متصلة الحلقات ، وحسبى الله هو نعم المولى ونعم النصير .

دكتور عبد السلام عبد العزيز فهمى
 أستاذ الدراسات الشرقية المساعد
 بجامعة عين شمس

القاهرة فى أول أبريل ١٩٨٠

الباب الأول

الفصل الأول

المغول :

نبدأ للحديث بالرد على ما يجول في خواطرنا وهي أسئلة تقليدية تقبدر إلى الذهن من أول وهلة عن المغول . من هم طوائف المغول ؟ ، وما أصل هؤلاء ؟ ، وما هي سابقة حضارتهم ؟ ، ومن أين جاءوا ؟ ، ولماذا استولوا على إيران وعادوا الاسلام ؟

ان الجواب على هذه الأسئلة سيوصلنا إلى حقيقة هؤلاء القوم .

المغول شعب بدوى ينقسم إلى عدد من الطوائف والقبائل عديدة تسكن إقليم منغوليا الذى هو جزء من هضبة آسيا المركزية والشرقية . وكانت هذه القبائل البدوية لا تعرف معنى الحضارة ، بل كانت قبائل نصف وحشية ، ولم تكن لهم سابقة بمدينة وحضارة . ولشدة بدارتهم كانت كل قبيلة من تلك القبائل تكون وحدة متماسكة من ناحية الجنس واللغة ، ويرأسها رئيس يحمل لقب « نويان » تطيعه وتتأمر بأمره ، ولذلك كانت حياتهم فطرية بدائية بسيطة لا يتسرب إليها التعقيد ، وكانوا يقضون معظم أوقاتهم فى المنازعات القبلية وفى البحث عن منابت العشب والكلأ .

لقد حاول كثير من المؤرخين تتبع الأحداث الداخلية والحروب والمشاخات التى كانت تنشب دائما بين القبائل المغولية حتى يصلوا إلى شعاع يضىء الطريق أمامهم ، ولكنها كانت آخر الأمر واهية لا ترشد الباحث فى كتابة موضوع متكامل عن المغول . ومع ذلك فإن هناك مصادر كثيرة عن تاريخ المغول بعضها دون باللغة الصينية والبعض الآخر بالفارسية وأيضا باللاتينية أو غيرها من اللغات كالعربية مثلا لكنها لا تمدنا بمعلومات كافية عن أصل القبائل المغولية ، خاصة التاريخ المبكر للمغول ، وإن كانت آخر

الأمر تعرض سلسلة من المعلومات الناقصة أو المتناقضة التي تعوزها الدقة في نفس الوقت .

ولا شك أن المعلومات عن المغول قبل قيام دولتهم على يد چنكيز خان تبدو جوهريّة حتى نستطيع فهم التاريخ المبكر للإمبراطورية المغولية ، وعلاقتها بغيرها من الدول الأخرى ، فليس من المتصور أن يخرج چنكيز خان ومعه قبائل المغول والتتار ويؤسس إمبراطورية كبيرة دون أن يكون لها نظام وقوانين تحكم هؤلاء ، والا لما وصلوا إلى قمة المجد نتيجة فتوحاتهم تلك . إن المغول تعاملوا مع شعوب كثيرة شملت الصينيين والترك – جيرانهم – والإيرانيين والعرب والأوروبيين وغير هؤلاء من شعوب أخرى وأحرزوا انتصارات باهرة وأظهروا مقدرة فائقة في القتال وسياسة الرعية والشعوب المحكومة ، والقليل من تلك الشعوب حتى تلك التي انضوت تحت لوائه بحث في أصل هؤلاء وكتب عنهم . ومن حسن الحظ أن مؤرخا إيرانيا كان له سبق الفضل في مدنا بمعلومات وافية قيمة مدعمة بالوثائق عن المغول هو « خواجه رشيد الدين فضل الله الهمداني » ، الذي شغل منصب الوزارة لعبد من إيلخانات المغول في إيران ، وكتابه « جامع التواريخ » الذي دونه باللغة الفارسية وبأسلوب سهل سلس عام ٧١٠ هجرية (١٣١٠م) فيه الشيء الكثير عن أصول القبائل المغولية والتركية وتاريخها .

إن كتاب « جامع التواريخ » يقع في مجلدين كبيرين ، طبع منهما المجلد الثاني المشتمل على تاريخ الدولة المغولية من عهد « أوكتاي قاآن » حتى هولاكو خان بمدينة ليندن عام ١٢١١م ضمن مجموعة « جب التذكارية » بتصحيح المستشرق إدجار بلوشيه ، وطبعت منه في باريس سنة ١٨٤٤ قطعة خاصة عن تاريخ هولاكو خان بتصحيح المستشرق الفرنسي كاتر مير ، ونشر المستشرق كارل يوحنا الجزء الخاص بتاريخ السلطان محمود غازان خان في مجموعة جب التذكارية عام ١٩٤٠ . كما أن له نسخة عربية مصورة موجودة في دار الكتب والوثائق العربية بالقاهرة .

وقد رأى إيلخانات المغول تدوين كتاب في التاريخ – لشغفهم الزائد بهذا الفن – يجمع الروايات التاريخية لجميع الأمم التي تدخل في

الامبراطورية المغولية ، أو التي لها علاقة بالمغول من الصينيين الى الافرنج (سكان أوروبا الغربية) . ونفذ بعض هذا العمل ، وكلف القيام به خواجه رشيد الدين فضل الله الهمداني الذي كان يهوديا وأسلم على أرجح الأقوال وعاونه في هذا العمل الخطير رجل مغولي عالم بالروايات التاريخية المغولية ، واثنان من علماء الصين ، وراهب بوذي من كشمير ومجموعة من علماء ايران وأدبائها . وحاول خواجه رشيد الدين فضل الله تسجيل الروايات التاريخية كما سمعها من روايتها بدون تغيير ، وعلى ذلك فليس كتابه من هذه الوجهة تاريخا علميا بالمعنى المفهوم في العصر الحديث ، الا أنه يشغل في آداب العالم مكانة ممتازة من حيث اتساع دائرته . وقد قام أستاذنا العلامة الدكتور فؤاد عبد المعطي الصياد بدراسة شخصية رشيد الدين فضل الله وكتابته « جامع التواريخ » وأخرج لنا بحوثا ودراسات وتحقيقات قيمة عن المغول وعن رشيد الدين فضل الله وكتابته سدت فراغا في المكتبة العربية .

وهناك عدد من الكتب باللغات الفارسية والعربية والافرنجية تعرضت للمغول وتاريخهم لا يسعنا ذكرها الآن ، سنتعرض لها في حينها وفي موضعها .

موطن القبائل المغولية :

كانت القبائل المغولية تعيش في مستهل القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) في هضبة منغوليا ، الواقعة شمال صحراء جوبي بين بحيرة بايكال في الغرب وجبال خنجان على حدود منشوريا في الشرق ، وتكون الجبال المحيطة بها والتي أشهرها جبال خنجان حاجزا منيعا بين الأقاليم الصينية الحارة وبين الأراضي الباردة في سيبيريا ، وكانت القبائل المغولية في ذلك الوقت تقطن المنطقة الممتدة من سور الصين العظيم جنوبا الى بحيرة بايكال شمالا . وفي الجنوب الشرقي لهضبة منغوليا ، تقع صحراء جوبي التي ليست سوى سهل متسع مسطح أو متموج ، تغطيه طبقة من الحصباء شديدة الصلابة ، اذ جردتها الرياح الشديدة من التربة والرمال حتى ظهرت في بعض جهاتها مساحات من الصخور أشبه بالجزر في البحار . وكان من أثر ذلك أن انعدمت الزراعة في أكثر جهاتها بحيث لم تشاهد الا في أماكن متفرقة .

ان الظروف القاسية أملت على سكان البلاد أن يعيشوا عيشة رعوية ،

وأن ينتقلوا من مكان الى آخر سعياً وراء الكلاً . وقد امتاز الشعب المغولي ، كغيره من القبائل التي تقطن تلك المناطق بصفات متميزة تنحصر في الهجرة وعدم الاستقرار في مكان معين ، حتى أننا نجد المغولي يكن لحرفة الزراعة كراهية شديدة . وعلى الرغم من أن القبائل المغولية كانت تسكن بعض السهول الخصبة أحياناً ، إلا أنهم لم يحاولوا زراعتها بل كانوا يهاجرون في فصل الصيف من السهول الى جبال ، ولا يتركونها إلا اذا انعدم العشب فيها ، وأصبح من المتعذر عليهم البقاء مع قطعانهم .

ومع ذلك كانت توجد مناطق أهلة بالسكان حيث كانت تقوم الزراعة على أطرافها ، ويسكنها طوائف بدوية وأخرى حضرية تسكن القرى ولذلك كان مستوى المغول الحضارى على درجات متفاوتة ، وأهم منطقتين يقطنهما المغول هما :

١ - حوض بحيرة « بالخاش Balkhache » ويوجد في وسطه جبال « تيان شان Thian - Chan » و « كوين لن Kuen - Lun » وهضبة القبت وبحيرة آرال ، ويعيش فيها طوائف مختلفة من الجنس الأصفر والأتراك .

٢ - البلاد الواقعة بين جبال « سايان Saian » و « آلتاي Altai » و « خينكان Khingan » . وتعد من الناحية الجغرافية من أقصى النواحي معيشة في كافة أنحاء آسيا المركزية والشرقية ، وتعيش فيها طوائف من الجنس الأصفر من المغول والتتار .

مناخ هضبة منغوليا :

بعد مناخ هضبة منغوليا قاس ، بل شديد القساوة يندر وجوده في منطقة أخرى فهو يبلغ النهايات العظمى في الحرارة والبرودة ، وفي جفافه الشديد ، وفي قوة الرياح العاصفة التي لا حد لها . أما البرودة ، فهي الغالبة في معظم أيام السنة بسبب طول فصل الشتاء اذ يتجمد الماء في المنخفضات حتى شهر مايو من كل عام ، ويمكن أن يرى الجليد على أوانى الشرب في شهر أغسطس . كما أن الصيف لا يكاد يبدأ حتى ينتهى ، وتبلغ الحرارة في فصل الشتاء في بعض الجهات ٥٨ درجة تحت الصفر ، وفي فصل الصيف القصير تبلغ درجة الحرارة أحياناً ٦٠ درجة مئوية .

ومما يزيد من قسوة مناخ منغوليا أن الرياح تهب في معظم أيام السنة شديدة عاتية ، حتى أنها تحمل معها الحصى وتنقله الى مسافات بعيدة مما يجعل مواجهتها مستحيلة . ويشهد على قسوة هذا المناخ كل من زار منغوليا منذ أقدم العصور ، يقول المؤرخ هوارث : « ان المناخ بمنغوليا لا يثبت على حال واحد حتى في أواسط الصيف ، وأن الرعد والبرق الذى يؤدي بحياة الكثيرين لا يكاد ينقطع ، والثلج يسقط بكميات وفيرة ، والأعاصير باردة الريح شديدة الهبوب الى حد يصعب معها بقاء الرجل على سرجه ، (١) » .

وعلى ذلك فان الظروف الجغرافية والمناخية لمنغوليا قد جعلتنا منه اقلها قفرا لأن الجبال المحيطة بتلك الهضبة منعت عنها الرياح الدافئة المطيرة في فصل الصيف ، علاوة على البرودة الزائدة في فصل الشتاء .

* * *

نأتى بعد ذلك الى ذكر أشهر طوائف المغول التى شاركت في القتال مع چنكيز خان وساهمت في تأسيس الامبراطورية المغولية ، نجد أن هذه الطوائف تشمل الآتى :

١ - قيات : وهى قبيلة چنكيز خان وكانت صغيرة العدد غير متشعبة ، ولد ونشأ فيها مؤسس الامبراطورية المغولية ، وكان والده « يسوكاي بهادر » رئيس وخان تلك القبيلة ، وكانت تدين بالوثنية ، وبرغم قلة عدد أفرادها الا أنها تبوأ مكاناً مرموقاً بين القبائل والطوائف المغولية بعد ظهور چنكيز خان وقيادته الشعب المغولى .

٢ - أويرات Oirat : وكانوا يقيمون في المنطقة الواقعة ما بين نهر « أونون Onon » وبحيرة باكيال ، ويسكنون منطقة منابع ينسى (سه كيز موره ن) (أى الأنهار الثمانية) (٢) وكانوا كثيرون العدد ، ويتكلمون بلغة تختلف قليلاً عن لغة القبائل والطوائف المغولة الأخرى .

(١) Howorth : History of the Mongols, Vol. IV, P. 14-27.

(٢) بارتولد : تاريخ الترك في آسيا الوسطى ، ترجمة الدكتور

أحمد السعيد سليمان ، ص ١٥٢ .

وقد تشعبوا الى عدة شعب ، الا أنهم كانوا يأترون بأمر ملك واحد ، ولما جاء چنكيز خان خالفوه بعض الشئ في البداية ، وناصبوه العدا ، الا أنهم سرعان ما قدموا له فروض الطاعة والخضوع وقد صاهرهم چنكيز خان فيما بعد .

٣ - النايما : وهم من الأتراك الذين غلب عليهم الطابع المغولي ، وكانوا يقطنون الحوض الأعلى لنهر « أرخون » ، وسفوح جبال آلتاي ، وحول البحيرات الواقعة في تلك المناطق ، ويملكون كل غرب منغوليا ابتداء من شمال نهر أورخون الى نهر ايرتيش . وكانوا بدوا رحل يقيم بعضهم في مناطق الجبال الوعرة ، والبعض الآخر في الصحارى ، وهم يدينون بالمسيحية التي وردت اليهم عن طريق النساطرة من بلاد الشام ، وقد استعار النايما مبادئ ثقافتهم من الأتراك الأويغوريين جيرانهم في الجنوب . ويعد النايما أرقى أنواع الترك ثقافة في ذلك الوقت ، وكانوا يتكلمون اللغة المغولية .

وكان للنايما ملوك أصحاب شهرة ونفوذ قوى ، ولهم جيوش كثيرة ، وكانوا رغم تركيتهم لهم تقاليد وعادات تشبه عادات المغول ، ويطلق على ملوكهم لقب « كوجلوك خان » أو « بويروق خان » ، ومعنى كوجلوك الملك المعظم والقوى ، أما « بويروق » فمعناه « معطى الأمر » ومع ذلك فقد كان لكل ملك نايماني اسم أصلي آخر يختاره له أبواه .

٤ - الكراييت Kerait : وموطنهم الواحات الشرقية الداخلة في صحراء جوبي وجنوب بحيرة بايكال حتى سور الصين العظيم ، وهم شعب شبه بجوى ينتمى الى أصول تركية ، وكانوا يدينون بالمسيحية . وفي أوائل القرن الحادى عشر الميلادى تحول ملكهم ومعظم رعاياه الى الديانة المسيحية على المذهب النسطورى ، وأدى تحول الكراييت الى المسيحية أن أضحو على اتصال بالترك الأويغور ، الذين كان بينهم عدد كبير من النساطرة ، فامتدت مدنياتهم الى الكراييت . وقد ظلت قبائل الكراييت منذ القرنين الخامس والسادس الهجريين (الحادى عشر والثانى عشر الميلاديين) أقوى قبائل المغول ، واستطاعوا اخضاع أغلب الطوائف المجاورة لهم .

وتذكر الروايات التاريخية أن ملك الكراييت اعتنق الدين المسيحي في سنة ٤٣٨ هـ (١٠٠٧ م) وأنه قد ذاع أمره في أوروبا ، وراجت الأساطير والخرافات عن هذه الطائفة وملكهم .

وحوالي سنة ١٢٧٠ م مات « كور ياكوس بن مير جوز خان » خان الكراييت ، وصادف ابنه طغول بعض العقوبات في الاستحواذ على ملكه ازاء معارضة اخوته وأعمامه ، على أنه ظفر في حروبه على اخوته وأقاربه بمساعدة « يسوكاي بهادر » والد چنكيز خان الذي صار له بحكم ماتهادهما عليه وأقسما من يمين . كذلك استطاع أن يهزم التتار تلبية لرغبة بلاط « كين » الصينى . وبهذا صار طغرل أقوى ملك ورئيس قبيلة في منغوليا وقد منحه امبراطور كين - تقديرا له على خدماته وأعماله - اللقب الصينى للملك وهو « وانج Wang » ، وعرف طغول هذا في التاريخ بلقبه الملكين الصينى والتركى وهما « وانج خان » .

٥ - المركييت Markit : وهم من المغول ، وكانوا يسكنون المنطقة الواقعة شمالى بلاد الكراييت على مجرى نهر « سلنجا » وجنوبى بحيرة بايكال . وكان لهم جيش قوى ذو بأس شديد ، وعرف عن هؤلاء القوم ميلهم الى الشغب واثارة الفتن . ولهذا شن عليهم چنكيز خان حربا شعواء استعمل فيها أقصى ما عرف عن المغول من قسوة وشدة ، ولم يقف عند هذا الحد ، بل أصدر أمره بالقضاء عليهم جميعا ، فلم ينج من سيوف قوات چنكيز خان الا القليل . وذكر خواجه رشيد الدين فضل الله هذه الواقعة في كتابه « جامع التواريخ » وقال ما ترجمته : « لم ينج من سيوفهم (أى سيوف جنود چنكيز خان) الا بعض الهاربين ، أو من استطاعوا الاختفاء لدى أقاربهم ، أو من كانوا لا يزللون أجنة في بطون أمهاتهم » (٣) . وذكر العلامة القزوينى نقلا عن صاحب كتاب « جامع برزین » أن شعب المركيت مستقل عن الشعب المغولى لكنه كان قويا وصاحب نفوذ كبير ، (٤) .

(٣) رشيد الدين فضل الله : جامع التواريخ ، المجلد الاول ، تحقيق بهمن كرىمى ، ص ٧٣ .

(٤) محمد عبد الوهاب القزوينى : یاد داشتهاى قزوينى ، المجلد =

٦ - التتار : وهم طائفة كبيرة تتكون من قبائل كثيرة ، ويتشعبون الى شعب كثيرة ، أحرزت شهرة كبيرة ، حتى أن الكثير من المؤرخين يطلقون اسم « تتار » على كافة المغول . وكان التتار يقطنون المنطقة التي تحد شمالا بنهرى « أرخون » و « سلنجا Selenga » ومملكة القرغيز ، وشرقا باقليم الخطأ (الصين الشمالية) وغربا بممالك الأويغور ، وجنوبا باقليم التبت . وبصفة عامة يعيشون في الجنوب الغربى من بحيرة بايكال حتى « كيولن Kerulen » ، وكانوا على صلة بالمسلمين ، كما كان من بينهم مسلمون . وقبائل التتار من أشد قبائل الجنس الأصفر بطشا وجبروتا في أقاليم آسيا الشمالية . ويذكر المؤرخ رشيد الدين فضل الله أن هؤلاء التتار كانوا أكثر قبائل البدو رفاهية وتنعما ، وأنهم كانوا أثرياء (٥) .

وقبيل ظهور چنكيز خان على مسرح السياسة الدولية استطاع التتار أن يخضعوا أغلب قبائل الجنس الأصفر البهوية ، وكانوا يتمتعون بشهرة واحترام زائد نتيجة قوتهم وجبروتهم بحيث أن القبائل التركية على اختلاف مراتبها وطبقاتها وأهميتها كانوا يتسمون بالتتر ، فأطلق على الجميع اسم « تاتار » أو « تتر » ، يقول رشيد الدين فضل الله : « انه لهذا السبب لا زال حتى الآن في بلاد الخطأ والهند والصين ومنشوريا وبلاد القرغيز والباشقر وصحراء القبجاق وولايات الشمال وأقوام الأعراب والشام ومصر والمغرب يطلقون اسم « تاتار » على أقوام الأتراك » (٦) .

ويعلق بارتولد على ما ذكره رشيد الدين فضل الله عما ذكره عن التتار أنه لم يكن يعرف شيئا عن استعمال ومدلول كلمة التتر قبل العهد المغولى ،

السادس ، يقول القزوينى نقلا عن صاحب كتاب «جامع برزین» مايلی : «قوم مركيت هر چند از قوم مغول على حده بودند لیکن قوى حال ومعظم بودند» ، ص ٥٢ .

(٥) رشيد الدين فضل الله : جامع التواريخ ، ج ١ ، مرجع سابق ، ص ٦١ .

(٦) المصدر نفسه ، ص ٥٨ .

فهو يتحدث عن التتر كما لو كان شعبا مستقلا ومنفصلا متميزا عن المغول (٧) .

وبظهور چنكيز خان على مسرح السياسة الدولية بدأ صراع التتار يهدأ . ولما كان هؤلاء التتار يعادون المغول ويعتبرون من ألد أعدائهم ويناصرون القبائل النائرة عليهم ، كان چنكيز خان ينظر إليهم بحذر بالغ على أنهم ألد أعدائه وأعداء آبائه وأجداده . فبعد أن انتهى من القضاء على القبائل المناوئة له ، تفرغ للتتار ، وكان چنكيز خان مدفوعا بدافع الحقدي عليهم والانتقام منهم ، فقام ومعه جنوده بالاجهاز عليهم واستئصال شأفتهم ، وأصدر أمرا قاطعا ألا يترك واحد منهم على قيد الحياة . وتنفيذا لهذا القرار صار جنود المغول يقتلون كل ما هو تقرب حتى النساء والأطفال ، ويشقون بطون الحبالى اعتقادا منهم أن التتار هم سبب الفتنة وأس الفساد الذى كان متوارثا عند المغول . ولم يقف چنكيز خان عند هذا الحد ، بل انه لم يترك فرصة لأى شخص لكى يقوم بحماية هؤلاء التتار أو يحاول اخفاءهم . ولكن على الرغم من هذه الأوامر المشددة ، فقد أقبل كثير من المغول على الزواج من بنات التتار ، وكان للنسل الجديد يضم كبار قواد المغول وزعمائهم (٨) .

ومما سبق يتضح أن التتار كانوا قبائل مستقلة عن المغول ، ولكن من الغريب انه على أثر انتصار چنكيز خان على التتار ، أطلق اسمهم عليه وعلى أتباعه ، وفي بدء هجوم المغول على الممالك الاسلامية كانوا يعرفون بالتتار ، كما أطلق اسم « المغول » و « مغل » فاشتهروا فى التاريخ بهذين الاسمين . كما عرف المغول الذين فتحوا الصين باسم التتر أيضا (تاتا) بالصينية . كذلك أطلق ابن الأثير هذا الاسم على أسلاف چنكيز خان ويقول عنهم فى كتابه الكامل أنهم تتر . والتتار لهجة مغولية خاصة أدركها محمود الكاشغرى وتحدث عنها فى معجمه « ديوان لغات الترك » ، وذكر اختلاف اللغة التترية

(٧) دائرة المعارف الاسلامية . المجلد التاسع ، العدد ٦٨ ، مادة تتار ، ص ٢١١ .

(٨) رشيد الدين فضل الله ، جامع التواريخ ، ج ١ - مرجع سابق ، ص ٦٢ و ٦٣ .

(م ٢ - تاريخ الدولة المغولية)

عن اللغة التركية ، ويعنى بذلك اختلاف المغولية عن التترية والتركية (٩) .
 وكان يجاور المغول طوائف من الترك يعيشون حياة بدائية أشبه
 بحياة المغول ، نذكر منهم :

١ - الأتراك الأويغوريون : وكانوا يسكنون المنطقة الواقعة شمال
 شرقي التركستان الحالية . وتذكر الروايات التاريخية ، وهي أشبه بالأساطير
 أن أوغوز أبا الترك كان يؤمن بالله ويدين بالوحدانية ، ولكن أباه وأعمامه
 كانوا كفارا فنازعوه عقيدته ، وقاموا ضده وأرادوا القضاء عليه ، فانضم
 اليه بعض أقاربه ، وانحازوا الى جانبه ، وصاورا يساندونه ويعاونونه
 فأطلق عليهم اسم « أويغور » ، وهي كلمة تركية تأتي بمعنى الارتباط
 والتعاون ، فغلب عليهم هذا الاسم (١٠) .

وقامت الحرب بين الأوغوز والأويغور ، انتصر فيها الأوغوز ، ومع ذلك
 غاب الأويغور عاشوا تحت امره الأوغوز حتى سنة ٧٤٥ ميلادية حيث انتقل
 اليهم الحكم والسيادة ، وتلقب أميرهم بلقب « قلنمان » التي عربت الى
 « الخاقان » . وكان الخاقان الأويغوري يلقب نفسه بأمير (الأون) أويغور
 (أي أمير قبائل العشرة) والطقوز أوغوز (أي وأمير قبائل الأوغوز التسعة) .
 واستمرت هذه الدويلة التي رأسها زعيم الأويغور حتى سنة ٨٤٠م ،
 اتحدت فيها التسع عشرة قبيلة ، الأويغور والأغوز حتى قضى القرغيز
 على دولتهم .

وحين غزا القرغيز بلاد الأويغور ، أجبروهم على النزوح الى حوض نهر
 تاريم ، حيث أقاموا لهم دويلة ظلوا يمارسون فيها الزراعة والتجارة الى أن
 هدم چنكيز خان وسيطر على المنطقة بالكامل . وكان الى الغرب من بلاد
 الأويغور منازل القرلق أصحاب الدولة القراخانية ، يليهم قبائل الأغوز أو

(٩) دائرة المعارف الاسلامية ، المجلد التاسع ، العدد ٦٨ ، مادة
 تقرار ، ص ٢١٠ - ٢١٢ .
 (١٠) رشيد الدين فضل الله : جامع التواريخ ، ج ١ مرجع
 سابق ، ص ٣٣ .

الغزب منتشرة في مساحة كبيرة حتى بحر قزوين ، ومن هؤلاء السلاجقة والقبجاق والعثمانيون .

ونتج عن ابتعاد الأويغور عن الصين ، أن ابتعدوا أيضا عن حضارتها وثقافتها مؤثرين عليها حضارة السغد ، فاتخذ ملوكهم لقب « شاه » ، كما استعملوا في كتاباتهم أبجدية ترد الى الأصول السغدية ، فكانت تتلاقى مع الأبجدية اليهودية المشتقة من الأبجدية الآرامية .

وانتشرت الكتابة الأويغورية انتشارا واسعا بين شعوب آسيا التركية حتى بعد سقوط دولتهم . وعندما دخل ترك أواسط آسيا في الاسلام ، وما تبع ذلك من تغيير عقائدهم الدينية ومسايرتهم للحضارة الاسلامية ، انفصلوا عن الثقافة والحضارة الصينية . كما استعملوا الأبجدية العربية فيما بين القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين ، واستعملت أيضا فيما بين القرنين الثالث عشر والخامس عشر بين شعب دولة دشت القبجاق المعروفة بالقبيلة الذهبية والقيموريين في كتابة التركية القبجاقية والتركية الجغتائية .

وكان الأويغور ، رغم أقول نجمهم السياسي كدولة ، يلعبون كأفراد دورا ثقافيا كبيرا وسياسيا يازعا عند دول الترك والمغول ، وهم الذين عهد اليهم جنكيز خان تأديب أولاده ، كما أقاموا على ديوانه وداوين أبنائه من بعده . بل وصل نفوذهم لدى سادتهم أن كانوا عمال المغول في أغلب البلاد الاسلامية التي فتحوها . وكان مما دونوه لجنكيز خان « الياسا » وهي القوانين المغولية التي عمل بها المغول والقيموريون زمنا طويلا . كما استعمل ايلخانات فارس من المغول - أعقاب جنكيز خان وحفدة هولاكو خان - الكتابة الأويغورية بدورهم في مراسلهم مع بعض أمراء أوروبا في أواخر القرن الثالث عشر الميلادي ، فكتبوا بها الى بابا روما وفيليب الجميل ملك فرنسا وادوارد ملك إنجلترا بغرض قيام حلف بينهم لحرب المصريين أعداء الطرفين .

٢ - الأتراك القراخطائيون : وهم الذين كانوا يكونون دولة كبيرة قبيل الغزو المغولي ، وتقع ما بين مملكة الخوارزمشاهيين في الغرب ومساكن المغول في الشرق . وكان شاطئ نهر سيحون يكون الحد الفاصل بين مملكة القراخطائيين وأقاليم الدولة الخوارزمية .

وأصل هؤلاء من قبائل الخطا النازحين من شمال الصين . وقد ورد اسمهم في المراجع الصينية منذ القرن الرابع الميلادى قبل ظهور الاسلام بزمان طويل . وحدث في بداية القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) أن ظهر من بينهم زعيم قوى أخضع هذه القبائل لسلطته ، ونصب نفسه امبراطوراً عليهم . من سنة ٣٠٤ حتى ٣١٥ هـ (٩١٦ - ٩٢٧م) وسمى نفسه « تاسو Tai-tsu » واستطاع خلفه أن يخضع شمال بلاد الصين . ولقبت أسرته باسم « لياؤو Liao » نسبة الى الاقليم المسمى بهذا الاسم . واستمرت هذه الأسرة تحكم في الصين من سنة ٣٠٤ الى ٥١٩ هـ (٩١٦ - ١١٢٥م) أى حوالى قرنين من الزمان .

الحياة الاجتماعية :

أما عن حياة المغول الاجتماعية وعلاقاتهم الأسرية ونظامهم المعيشى . فإنه يمكن تلخيصه على النحو التالى :

المغول فرسان رحل يعيشون فى الخيام ، وهم قبائل من البدو الرعاة . تحكمهم قوانين وعادات ، ويخضعون لرئيس القبيلة أو الطائفة . ويطيعونه طاعة عمياء ، ويأتمرون بأمره . وكانت حياة المغول تتفق مع بدائتهم وفقير بلادهم . ولدينا كتاب قيم يحوى تفاصيل دقيقة عن حياة المغول الاجتماعية للمؤرخ هوارث Howarth وعنوانه History of the Mongols ألفه فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر وطبعه فى لندن عام ١٨٧٦م .

يذكر هوارث أن المغول يعتمدون فى طعامهم على الخيل فيأكلون لحومها ومنتجات ألبانها ، كما أنهم يأكلون لحوم الحيوانات على اختلاف أنواعها . ويدخل فى ذلك لحوم الكلاب والذئاب والثعالب والفئران . وأيضا يأكلون لحوم الحيوانات الميتة ولحوم البشر خاصة من أعدائهم . وقد ذكر هوارث ذلك صراحة ، فقال : « كان من عادة المغول أكل لحوم أعدائهم وشرب دمائهم » وأيضا « ان المغول فى احدى غزواتهم فى الصين ضحوا بواحد من كل عشرة رجال فى جيوشهم عندما نفذ طعامهم ليكون طعاماً للباقيين » (١١) .

وكان الرعى والصيد عملهم وحرفتهم الرئيسية الذى تدخل الحرب عليه شيئا من التنبؤ وكانوا عندما تذوب الثلوج ينتقلون شمالا انتجاعا للمراعى الصيفية ، كما ينتقلون مع الشتاء جنوبا الى المراعى الشتوية على جارى عادة أهل السهوب (١٢) .

أما فى فصل الصيف فلا يأكل المغول من اللحوم الا قليلا بعد أن يجففوها بطريقة عجيبة ، وذلك أنه اذا مات لديهم ثور أو جواد قطعوا لحمه الى شرائح رقيقة ، ويعلقوها فى الشمس والهواء لتجف دون أن يعثرها الفساد . وكانوا يستخرجون من ألبان البقر والغنم الزبد والجبن أما ألبان الأفراس فيستخرجون منها نوعا من اللبن المخمر (الرائب) يعرف عندهم باسم « كومس » ، وعن هذا اللبن المخمر يقول هوارث « ان المغول كانوا يضعون لبن الفرس فى قربة ثم يقلبونه بشدة بقطعة من الخشب ، وبعد أن يأخذوا منه الزبد بهذه الطريقة ، يتركونه حتى يصبح حامضا ، ثم يشربونه فيسكون لهم منه غداء لا بأس به » (١٣) .

أما عن الملابس التى كان يرتديها المغول ، فانها كانت بسيطة للغاية تتناسب مع حياتهم البدوية ، وكانوا يصنعونها من أصواف الغنم ووبر الجمال ، وأحيانا من جلود الحيوان ، وتكاد ملابس النساء تشبه ملابس الرجال . ومن عاداتهم عدم استبدال ملابسهم الا مرة واحدة كل شهر ، وفى فصل الشتاء لا يغيرونها أبدا . وفادرا ما كانوا يستحمون ، لذلك اتصفوا بالقذارة والفتونة والنجاسة . ومما يذكر عنهم أنهم كانوا اذا مروا بمكان فان رائحتهم تلتصق به حتى مدة طويلة ، أما بيوتهم فكانت رائحتها تزكم الأنوف ولا يطيق أحد البقاء فيها لعفونتها ، وقد ذكر ذلك هوارث فقال « ويقال انهم كانوا لا يرون غسل ثيابهم البتة ، ولا يميزون بين طاهر ونجس » (١٤) .

(١٢) هـ . ج . ولز : معالم تاريخ الانسانية ، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ، المجلد الثالث ، الطبعة الثالثة ، القاهرة سنة ١٩٧٢ ، ص ٩٢٦ .
(١٣) هوارث ، المصدر السابق ، ص ٥٩ .
(١٤) المصدر نفسه ، ص ٤٩ و ٥٠ .

ولا شك أن اتصالهم بالصينيين في الشرق والمسلمين في الغرب جعلهم يتأثرون بشعوب المنطقة التي استولوا عليها وتعايشوا معها في طرق حياتهم . وتغيرت ملابسهم عما كانت عليه من قبل ، وبخاصة تم هذا التحول بعد تأسيس امبراطوريتهم وخروجهم من أرضهم الجرداء . وذكر بعض المؤرخين أنهم رأوا المغول يلبسون الحرير والفراء الثمينة ، وتتزين نساؤهم بالحلى والجواهر . ويهتمون بنظافتهم وهندامهم ، كما يفعل أباطرة الصين وملوك وأمراء المسلمين . ولكن كان ذلك في القرن الثالث عشر الميلادى بعد أن أسسوا امبراطورية واسعة الأرجاء . وبعد أن أصبحوا سادة وصاروا يستوردون الحرير من الصين وفارس والفراء الثمين من روسيا وغيرها من البلاد الأوروبية التي كانت تدين لهم بالطاعة أو تتصل بهم .

ولم تكن مساكن المغول أحسن حالا من مساكن غيرهم من البدو الرحل ، إذ كانت تصنع على الأخرى من الصوف ، وإن كانت تختلف في طريقة اقامتها . فبينما كانت بيوت البدو غيرهم ، وبخاصة جيرانهم الترك ، مديبة من أعلاها . كانت سقوف بيوت المغول على شكل نصف دائرة حتى لا تجرفها الرياح ولا تنقلب بسهولة عندما تشتد العواصف . وكانت من أجل ذلك دائمة شتاء معتدلة صيفا ، وكانت تشبه اناء مقلوبا قائما على حوائط دائرية على صوف مثبت على هيكل من الألوال الخشبية المتصلة ببعضها بقطع من جلود الحيوانات .

أما حاجاتهم ووسائل معيشتهم فكانت بدائية وبسيطة أيضا . وكانوا يضعونها فيما يشبه الصناديق من النسيج المتين المغطى بالصوف حتى لا تعطب . وكانوا إذا عبروا بتلك الصناديق الأنهار أو نزل عليهم المطر يدهنونها بشحم الحيوان أو بلبن البقر حتى لا تتأثر بالماء . ويذكر هوارث . أن بعض بيوت المغول كانت كبيرة تجرها عربات عند نقلها ، يعلق في الواحدة عشرون بقرة وبعضها صغير يكفي ثور واحد لنقلها ، أو تنقل على ظهور الجمال ، (١٥) .

وكانت أبواب بيوت المغول تتجه عادة إلى الجنوب تجنبا للرياح القادمة

من الشمال والغرب القاسية ، وكانت النار تظل مشتعلة دائما في وسط البيت المغولي . أما ترتيب هذه البيوت من الداخل فكان بسيطا ، ويعلقون على الحوائط الأسلحة والأواني الجلدية التي كانوا يضعون فيها الألبان ومستخرجاتها ، وكانوا يضعون في الجزء الداخلي المواجه للباب فراش رب البيت ، ويخصصون الجانب الغربي من البيت للرجال والشرقي منه للنساء (١٦) .

أما عن حياتهم الأسرية فكانت بسيطة للغاية وفطرية ، ومع ذلك كان لهم من القوانين والعرف والتقاليد ما يناسب هذه البساطة . أما حياتهم الزوجية فكانت بدائية لا أثر فيها لأعمال التفكير الناضج ، فلا هي بالتى تقدر الزواج حق قدره ، ولا هي بالتى كانت تقدم للزوجة من الحقوق ما يكفل لها السعادة والهناء . وكان الزواج عندهم عملية تجارية بحتة ، ويوضح لنا هوارث ذلك بقوله « يجب أن تعلم أنه لا يوجد رجل بين المغول له امرأة الا اذا كان قد اشقراها ، ويحدث دائما أن تجتاز بناتهم سن الزواج دون أن يتزوجن لأن آبائهن يحتفظون بهن حتى يستطيعوا بيعهن » (١٧) .

ولا يعتبر المغولى المرأة زوجته الحقيقية حتى تنجب له طفلا ، أما اذا كانت عاقرا فيمكنه طردها ولا يقدم الزوج مهرا لزوجته حتى يصبح لها طفل ، وكانوا يشجعون على الانجاب حتى يكثر عدد أفراد القبيلة ليقوى من شأنها ويشد من أزرها ، وكانت المرأة المغولية كلما أنجبت أكثر زيد في احترامها ، وكان المغول ، وهم يعيشون وسط مجموعة من الطوائف والعشائر القوية يهدفون الى الاكثار من نسلهم بالتشجيع على الزواج ، لذلك صار العرف عندهم عدم تحديد عدد الزوجات كل حسب قدرته وقوته ، فكان للفرد المغولى أن يتزوج ما شئت له رغبتة أن يتزوج حتى صار للبعض منهم قرابة المائة زوجة ومن أقرب الأمثلة على ذلك چنكيز خان نفسه ، فقد قيل انه بنى بأكثر من خمسمائة زوجة في وقت واحد من بنات الأمراء أو الخانات ، ومع كثرة عددهن كان چنكيز خان يفضل خمسا منهن .

(١٦) المصدر نفسه ، ص ٥١ .

(١٧) المصدر نفسه ، ص ١٩٤ و ١٩٥ .

ويروى هوارث أيضا عن الحياة الاسرية المغولية أن الابن في بعض الأحيان كان يستولى على زوجات أبيه ما عدا أمه ، وذلك لأن منزلة الأب والأم تتحول إلى أصغر الأبناء ، ومن واجبه أن يشرف على أرامل أبيه ويرعاهن . ومما يجر عليه اللوم أن يدعهن يذهبن إلى منازل آبائهن بعد موت والده (١٨) . ولم يكن هناك فارق بين الأبناء الشرعيين والأبناء الذين يولدون من السراري والاماء في الميراث والحقوق الأخرى . ولم تكن هناك فوارق اجتماعية تحول بين زواج أى رجل مغولى من الفتاة التى يرغبها مهما كانت منزلتها في المجتمع المغولى .

وكانت القوانين السائدة لدى المغول قبل تأسيس امبراطوريتهم تظهر عليها الشدة والقسوة لردع المعتدين وحفظ الأمن في مجتمعهم . وهى التى أقرها جنكيز خان وأضاف إليها أشياء تتناسب مع مكانة المغولى في البلاد المفتوحة ، فقد كانت تقضى بالموت على من يرتكب الزنا أو قطع الطريق أو السرقة الكبيرة أو التجسس أو يستخدم السحر والشعوذة في حياته . كما كانت تقضى بضرب من يرتكب سرقة صغيرة ضربا مبرحا قد يؤدي بحياة المصروب في بعض الأحيان . أما اذا كانت الجريمة سرقة جواد أو شيء كبير ، فكانوا يقطعون المجرم نصفين بالسيف الا اذا كان قادرا على اقتداء نفسه بدفع تسعة أمثال الشيء المسروق (١٩) .

وكان المغول ، كغيرهم من الشعوب البدائية القديمة ، يدينون بديانة وثنية تعرف بالشامانية ، وظلوا يعتنقونها حتى حلت محلها البوذية . وكان المغول طبقا لعقائد الشامانية يعبدون كل شيء يسمو على مداركهم وكل ما يرهيبهم ، ويدخل الخوف على قلوبهم ، فلهم آلهة في النهر والجبل والشجرة الكبيرة ، وأيضا لهم آلهة في الشمس والقمر وفي البرق الخاطف والرعد القاصف ، بل وأكثر من ذلك لهم آلهة عن يمينهم وعن شمالهم وأمامهم وخلفهم وتحت أرجلهم . واذا اتجهوا في صلواتهم صوب الجنوب دل ذلك على

(١٨) هوارث ، المصدر السابق ، ص ١٩٥ .

(١٩) د . مصطفى طه بدر : محنة الاسلام الكبرى أو زوال الخلافة العباسية من بغداد على أيدي المغول ، الجيزة سنة ١٩٤٦م ، ص ٥٦ .

احترامهم للنار ، وصوب الشرق دل ذلك على احترامهم للهواء ، وصوب الغرب دل احترامهم للماء ، وصوب الشمال كان في ذلك احترامهم للموتى .

وكان المغول لا يتقربون الى هذه الآلهة كما فعل قدامى المصريين أو الإغريق ، بل كل ما عثر عليه عندهم كان عبارة عن خليط من أكوام للحجارة والخرق البالية وشعر الحيوانات وجلودها ويسمونها « أوبو » ، تقام بجوار الأنهار أو على قمم الجبال أو تحت الأشجار الضخمة حيث تقدم لها القرابين المختلفة . كما كان المغول يصنعون أشكالاً آدمية من الصوف يضعونها داخل بيوتهم أو أمامها ، ويعتقدون أنهم بذلك يبعدون الشر عنها ، ويزيدون من عدد الحيوانات فيها وادرار ألبانها أضعافاً مضاعفة .

أما رجال الدين عند المغول فكانوا أشبه بالكهنة عند المصريين القدماء ، طبقة مسنيرة تجيد علم الفلك وتحدد وقوع الخسوف والكسوف في أوقاتها ، وتعين للمغول الأيام الصالحة للعمل وغير الصالحة له . وإن لم يصل نفوذ هؤلاء الكهنة الى نفوذ نظرائهم في مصر القديمة وكان المغول يأخذون بآراء رجال الدين عندهم قبل أن يقدموا على عمل هام ، ولا يجمعون جيشاً ولا يدخلون حرباً إلا بعد أخذ موافقتهم . وكان هؤلاء الكهان يعتمدون فيما يدلون به من آراء على أشكال الخطوط والشقوق التي تظهر على أكتاف الحيوانات المحروقة ، ويعتبرون الأغنام والوعول هي أصلح الحيوانات لهذا الغرض ، وخاصة إذا كانت مقدمة كقرابين للآلهة (٢٠) .

صفات المغول :

اشتهر المغول بصفات ثلاث وتميزوا بها دون سائر الشعوب الأخرى ، الأولى صفات جسدية ، والثانية صفات خلقية ، والثالثة صفات حربية . وهذه الصفات الثلاث إكتسبها المغول نتيجة نشأتهم في بلاد فقيرة قاسية المناخ تتناسب مع البيئة التي شبوا في أحضانها . إن مميزات المغول الجسدية تتمثل في الرأس الكبير والوجه العريض والأسنان القوية والرقبة القصيرة والصدر الواسع والساقين القصيرتين المقوستين وقصر القامة والبشرة الصفراء السمكية .

(٢٠) هوارث ، مصدر سابق ، ص ٩٠ - ١٠٤ .

وتسبب فقر البلاد وقلة الغذاء وقسوة المناخ في نحول الوجه وبروز عظم الخد وقصر القامة منذ أمد بعيد . كما أن البشرة السمكية والجفون المسترخية التي حباهم الله بها تقيهم الرياح العاتية التي يتعرضون لها في بلادهم المترامية في معظم أيام السنة . أما اعوجاج السيقان فسببه قضاء المغول - رجالا ونساء - معظم أوقاتهم على ظهوب جيادهم ذات الركاب القصيرة .

وعن صفاتهم الخلقية فإن البيئة التي عاشوا فيها أضفت عليهم صفاتا خلقية فريدة . فهم كانوا يعيشون عيشة بدوية وسط قبائل وطوائف كثيرة أقوى منهم عدة وعددا ، وأقصى منهم شراسة وحبا لسفك الدماء . وكان لا بد لهم أن يصطدموا بتلك القبائل حينما كانوا يعملون على توفير المراعى ناشيتهم في فصول السنة المختلفة ، ولذلك كانت تقوم المراك الطاحنة وتشتد أحوالها بين القبائل المغولية على المراعى الخضراء ومجارى المياه .

وفرضت عليهم بيئتهم البدوية وحالة التنقل التي استلزمته ظروف حياتهم المعيشية أن يدربوا أنفسهم على حب المخاطرة ومواجهة الشدائد بثغر باسم ، وأن يغرسوا هذه الصفات في نفوس أطفالهم منذ نعومة أظفارهم . فكانوا يدربونهم - وهم في الثالثة من أعمارهم - على استعمال القوس والنباب . كما كانوا يدربونهم على صيد الأرانب والفئران . وكما يركب الكبار من المغول ظهور الجياد ، كان الأطفال يركبون الخراف ويتعلقون بها (٢١) . وهكذا كان ينشأ الطفل المغولى في طبيعة قاسية وحياة أشد قساوة . لذلك كانت حياتهم حربا مستمرة مع الطبيعة التي أمدتهم بأعظم سلاحين وهما الصبر والجلد ، فأعطتهم صفات المحاربين .

وكان المغولى - كغيره من الشعوب سكان البوادي والقفار - صريحا في الحق جريئا في ابداء رأيه ، لا يتردد ولا يلين . وقد عمل مجتمعه على تنمية هذه النزعة بما فرضه من العادات الموروثة .

(٢١) Lamb, H. : Genghiz Khan. Emperor of All men, London,, 1965, P. 69.

أما صفاتهم الحربية ، فكان المغول فرسانا بطبيعتهم ، وكانوا على اختلاف أعمارهم يقضون حياتهم على ظهور الجياد ، ولا يكادون ينقلون قدما على الأرض . ولم يكن الرجال وحدهم هم الذين يختصون بالفروسية ، بل ان النسوة من المغول أيضا كن يمتطين الخيل كالرجال تماما ، وكن يستعملان القسي والسهام ، ويقدرن على البقاء على ظهور الجياد زمنا طويلا ، ويذهبن مع الرجال الى ميدان القتال .

وكانت عادة المقاتل المغولي أنه اذا سار للقتال يحمل كل ما يحتاجه أثناء الحرب ، فيحمل آلات لشحذ رماحه ، كما كان يحمل الابر والخيوط لاستعمالها عند الحاجة ، ولا يأخذ معه من المؤن الا قريبا من اللبن ، وآنية من الفخار ليطهى فيها طعامه وخيمة صغيرة وآلة لحفر الأرض وكيسا من الجلد يحمل فيه ملابسه ويستعمله في عبور الأنهار .

وكان صبر المغولي يفوق الوصف ، فقد كان الطفل منهم يصبر على الجوع يومين دون أن يظهر ضعفا ، بل ويحاول ما أمكن أن يتظاهر بالمرح كأنه لا يعانى شيئا . والرجل منهم على الرغم من قوة شهيقه التى تدفعه الى أن يلتهم ما يقدر بخمس كيلو جرامات من اللحم فى الوليمة الواحدة وربع شاة فى اليوم ، نجده فى الحرب يصبر على آلام الجوع ، وقد يحدث فى بعض الأحيان أن يسير المغولى مدة عشرة أيام دون أن يتناول أى طعام ، وفى هذه الحالة يعيش على دماء جواده ، ذلك أن المقاتل المغولى كان يقطع شريانا من شرايين حصانه ويمتص من دمائه ما يسد به رمقه ، ثم يسد الشريان ثانية . كما أنه كان يكتفى بما يتناوله من اللبن الحامض (الكومس) الذى يحمله فى قربته ، كذلك كانت خيول المغول تشاركهم صبرهم هذا ، فكانت لا تحتاج الى عليقتها من شعير أو فول ، بل تحفر الأرض بحوافرها وتأكل ما يظهر من جذور النباتات .

كذلك كانت شجاعة المقاتل المغولى مضرب الأمثال ، وشهد بشجاعتهم أعداؤهم أنفسهم يقول ابن الأثير : « سمعت عن بعض أكابر الكرج وكان قد قحم رسولا انه قال : من حدثكم أن التتار (ويعنى ابن الأثير بذلك المغول لأنه لم يفرق بين التتار والمغول) انهزموا وأسروا فلا تصدقوه ، واذا حدثكم

أنهم قتلوا صدقوا ، فان القوم لا يفرون أبدا ، ولقد أخذنا أسيرا منهم فألقى نفسه من الدابة ، وضرب رأسه بالحجر الى أن مات ولم يسلم نفسه للأسر» (٢٢) .

واذا كان ذلك حال الفرد المغولي داخل قبيلته فان تجمع المغول كشعب لم يتم الا في القرن الثاني عشر الميلادي ، ذلك أن المغول كانت تخضع لأسرة « كين » الصينية التي اتخذت من بكين عاصمة لها . وابتدأ تدريب المغول على الشئون العسكرية بعصيان ناجح قاموا به على أسرة كين وحكمهم ، فتعلم المغول أثناء الكفاح شيئا كثيرا مما لدى الصينيين من العلوم العسكرية . وما أن وافقت نهاية القرن الثاني عشر حتى أصبحوا شعبا مقاتلا من طراز ممتاز ينقصه القائد الذي يستطيع أن يقودهم ، فكان ذلك من نصيب أحد المغول من قبيلة قيات هو تيموچين الذي عرف فيما بعد باسم چنكيز خان .

(٢٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج ١٢ ، ص ١٧٧ .

الفصل الثاني

چنكيز خان :

ان الشخص الذى استطاع أن يوحد القبائل المغولية المبعثرة وأسس أعظم امبراطورية فى العالم عرفها التاريخ كان يسمى فى بداية أمره « تيموچين » . ولد تيموچين فى منغوليا عام ٥٤٩ هـ (١١٥٥ م) فى إقليم « دولون بولدق » الواقع على الضفة اليمنى لنهر أونون ويقال أنه أخذ اسمه الأصلى هذا من اسم أمير تغلب عليه أبوه « يسوكاى بهادر » حوالى الوقت الذى ولد فيه تيموچين (٢٣) .

وكان والد تيموچين يدعى « يسوكاى بهادر » رئيس و خان قبيلة « قيات » إحدى قبائل المغول الشهيرة . واشتهر يسوكاى بهادر بين قومه بانتصاره على قبائل القتر المجاورة له والتي كانت تخشاهما معظم قبائل وطوائف المغول ، فالتف حول رايته عدد لا يستهان به من زعماء القبائل المغولية . وتزوج يسوكاى بهادر من نساء كثيرات من شتى الأقوام ، لكن أشهر نسائه كانت والدة تيموچين ، وكان اسمها « أولون فوچين » ، وقد تزوجها يسوكاى اغتصابا اذ اختطفها ليلة زفافها فى إحدى غاراته على قبائل الماركيت . ومع أنها كلفت حياتها لوسطها الجديد وأصبحت أما لتيموچين الا أنها كانت على يقين بأن قبيلتها لابد وأن تهب لأخذ الثأر فى يوم من الأيام مهما طال الزمن . وانجبت هذه السيدة أربعة أولاد اشتهروا فى التاريخ ، ولم تنجب اناثا قط . كما كان ليسوكاى بهادر ابن خامس من زوجة أخرى اسمه « بلكوتى نويان » ، وكان دائما ملازما لأخيه چنكيز خان فى حروبه الطويلة .

(٢٣) بارتولد : مقال « چنكيز خان » بدائرة المعارف الاسلامية ، المجلد ١٢ ، العدد ٩٥ ص ٣٧٩ .

توفي يسكاي بهادر عام ٥٦١ هجرية (١١٦٧م) وكان ولده البكر تيموچين لا يزيد عمره على ثلاث عشرة سنة ، فترك له وهو في هذه السن المبكرة أعباء كثيرة ومسئوليات جساما ، فكانت تركة مثقلة لا يقوى على حملها طفل في الثالثة عشر من عمره وبخاصة أنه كان للوريث الشرعي لرئيس القبيلة ، علاوة على رئاسة حلف مغولي كان والده قد تزعمه وهزم به الصينيين : وكان أول عمل أقدم عليه حلفاء أبيه أن حلوا الحلف الذي كان يرأسه يسوكاي بهادر والد تيموچين عقب وقاته مباشرة ، كما انفض عنه أيضا أكثر الأقارب والأتباع ، واستغلت قبيلته صغر سنه ورمته بالضعف ورفضت طاعته ، وأعلنت التمرد والعصيان والتفت حول زعيم آخر ، فاضطر تيموچين هو وأمه وأخوته أن يهيئوا على وجوههم وتضوا فترة من حياتهم يعيشون على صيد الحيوان والأسماك بعيد أن تخطى عنهم الناس جميعا وذاقوا مرارة الجوع والفقر والحرمان .

وقد فضلت القبائل المغولية الانصواء تحت راية أحد زعماء القبائل المغولية . وعندما توطد له الأمر لم يشعر براحة طالما بقي هناك من يطالب بخقه الشرعي في وراثة زعامة يسوكاي . لهذا أخذ يطارده تيموچين ، وتمكن فعلا من اللقاء القبض عليه ، إلا أنه تمكن من الفرار بمساعدة أحد حراس أعدائه الذي رق قلبه عليه وفك أسره وأطلقه من عقاله .

وقد حبت طبيعة منغوليا الشاب تيموچين سيئاتها وحسناتها ، فوهبته قوة جسمانية رهنية وتعطشا لسفك الدماء وحقدا على المجتمع ، وذكاء نظريا منذ نعومة أظفاره . وكان تيموچين المصارع الأول بين أقرانه . وفي سن الشباب المبكر أحب فتاة تسمى « بوتاي » ، وكان ذلك قبيل وفاة والده وكانت تصغره بثلاث سنوات ، فكلم والده عنها ، وحينما قال الوالد أنها ما زالت صغيرة أجاب تيموچين أنه لابد وأن تكبر ويعلمها الزمن الخبر .

كان تيموچين وهو في سن الشباب غنيدا ، ونظر حوله فقر أن يعمل بمفرده على الرغم من أنه كان بإمكانه الاستفادة من جهتين عند افلاته من الأسر والحبس . هما عشيرة والد خطيبته بوتاي ثم قبيلة

الكراييت والتي كانت بين ملكها ووالده علاقات وطيدة ومؤاخاه . وكان والد بوتاي من الزعماء الأقوياء وكانت صلتها بوالد تيموجين وطيدة للغاية . اما قبيلة الكراييت فانها كانت ذات ثراء وقوة وبامكانها تقديم العون الى تيموجين لاستعادة ملك والده ، لاسيما وأن ملكها طفول المعروف عند الغرب « بالقديس جون . Prester John » . يعتبر نفسه بمقام الوالد بالنسبة لتيموجين لأنه شرب مع يسوكاي بهادر نخب الصداقة الأبدية التي تحتم على أي منهما بمساعدة أولاد الثاني فيما اذا دعت الحاجة (٢٤) ، الا أن تيموجين تردد في طلب الاستعانة بأى منهما في بادئ الأمر وذلك حسب قوله بأن زيارة الفيلس لأصدقائه لا تجلب غير العار والاحتقار ، وصمم أن لا يزور طفول كلاجىء وانما كحليف .

تمكن تيموجين بشجاعته من المحافظة على مراعى أسرته فتحسنت حالته المادية ووقفت بجانبه أمه بنفسها في تفر ضئيل من الذين فضلوا البقاء بجوار ابنها ، ثم بدأت تتوافد عليه بعض القبائل لما توسعت فيه زعامة مقبلة بعد أن بلغ سن السابعة عشر . كما حاول تيموجين إجبار المنشقين من الأتباع والأقارب على العودة الى قبيلتهم ، وناصبهم العدا ، وقبل بعضهم العودة الى حظيرة القبيلة ، أما أولئك الذين رفضوا الانصياع لتيموجين ، فانه اصطدم بهم واشتبك معهم في قتال رهيب ، انتصر فيه تيموجين آخر الأمر . وبعد أن دانت له قبيلة قيات برمتها قرر الزواج من خطيبته بوتاي . ثم خف لزيارة طفول ، وهو موفور الكرامة طالبا منه التحالف ضد قبائل المركيت التي اختطفت في إحدى غاراتها زوجته بوتاي اتخذاً لثأر أمه أولون فوجين الذى مضى عليه ثمانية عشر عاما . وقد تمكن تيموجين من الانتصار على المركيت واستعاد منهم زوجته (٢٥) .

وواصل تيموجين خطة والده في الزعامة والتوسع على حساب المناطق

(٢٤) Grosset, R. : L'Empire Mongol, VIII, Paris 1945, P. 48 - 54.

(٢٥) مير خواند ، روضة الصفا ، المجلد الخامس ، ٤٨ .

المجاورة متحالفا مع قبيلة الكراييت وامبراطورية الصين الشمالية المعروفة بامبراطورية كين Kin ، وأحرز نصرا حاسما على عدوه « تركوتاي » زعيم قبيلة التايجوت . كما بسط سيطرته على منطقة شاسعة من اقليم منغوليا تمتد حتى صحراء جوبي حيث مضارب عدد كبير من قبائل التتار ، ثم عمل بعد ذلك على اخضاع سائر جيرانه من القبائل الأخرى .

ان الانتصارات التي أحرزها تيموچين واتساع نفوذه وفرض سيطرته على القبائل المغولية وغيرها جعلت حليفه رئيس قبيلة الكراييت «أونك خان» ينظر الى تيموچين الشاب بقلق زائد ، فذب بينهما الخلاف والشقاق بعد أن كانت بينهما المودة والتحالف ، لكن خان الكراييت وقد بدأ يخشى قوة تيموچين أخذ يعمل على وأد أعماله حتى لا يستفحل أمره ويصعب بعد ذلك معاملته ، وفهم تيموچين قصد أونك خان وما يدور في مخيلته وعلم بما يدبر له في الخفاء ، فأخذ أتباعه وغادر المكان دون أن يستأذن من مضيفه وحليفه الذي تبعه وأوقف تيموچين ومن معه من رجال ، وحدثت بين الفريقين معركة شديدة انتهت بقتل خان الكراييت وفوز چنكيز خان ، وكان ذلك سنة ١٢٠٣ م . ثم استولى على عاصمته قره قورم وجعلها قاعدة لملكه . وأصبح تيموچين بعد انتصاره على خان الكراييت أقوى شخصية مغولية ، فنودي به خاقانا ، وعرف باسم « چنكيز خان » (أى امبراطور العالم) من قبل زعماء المغول والتتار ، كما اعترف به امبراطور كين الصينى (٢٦) .

واشتغل چنكيز خان فى الفترة من سنة ١٢٠٣ حتى سنة ١٢٠٦ بتوطيد سلطانه والسيطرة على كافة المناطق التى يسكنها المغول والتتار الواقعة بين نهري أمور فى الشمال الشرقى وتاريم فى الجنوب الغربى ، أى كافة المناطق الواقعة خارج السور الصينى العظيم .

وفى سنة ٦٠٠ هجرية (١٢٠٤ م) أغار چنكيز خان على قبيلة النايمان المغولية وهزمهم عند حدود جبال آلتاي ، وجرح فى المعركة التى نشبت بين الطرفين خان النايمان « تايانك خان » ، وما لبث أن توفى بعد قليل . وبعد

الاستيلاء على ممتلكات النايما ، تمكن چنكيز خان من هزيمة أقوام أخرى من المغول كانت تسكن عند حدود التبت والحدود الشرقية للتركستان ، وأيضا تمكن في سنة ٦٠٣ هجرية من هزيمة القرغيز ، وهم إحدى القبائل التركية القوية المجاورة للمغول والتتر ، أما ملك الأويغور فإنه أسرع بتقديم ولائه وطاعته الى چنكيز خان ، ثم صار فيما بعد أقوى حليف له .

واتجه چنكيز خان بعد ذلك الى اصلاح الشئون الداخلية لمملكته الناشئة ، فدعى أول برلمان له « قوريلتاي » عام ٦٠٣ هجرية (١٢٠٦ م) بعد أن وحد منغوليا بأكملها تحت سلطانه . وفي هذا الاجتماع حددت لأول مرة شارات ملكه ونظم امبراطوريته بأن وضع لشعبه دستورا اجتماعيا متين البنين ودستورا حربيا لا يقل عنه قوة وصرامة ، وتكون أحكام هذا وذاك قانون « الياسا » الذي نفذه المغول ومن انضم تحت لوائهم بكل دقة وقدره تقديس الكتب السماوية لأصحاب الديانات المنزلة .

الياسا الجنكيزية :

رأى چنكيز خان بثاقب نظره أن الآداب والعرف والتقاليد المغولية التي كانت سائدة حتى عصره لا تفي بمتطلبات الدولة الجديدة ، كما أنها لم تكن مدونة فأعاد النظر في تلك العادات ورد بعضها وقبل معظمها ، وأضاف إليها بعض الأحكام والقواعد وجعل لها صبغة رسمية ، وأمر بأن يتعلم الأطفال المغول الخط الأويغوري ، كما أمر بأن تدون تلك النظم والأحكام بهذا الخط . وأن يحتفظ بها في خزائن أمراء المغول . وهو قانون مختصر بسيط ، ولكنه صارم وحازم قوامه احترام المجتمع المغولي وتفوقه على غيره من المجتمعات الأخرى .

ان الياسا التي سنّها چنكيز خان وجعلها دستورا لهؤلاء القبليين المتعطشين للدماء كانت إحدى العوامل التي ساعدت على انتصاراته وتكوين امبراطوريته الواسعة حيث نزل المغول ومن انضم تحت لوائهم على حكمه . وكان العقاب الذي ينزل على المخالفين للياسا شديدا قاسيا لا تعرف نصوصه الرحمة والشفقة . وتناول الدستور أمورا متعددة ، أولها توحيد المعتقد ، (م ٣ - تاريخ الدولة المغولية)

اذأنتار الى الاعتقاد بفاطر السموات والأرض يهب الملك لمن يشاء ويسلبه
 ممن يشاء ، وهو القوى الجبار حسب معتقدهم الوثنى ، وقد اشتمل على
 المواد التالية :

- ١ - يتحرر من المسئوليات الحكومية كل من الوعاظ والرهبان الذين
 كرسوا أنفسهم للخدمات الدينية وكذلك للمؤذنين والأطباء وغسالى الموتى .
- ٢ - يعاقب بالاعدام كل من يعلن نفسه امبراطورا خلافا لارادة المؤتمر
 المغولى العام (القوريلتاي) .
- ٣ - يمنع كافة الزعماء من غير المغول والعشائر الخاضعة للمغول من
 حمل الألقاب الفخرية .
- ٤ - لا يجوز عقد السلم مع أى ملك أو أمير أو أمة من الأمم مهما
 كانت الا بعد تقديم الخضوع للمغول .
- ٥ - مراعاة القاعدة العسكرية فى تعبئة الرجال الى عشرات ومئات
 وآلاف وعشرات الألوف .
- ٦ - يستلم الجندى السلاح من قائده المباشر حال ابتداء المعركة ،
 وعلى الضباط الاحتفاظ بالأسلحة سليمة والتأكد من صلاحيتها قبل المعركة .
- ٧ - يعاقب بالاعدام من يحاول القيام بنهب أموال الأعداء قبل صدور
 الأوامر بذلك . والجندى من الغنائم ما للضباط بعد أن تؤخذ منها حصة
 الامبراطور .
- ٨ - القيام بصيد عام فى كل شتاء لاستمرار التدريب الحربى وتجهيز
 الأرزاق . وعلى كافة الأفراد الامتناع عن الصيد من بداية شهر مارس الى
 أكتوبر من كل عام .
- ٩ - لا يجوز ذبح الحيوانات المصادة ، بل يجب ربطها وشق الصدر
 وإخراج القلب منها .
- ١٠ - يسمح بأكال الأطراف من الحيوانات وأحشائها ولعق الدم ولو
 من ذلك كان من المحرمات سابقا .

١١ - ان الشخص الذى لا يساهم فى الحرب عليه أن يؤدى خدمة أخرى للامبراطور مجاناً لمدة من الزمن .

١٢ - يعاقب بالاعدام من يسرق جواداً أو ما يساويه وذلك بقطع جسمه الى شطرين . أما عقوبات المسروقات الأخرى فتتوقف على نوعية السروق وقيمته ، وتتراوح العقوبة لهذه الأشياء من سبع جلادات الى سبعمائة . ويمكن تحويل الجلد الى غرامة بمقدار تسعة أمثال الشيء المسروق .

١٣ - لا يجوز للأفراد الخاضعين للمغول تشغيل أى مغولى فى أى عمل كان .

١٤ - لا يجوز ايواء العبد الهارب ، ومن يفعل ذلك يعرض نفسه للاعدام ، وأن الشخص الذى يعرف مكان العبد الهارب ولم يخبر السلطات عنه يعرض نفسه لنفس العقوبة .

١٥ - لا يجوز الزواج من أقارب الدرجتين الأولى والثانية ، ويجوز الزواج بأختين ، ويحق للزوج اقتناء الجوارى ، ويسمح للنساء بتعطى الأعمال التجارية حسب رغباتهن .

١٦ - الأولاد الذين يولدون من أصل عبودى لهم نفس حقوق الأولاد الشرعيين : على أن نسل الزوجة الأولى لهم الشرف الأول ولهم حق وراثة كل شيء .

١٧ - يعاقب الزنا بالموت ، وكذلك اللواط .

١٨ - لا يجوز غسل الملابس و الاستحمام فى المياه الجارية أثناء الرعد والصواعق .

٢٠ - يعاقب بالموت أى ضابط أو زعيم لا يقوم بتأدية واجبه أو عند رفضه الخضوع أمام الخاقان .

وقد تحدث المقريزى فى كتابه الخطط عن القانون المغولى بشيء أشبه

بما ورد في النص الأصلي للياسا ، فذكر ما يلي « ان چنكيز خان القائم بدولة التتر في بلاد المشرق قرر قواعد وعقوبات أثبتتها في كتاب سماه ياسه ، ومن الناس من يسميه يسق والأصل في اسمه ياسه . ولما تم وضعه كتب ذلك نقشا في صفائح الفولاذ وجعله شريعة لقومه فالتزموه بعده حتى قطع الله دابرهم .

ومن جملة ما شرعه چنكيز خان في الياسه أن من زنى قتل ، ولم يفرق بين المحسن وغير المحسن ، ومن لاط قتل . ومن بال في الماء أو على الرماد قتل . ومن أعطى بضاعة فخر فيها فانه يقتل بعد الثالثة ، ومن أطعم أسير توم أو كساه بغير اذنهم قتل ، ومن وجد عبدا هاربا أو أسيرا قد حرب ولم يرده على من كان في يده قتل ، وأن الحيوان تكثف قوائمه ويشق بطنه ويمرس الى أن يموت ، ثم يؤكل لحمه ، وأن من يذبح حيوانا كذبيحة المسلمين ذبح ، ومن وقع حمله أو قوسه أو شىء من متاعه وهو يكر أو يفر في حالة القتال وكان وراءه أحد فانه ينزل وينال صاحبه ما سقط منه فان لم ينزل ولم يناوله قتل ، وشرط أن لا يكون على أحد من ولد على بن أبى طالب رضى الله عنه مؤنة ولا كلفة وألا يكون على أحد من الفقراء ولا القراء ولا النقياء ولا الأطباء ولا من عداهم من أرباب العلوم وأصحاب العبادة والزهد والمؤذنين ومغسلى الأموات كلفة ولا مؤنة ، وشرط تعظيم جميع المال من غير تعصب لمة أو أخرى ، وجعل ذلك كله قرينة الى الله تعالى . وألزم قومه أن لا يأكل أحد من أحد حتى يأكل المناول منه أولا ولو أنه أمير ومن يناوله أسير ، ولزمهم أن لا يتخصص أحد بأكل شىء وغيره يراه بل يشركه معه في أكله . وألزمهم ألا يتميز أحد منهم بالشبع على أصحابه . . وأن مر بقوم وهم يأكلون فله أن ينزل ويأكل معهم من غير اذنهم وليس لأحد منعه . وألزمهم أن لا يدخل أحد يده في الماء ولكنه يتناول الماء بشىء يغترغه به ، ومنعهم من غسل ثيابهم بل يلبسونها حتى تبلى ، ومنع من أن يقال لشىء انه نجس ، وقال جميع الأشياء طاهرة ولا يفرق بين طاهر ونجس ، وألزمهم ألا يتعصبوا لشىء من المذاهب ، ومنعهم من تفخيم الألفاظ ووضع الألقاب وانما يخاطب السلطان ومن دونه ويدعى باسمه فقط . وألزم القائم بعده بعرض العساكر وأسئحتها اذا أراد الخروج الى القتال وأنه يعرض كل ما سافر به عسكره وينظر حتى الابرة والخيط فمن وجده قد

قصر في شىء مما يحتاج اليه عند عرضه اياه عاقبه ، وألزم نساء العساكر بالقيام بما على الرجال من السخر والكلف في مدة غيبتهم في القتال . .
 وألزمهم عند رأس كل سنة بعرض سائر بناتهم الأبنكار على السلطان ليختار منهن لنفسه وأولاده . ورتب لعساكره أمراء الألوف وأمراء مئات وأمراء عشراوات . وشرع أن أكبر الأمراء اذا أذنب وبعث اليه الملك أخس من عنده حتى يعاقبه فانه يلقي نفسه الى الأرض بين يدي الرسول وهو ذليل خاضع حتى يمضى فيه ما أمر به الملك من العقوبة ولو كانت بذهاب نفسه ، وألزم باقامة البريد حتى يعرف أخبار مملكته بسرعة (٢٧) .

الحرب بين جنكيز خان والصين :

كان لابد من اصطدام جنكيز خان بامبراطورية الصين ، ذلك أن بعض طوائف المغول والترك كانت تتبع أسرة كين الصينية ابان ظهور جنكيز خان . ورأى أن الصينيين لا يكفون عن تحريض القبائل الواحدة منها ضد الأخرى لكي يشغلهم ويلهيهم فيظلون هم سادة الموقف ، ومن ناحية أخرى كي يأمنوا شر الغارات التي تشنها عليهم تلك القبائل ، فأراد جنكيز خان أن يضع حدا لتدخل سرّة كين الصينية في شئون القبائل المغولية ، غاشتبك مع الصينيين لأول مرة عام ٦٠٨ هجرية (١٢١١ م) واستطاع أن يحرز جملة انتصارات على القوات الصينية ، وخضعت له البلاد الواقعة في داخل سور الصين العظيم وعين عليها حكاما من قبله .

ان الحرب التي شنها جنكيز خان على الصين حشد لها منذ بدايتها جل القوى التي أمكن حشدها من القبائل والعشائر المغولية ، حتى أنه لم يبق في منغوليا سوى ألفين من الرجال . كما خرج الخاقان بنفسه ، هو وأولاده الأربعة لقيادة الجيوش المغولية .

وفي عام ٦١٠ هجرية (١٢١٣ م) عبأ جنكيز خان قواته ، وتحركت صوب الصين للمرة الثانية ، لكنه لم يتمكن من تحقيق الغلبة عليهم . نعم انه كان هو المنتصر في المعارك ، ومع ذلك فانه لم يحرز النصر الحاسم .

(٢٧) المقرئى : المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار ج ٢ ، القاهرة سنة ١٨٥٣ م ، ص ٢٢٠ - ٢٢١ .

ورأى چنكيز خان ضرورة العودة الى منغوليا ، لوصول أنباء تفيد أن أعداءه من المغول الفارين يتآمرون عليه . وقد انتهز چنكيز خان فرصة ارسال امبراطور الصين سنة ٦١١ هجرية (١٢١٤ م) رسالة اليه يعرض عليه الصلح ويحل السلام محل الخصام على أن يضم چنكيز خان كافة البلاد التي فتحها بحد سيفه في الصين سواء أكانت داخل السور أو خارجه . وأخيرا اتفق الطرفان ، « وای وانج Wai - Wang » امبراطور الصين وچنكيز خان ، خاقان المغول على الصلح ، وأرسل امبراطور الصين بعض الهدايا الى چنكيز خان بناء على طلبه . وما أن اجتاز چنكيز خان ثرافقه جيوشه سور الصين العظيم في طريق عودته لى منغوليا ، حتى عدل امبراطور الصين عن فكرة الصلح وشرع في تقوية حصونه ، وتحصين مدنه وقلاع ، واتخذ أهبة الاستعداد للاقاء عدوه المغولي ونقل عاصمة ملكه الى مدينة أخرى في الجنوب لتكون اقرب الى ساحة القتال تاركا بكين العاصمة الاصلية تحت حكم ابنه . فما كان من چنكيز خان الا أن استداع بجيوشه وعاد مسرعا الى الصين وانقض بجيوشه على جحافل الصين التي لم تكن قد أخذت أهبة الاستعداد . واشتبك معيم في معركة فاصلة سقطت على أثرها مدينة بكين في أيدي المغول عام ٦١٢ هجرية (١٢١٥ م) .

وكان لسقوط عاصمة الصين في يد چنكيز خان دويا عائلا ، ذلك أن انتصار چنكيز خان على الصينيين اعتبر انذارا للممالك الاسلامية التي آوت أعداءه والفارين من وجهه . وفي نفس الوقت لم تكن الدول الإسلامية على أهبة الاستعداد للاقاء المغول في ساحة الميدان ، فزادت هيئته في نفوس الجميع . وعندما عاد چنكيز الى وطنه سنة ٦١٣ هجرية (١٢١٦ م) استعد لتعقب أعدائه الذين هربوا الى الممالك الغربية .

چنكيز خان يتجه صوب الغرب :

كان يحد منغوليا والصين من جهة الغرب مباشرة مملكة القره ختائين العظيمة التي يتزعمها « كورخان » وتشمل المنطقة الواقعة من بلاد الأويغور حتى بحر آرال . وبدأت تلك الدولة في الضعف نتيجة الغارات التي قامت بها القبائل الرحل من المغول وغيرهم التي فرت من وجه چنكيز خان . وقضى هؤلاء الغزاة الرحل الجدد على كل سلطة في مملكة كورخان ، كما ساعد على

ضعفها ووهنها انشقاق كثير من حكامها المسلمين وعصيانهم ، خاصة السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه ، وخضوع كل من الأمير « أدقوت » الأويغورى لچنكيز خان سنة ٦٠٦ هـ (١٢٠٩ م) وهو الذى رافق الجيش المغولى فى حروبه فى الشرق الاسلامى ، وأرسلان خان أمير القرلق سنة ٦٠٨ هجرية (١٢١١ م) وهو أول أمير مسلم من الترك خضع للمغول وانضم الى چنكيز خان .

وكان أهم حدث تم فى الغرب فرار كوجلوك خان ابن ملك النايमान مع جمع غفير من أتباعه ، والتجائه الى كورخان ملك القراخانيين ، واشترائه فى أحداث المنطقة عندما شق السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه عصا الطاعة على كورخان بعد أن كان تابعاً له ، ورفض أن يدفع الضريبة السنوية المقررة عليه . ان صراع كورخان ملك القراخانيين والسلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه لم يكن بالأمر السهل ، فكلاهما صاحب جيش قوى واستعداد كامل وقدرة على القتال فائقة . فانتهر كوجلوك خان الفرصة - رغم أنه كان لاجئاً لا يحق له المشاركة فى شؤون الدولة المضيئة - وعرض على كورخان إمكانية تكوين جيش من أتباعه المشتتين والوقوف الى جانبه ضد مطامع السلطان الخوارزمى . وكان كورخان يخشى ضيفه ، فهو تركى مثله لكن عقليته مغولية بما تحمل من معانى الغدر واللؤم والخيانة ، فلم يوافق فى بادئ الأمر . ومن الناحية المقابلة لم ييأس كوجلوك خان وأخذ يحسن الأمر لكورخان وتعهده بألا يعصى له أمراً . وأخيراً أذن له بتنفيذ خطته واتخذ منه عوناً له على الخوارزمشاه فى حربه وصراعه المرتقب .

وظهر كوجلوك خان أول الأمر تابعاً لكورخان ، فجمع جنوداً غفيرة من طائفة النايमान ، بل وكل مغولى فر من وجه چنكيز خان ، وشكل من أولئك وهؤلاء جيشاً سرعان ما تكامل عدده وعدته وانضم اليه أيضاً حاكم قبيلة المركيت الفار من بطش چنكيز خان وبعض من أتباع كورخان نفسه . حتى صار جيشه أقوى من جيش القره ختائين .

استيلاء السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه على ما وراء النهر :

ان الحديث عن السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه يعتبر متمماً

إِرضوعنا عن الدولة القره خطائية حيث كانت الاسرة الخوارزمشاهية تابعة لكور خان تدفع له الجزية السنوية منذ استقلالهم وانفصالهم عن الدولة السلجوقية في عهد السلطان سنجر .

تولى علاء الدين محمد الخوارزمشاه العرش خلفا لأبيه علاء الدين تكش (٥٦٨ - ٥٩٦ هـ) وسار على نهجه في توسيع رقعة بلاده حتى بلغت أقصى اتساع لها في عهده . رغم أنه ورث تركة ثقيلة للغاية . إذ كان عليه تقوية دولته في الداخل ليستطيع مواجهة أعدائه في الخارج الممثلين في الدولة الغورية والخلافة العباسية والدولة القره خطائية ، واتخذ سياسة محددة إزاء تلك الدول الثلاث . فقد كان عليه السيطرة بقوة جيوشه على الأولى ، ومحاولة فرض نفوذه الأدبي على الثانية ، والتخلص من التبعية ودفع الضريبة السنوية للثالثة . والعمل على اقتطاع ما يمكن اقتطاعه من الأراضي الإسلامية الواقعة تحت سيطرة القره خطائين .

إن تبعية الخوارزميين لدولة القره خطائين تعود الى أكثر من نصف قرن على عهد علاء الدين محمد عندما تمكنوا من الاستيلاء على بلاد ما وراء النهر واستخلاصه لهم وانفرادهم بإدارته بعد انتصارهم على السلطان سنجر السلجوقي في المعركة التي نشبت بصحراء « قطوان » الواقعة على بعد ٣٦ كيلو مترا من سمرقند في الخامس من صفر عام ٥٣٦ هجرية . وتبعية حكام تلك البلاد - وهم من المسلمين - لكورخان . وقد تمكن السلطان آتسز الخوارزمشاه عدو سنجر اللدود وحليف كورخان القره خطائي أن يستقل بحكم تلك البلاد على أن يدفع مقابل ذلك مبلغ ثلاثين ألف دينار ذهبيا . وأن يقدم أيضا ما يحتاجه كورخان من خيل وجنود . واستمر هذا الاتفاق ساري المفعول حتى عصر السلطان علاء الدين محمد حفيد آتسز الخوارزمشاه .

إن الخطة التي سار عليها السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه استغرقت منه قرابة عشر سنوات ، استطاع خلالها تقوية جيشه ، وتصفية أعدائه ومناوئيه في الداخل ، وترقب الفرصة لتنفيذ سياسته تجاه القره خطائين الى أن كان عام ٦٠٤ هـ (١٢٠٧ م) الذي يعد بداية الصراع الفعلي بين الخوارزميين ودولة القره خطائين .

انتهاز السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه فرصة اتصال عثمان خان الملقب بسلطان السلاطين حاكم سمرقند ، وكان تابعا للقرمخطائين ويدفع لهم سنويا قدرا معلوما من المال والحيوانات وعرض عليه التخلص من تبعيته لكورخان القره خطائي ، وكان ذلك في رسالة تضمنت أسف عثمان خان لخضوع المسلمين لأعدائهم في الدين ، وأظهر ألمه من تلك التبعية ، وعرض التعاون للتخلص من تبعيته لكورخان ، وأن يكون حليفا للسلطان وتابعا للدولة الخوارزمية . وتعهد بدفع ما كان يقدمه لكورخان من أموال وعدايا ويضرب السكة باسم السلطان الخوارزمي ويدعو له على منابر سمرقند وبخارى ، وحتى يطمئن عثمان خان الخوارزمشاه على صدق نواياه أرسل بعض أعيان سمرقند وبخارى ليكونوا رهينة لديه .

وافق السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه على ما في رسالة عثمان خان . ووجد ذلك مطابقا لما يجيش في نفسه وما يخطط له ، وانتهزها فرصة ليتخلص بدور من التبعية لدولة القرمخطائين ، تلك التبعية التي تلزمه وألزمت آباءه الثلاثة الذين حكموا قبله بدفع الضريبة السنوية للقرمخطائين . وعندما أرسل كورخان مندوبه عام ٦٠٤ هجرية (١٢٠٧ م) في طلب الضريبة السنوية واستلامها من السلطان الخوارزمي ، قتله علاء الدين محمد الخوارزمشاه ، وجاهر بالعداء ، ثم سار بما اجتمع لديه من جيوش وعبر نهر جيحون حتى اذا ما انضم اليه حليفه عثمان خان السمرقندي ، سارت تلك الجموع الغفيرة لمنازلة جيش عدوهم المشترك . وبعد أن التحم الجيشان المتصارعان دارت الدائرة على الجيوش الاسلامية ، وهزمت هزيمة منكرة ، وكان علاء الدين محمد الخوارزمشاه نفسه بين الأسرى ، الا أنه تمكن من الهرب وعاد الى بلاده (٢٨) .

وفي العام التالي (٦٠٥ هـ = ١٢٠٨ م) استعد علاء الدين الخوارزمشاه لملاقاة عدوه ، وانتصر عليه عام ٦٠٦ هجرية (١٢٠٩ م) ، وقتل وأسر عدد غفير من القرمخطائين . وكان ملكهم ويدعى « طايئكو كورخان » (٢٩) شيخا

(٢٨) الديار بكري : تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس ، ج ٢ ، ص ٣٦٧ .

(٢٩) الذهبي : العبر في خبر من غير ، ج ٥ ، ص ١٥ .

تجاوز المائة من عمره ، ضمن الأسرى • ونتيجة لذلك الانتصار الذي احرزه الخوارزمشاه ، وضع الخوارزميون أيديهم على كل بلاد ما وراء النهر ، ووصلت حدود الدولة الخوارزمية حتى مدينة أوزكند الواقعة على نهر سيحون •

وأُسند السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه حكم ما وراء النهر إلى حليفه عثمان خان حاكم سمرقند ، وزوجه من ابنته ، وترك حامية خوارزمية ليضمن ولاء السلطان السمرقندي له • وبهذا الانتصار وصل السلطان علاء الدين محمد إلى قمة مجده ، واتخذ لنفسه بعد هذه الواقعة التي انتصر فيها لقبى « الاسكندر الثانى » و « سنجر » تيمنا بانتصارات الأول وغلبته على ملوك الأرض قاطبة وتفاؤلا بطول عمر الثانى •

ونتيجة لتصرفات جنود الحامية الخوارزمية التي كان قد تركها السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه وأساءتهم الى شعب ما وراء النهر وتعديهم عليهم حيث كانوا أشبه بلصوص وقطاع طرق ، وعدم احترامهم لحكام البلاد الأصليين حيث لم يقيموا لهم وزنا ، وتعديهم على الأهالى واستغلالهم لهم أسوأ استغلال ، نتيجة لهذا كله ثار عثمان خان على السلطان علاء الدين محمد واتصل بكورخان ليخلصه من نير الخوارزمشاه وأتباعه • وما أن تم له ما أراد حتى أمر بقتل جميع جنود الحامية الخوارزمية ، كما قتل كل خوارزمى يسكن بلاد ما وراء النهر ، وأمر القضاة بتعطيق أجساد القتلى فى محلاتهم وتقطيعها اربا وعرضها على الأهالى ، وأهان زوجته ابنة السلطان الخوارزمى ، وكاد يقتلها لولا توسلاتها • وتزوج عثمان خان من ابنة كورخان القره خطائى توطيدا لحسن الصلات بينهما وجعل من زوجته السابقة ابنة السلطان علاء الدين محمد أمة لها •

وما أن علم السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه بما حدث فى ما وراء النهر وثورة عثمان خان سلطان سمرقند عليه وخيانتته له حتى سار على رأس جيش كبير ليثأر لكرامته التي اعتدى عليها فى شخص ابنته وجنوده ورعاياه • وانتصرت الجيوش الخوارزمية على جيوش عثمان خان ، واستولت على سمرقند ، وأباحها السلطان علاء الدين محمد لجنوده ثلاثة أيام بلياليها ،

أعملوا فيها القتل والسلب والنهب ، كما قبض على عثمان خان وقتله . وبذلك دانت له سائر مدن ما وراء النهر بالطاعة ، وعين على كل مدينة حاكما خوارزميا من قبله (٣٠) .

هزيمة القره ختائيين على سيد كوجلوك خان :

وبذلك جاور الخورزمشاه أعداء القره ختائيين ، وأخذ ينظر اليهم بحذر بالغ لما لهم من قوة واستعداد عسكري كامل ، الا أن دولة القره ختائيين أصيبت بتصدع أدى بها في النهاية الى الاندثار ، ذلك أن كوجلوك خان زعيم طائفة النايमान والفار من وجه چنكيز خان التجأ الى كورخان يحميه من الخاقان المغولي وتمكن بدعائه من تأسيس قوة عسكرية من غول طائفته التي نجت من سيف چنكيز خان ، وانضمت اليه قبائل أخرى ، مما أثار الذعر في قلب كورخان ملك القره ختائيين وحدث قتال بين المضيف وضيفه ، واتصل كلاهما بالسلطان علاء الدين . بدأها كوجلوك خان الذي عرض على الخوارزمشاه التحالف منتهزا فرصة الصراع بينهما واستيلاء الخوارزمشاه على ما وراء النهر والعداوة القديمة الدفينة بين الخوارزمشاه والقره ختائيين . ثم اتصل به أيضا كورخان الذي وجد نفسه في وضع سيء ، وعرض على الخوارزمشاه تناسي العداوة القائمة والاتحاد لمواجهة كوجلوك خان . ولم يرفض السلطان علاء الدين محمد عرض كورخان وتظاهر بقبوله .

وعندما نشب القتال بين القره ختائيين وكوجلوك خان وطائفته النايमान الفارة من وجه چنكيز خان ، قاد السلطان الخوارزمي جيوشه ووصل الى مكان قريب من أرض المعركة بحيث رآه كلا الطرفين ، وكلاهما يظن أن الجيوش الخوارزمية انما جاءت لتؤازره (٣١) . واتخذت الجيوش الخوارزمية أماكنها وهي على أهبة الاستعداد في مكان قريب من أرض المعركة التي بدأت والسلطان الخوارزمي واقف بين القوتين موقف المتفرج ينتظر رجحان كفة احدهما على الأخرى لينضم الى القوة المنتصرة . وما أن دارت الدائرة على جيوش القره ختائيين ، وأسر ملكهم كورخان وزج به في السجن حيث توفي

(٣٠) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج ١٢ ، ١٢٥ .

(٣١) الذهبي : العبر في خبر من غير ، الجزء الخامس ، ص ١٦ .

بعد عامين ، حتى أعمل الخوارزمشاه والجيش الخوارزمي السيف في رقاب
البقية الباقية من الجيوش القره خطائية المنهزمة أو الجنود الفارين من أرض
المعركة (٣٢) .

إن الآثار التي نتجت عن تدمير القراخطائين كانت غاية في الأهمية
بالنسبة للعالم الاسلامي وذات أبعاد خطيرة على مستقبل الدولة الخوارزمية
والشرق الاسلامي بعامه ، ذلك أن أملاك كوجلوك خان جاورت أملاك الدولة
الخوارزمية مما جعل السلطان علاء الدين محمد في موقف لا يحسد عليه .
غان كوجلوك خان غار من وجه چنكيز خان ولا بد أن تنشب بينهما معركة
مصرية ، فوجهت أنظار چنكيز خان نحو الأقاليم الغربية من آسيا حيث
دولة كوجلوك خان عدوه القديم .

أما كوجلوك خان ، ملك طائفة النايमान المنتصر ، فإنه اعتلى عرش
القره خطائين وأخذ يقوى نفوذه على حساب القوى المتناثرة الضعيفة ،
فأخضع عددا كبيرا من القبائل ، وكان بعضها تابعا للمغول ، فوسع أملاكه
حتى شملت الأقاليم الممتدة من بلاد التبت حتى حدود الدولة الخوارزمية .

وكان لابد من صدام مسلح بين السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه
وكوجلوك خان نتيجة تصرفات الأخير تجاه المسلمين في بلاده ، ذلك أنه تصرف
مع المسلمين من رعاياه تصرفات عدوانية ، وحابى البوذيين دون سواهم من
الأديان الأخرى . وكان كوجلوك خان يدين بالمسيحية إلا أنه بعد أن
تزوج من ابنة كورخان وبتأثير نفوذها وفرط جمالها استطاعت اقناع زوجها
بالارتداد عن المسيحية واعتناق البوذية التي كانت تدين بها ، وأصابه
نوع من الهوس الديني حتى أنه أجبر المسلمين من رعاياه على الارتداد عن
دينهم ، واعتناق إحدى الديانتين ، المسيحية أو البوذية ، وإن لم يقبلوا ذلك
فعلتهم أن يتزويوا بزي الخطائين . فكان المسلمون يرتضون الحل الأخير
مكرهين . ومع ذلك حال بينهم وبين أداء شعائهم الدينية ، وانقطع الأذان
من البلاد . وكان يجبر الأئمة وكبار رجال الدين المسلمين على الخروج

الى الصحراء ليناظروهم فى شئون الاديان والعقائد ، وكان آخر الأمر يسفه آراءهم ويتحداهم الى أن انبرى له الامام علاء الدين محمد الختنى وجاد له بشجاعة وبين له زيف مذهبه ، وأقام الحجج على صحة العقيدة الاسلامية ، فلم يستطع كوجلوک خان ورجال الديانة البوذية من الرد على امام المسلمين فمما كان من كوجلوک خان الا أن أمر بصلبه على باب احدى المدارس فى مدينة ختن (٣٣) .

وكان السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه ينظر الى أفعال كوجلوک خان تجاه المسلمين هؤلاء على أنها موجهة ضده ، واعتبر السلطان الخوارزمى أنه حامى الاسلام والمسلمين وبدأ العداء يتجسد بين الطرفين . نادى السلطان علاء الدين محمد بأحقاقته فى نصف أملاك الدولة القرمخطائية المنهارة بحجة المساعدة التى قدمها لكوجلوک خان وثمانى لاعتلاء الأخير العرش وذلك فى رسالة أرسلها فى هذا المعنى ، الا أن كوجلوک خان رفض اجابة الخوارزميين الى طلبهم بل انتهاز الفرصة وهدد السلطان الخوارزمى بشن حرب على الدولة الخوارزمية . فرد عليه الخوارزمشاه بأن أعلن الحرب . واكتفت الجيوش الخوارزمية بدفع وحدات عسكرية لشن هجمات خاطفة على أراضي الدولة القرمخطائية . ولم يمنع كوجلوک خان من التوجه الى عدوه الخوارزمى الا اشتغاله بمحاربة المغول الذين بدأوا يندفعون صوب الغرب .

چنکيز خان يقضى على كوجلوک خان :

لم ينعم كوجلوک خان بانتصاره ولم يجن ثماره بعد أن جلس على عرش القره خطائين ، أو بمعنى أدق بغدده وعدم مروءته ، ذلك أن چنکيزخان لم يكن غافلا عن عدوه وابن عدوه اللدود يتركه يقوى ويشتد ساعده ليعود ويهاجمه للأخذ بثأر أبيه وثأر قبيلته . فلما فرغ من حروبه فى الصين سير جيوشه لاختصاع القبائل العاصية التى انضمت الى كوجلوک خان وساهمت فى تكوين دولته . واشترك فى الحملة قائداه الشهيران : « سوبوتاي » الذى كلف باختصاع قبائل المركيت التى انضمت الى كوجلوک خان و « چبه نويان »

(٣٣) عطا ملىک الجوينى : تاريخ جهانکشاى ، ج ١ ، ص ٤٨ .

لقتال كوجلوك خان نفسه ، واحضاره حيا أو ميتا (٣٤) .

وتمكن سوبوتاي من هزيمة قبائل المركيت وأبادة عن آخرها .
أما جبهه نويان فانه سار الى كاشغر ، واستولى عليها بسهولة وفر كوجلوك
خان . ولم يحاول مواجهة المغول في معركة حاسمة ، وصار يتنقل من مكان
لآخر والمغول يتعقبونه . وانتهت دولته وتحطمت آماله وصار جبهه نويان
سبب المنطة وحاكميا . وكان أول ما فعله الحاكم المغولي جبهه نويان أن أطلق
الحرية الدينية لجميع السكان ، فتنفس المسلمون الصعداء واستقبلوا المغول
كمحررين لبلادهم . أما كوجلوك خان فانه هام على وجهه فرارا من المغول
الذين جدوا في طلبه . وتمكن بعض الصيادين من اعتقاله وسلموه الى المغول
فقتلوه على الفور ، وبعثوا برأسه الى چنكيز خان في قره قورم ، ثم أعملوا
السيف في كل من وجدوه من طائفة النايماں حتى قضى عليهم جميعا في سنة
٦١٥ هجرية (١٢١٨ م) .

وتمت سيطرة المغول بعد مقتل كوجلوك خان على جميع القبائل التركية
التي كانت تخضع للقره ختائين ، واحتلوا مناطق أخرى كان كوجلوك خان
قد ضمها الى دولته . وكان لانتصار المغول على غريمهم كوجلوك خان نتائج
عامة وسريعة . أهمها على الإطلاق دخول جميع القبائل التركية تحت
السيطرة المغولية . وكذلك مجاورة چنكيز خان بهذه القوة النامية الرهيبة
أملاك الدولة الخوارزمية ، مما أدى الى حدوث الكارثة الكبرى ، لا للدولة
الخوارزمية وحدها ، بل للعالم الاسلامي قاطبة .

العلاقات بين چنكيز خان والخوارزمشاه :

ومما سبق أن استعرضناه ، نجد أن چنكيز خان قد أسس دولته
على أشلاء القوى القبلية الموجودة في شرق آسيا ، حتى صارت حدود دولته
تجاور أملاك الدولة الخوارزمية .

وقد جاورت القوتان ، الخوارزمية والمغولية كل منهما الأخرى ، في

(٣٤) مير خواند : روضة الصفا ، ج ٥ ، ص ٧٥ و ٧٦ .

انتظار الفرصة المواتية للوثوب على الأخرى . وحدث فعلا أن قامت بعض المناوشات الحربية إبان احتلال المغول للدولة القراخائية ، ذلك أن السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه ، وهو في طريقه إلى مدينة « جند » في شتاء عام ٦١٢ هجرية لمحاربة كوجلو كخان أن اتجه إلى صحراء القرغيز حيث سكنى طوائف القيقاق ، فقابل وهو في طريقه فرقة من الجيش المغولي بقيادة « جوجي بن چنكيز خان » . وكانت لدى جوجي وبقية القادة تعليمات من الخاقان بعدم الاشتباك مع المسلمين ، فبعثوا برسالة إلى السلطان علاء الدين محمد أخبروه فيها أنهم قد قدموا إلى تلك الدواحي بناء على تعليمات چنكيز خان ، خاقان المغول ، لدفع العصاة وتعقب الفارين .

نظر السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه أمامه فوجد المغول في عشرين ألف جندي أما هو فكان جيشه يبلغ الستين ألفا . وكان جواب الخوارزمشاه على رسالة جوجي بن چنكيز خان « بأن چنكيز خان إن كان أمرك أن لا تقا تلني فإن الله تعالى قد أمرني أن أقاتلك ، ووعد لي على قتالك الحسنی ، فلا فرق عندي بينك وبين كورخان وكشلوخان لا شتراكم في الشرك ، فأذن بحرب تنقصد فيها الرماح ، وتتحطم فيها الصفاح » (٣٥) . ثم أمر الخوارزمشاه جيشه بالهجوم على القوات المغولية ، لكنه لم يحسم القتال ، ولم يصل إلى نتيجة في المعارك التي نشبت بينهما ، بسبب ما كان يفعله المغول في المعركة من حركات غريبة ، وما لديهم من أساليب في القتال جديدة ، وشجاعة فائقة وجرأة نادرة ، مما جعل قادة الجيش الخوارزمي ينظرون إليهم في دهشة بالغة وذهول تام .

إن المعارك التي نشبت بين السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه وبين المغول بقيادة جوجي لم تكن حربا بمعنى الكلمة ، لكنها أظهرت قدرة المغول القتالية وخبرت جنود الخوارزمشاه . وفي الوقت نفسه تركت أثرا سيئا في ذهن السلطان الخوارزمي لدرجة أنه بعد ذلك كان يفر من أمام جيوش چنكيز خان في أي مكان يلتقى فيه بهم . ويقول النسوي : « وتمكن في قلب السلطان من الرعب والاعتقاد ببسالتهم ما إذا فكروا مجلسه

(٣٥) النسوي : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ، ص ٤٦ و ٤٧ .

يقول : لم ير كرجالهم اقداما وثباتا على مضض الحرب وخبرة بقوانين
الطعن والضرب . « (٣٦) » .

وكان السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه منذ فترة يتتبع
أخبار چنكيز خان وهو في بلاد الصين ، بل وفكر في تسخير جزء من الصين
أسوة كما فعل چنكيز خان . وزين له قواده هذا العمل . وبدأ هو نفسه
يغتر بقوته وقيادته وما أطلقه عليه أتباعه من ألقاب كان أهمها « ظل الله »
« والاسكندر الثانى » و « سنجبر الثانى » . وما أن وصلت اليه أنباء
استيلاء چنكيز خان على مدينة بكين عاصمة دولة الصين الشمالية ،
أراد أن يستوضح الأمر ، فأرسل وفدا من كبار دولته برئاسة شخص يدعى
« السيد الأجل بهاء الدين الرازى » الى الصين يحمل رسالة الخوارزمشاه
الى چنكيز خان .

استقبل چنكيز خان الوفد استقبالا حافلا ، واستضافه ضيافة كاملة .
وعندما استأذن الوفد في العودة ، أرسل چنكيز خان معه رسالة الى السلطان
ذكر فيها ترحيبه بالوفد ، وأخبر السلطان أنه ملك المشرق وأنه يعتبر
الخوارزمشاه ملك المغرب ، ويأمل أن يدوم بينهما الصلح والسلام وتتوطد
أواصر العلاقات بينهما .

ولا شك أن أفعال چنكيز خان لا توضح حسن نيته أو جنوحه للسلام
والصفاء مع أى زعيم دولة جاورته ، كذلك خطته لا تشير الى لروح عدوانية ،
لذلك لم يشأ أن تكون علاقته بجيرانه الخوارزميين مستندة الى حق السيف
وحده ، وبخاصة أن مشاكله في شرق آسيا ، واضطراره الى توطيد نفوذه
في الأقاليم الصينية تمنعه من أن يشغل جيوشه في البلاد الخوارزمية
أيضا ، فهداه تفكيره الى عقد معاهدة تجارية مع الدولة الخوارزمية تكون
الصلة بينه وبين الأتراك الخوارزميين ، ويستطيع من خلالها معرفة
أحوالها ويكون على صلة برجالها ، ويمليها على الخوارزميين وتتضمن
بعض نصوصها معانى التبعية لدولة المغول .

وفى عام ٦١٥ هجرية (١٢١٨م) حيث أن استقبل السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه وهو فى مدينة بخارى بعد عودته من الأقاليم العراقية وهزيمته هناك وهو يحاول اخضاع الخلافة العباسية ، ثلاثة من التجار المسلمين من اتباعه قادمين من قبل چنكيز خان ، وهم : محمود يلواج الخوارزمى ، وعلى خواجه البخارى ، ويوسف كنكا الأوتترارى . وقد حملهم چنكيز خان الكثير من الهدايا مما تنتجه آسيا الوسطى منها سبائك من الفضة وبعض الطيور الثمينة والآحجار الكريمة والمنسوجات الضوئية (٣٧) ، كما حملوا معهم رسالة وجهها چنكيز خان الى السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه ، جاء فيها : ، ليس يخفى على عظيم شأنك ، وما بلغت من سلطانك ، وقد علمت بسطة ملكك ، وانفاذ حكمك فى أكثر أقاليم الأرض . وأنا أرى مسالمتك من جملة الواجبات وأنت عبرى مثل أعز أولادى ، وغير خاف عليك أيضا أننى ملك للصين وما يليها من بلاد الترك ، وقد أذعنت لى قبائلهم ، وأنت أخبر الناس بأن بلادى ماثرات العساكر ومعادن الفضة ، وأن فيها الغنى عن طلب غيرها ، فإن رأيت تفتح للتجار فى الجبهتين سبيل التردد ، عمت المنافع وشملت الفوائد ، (٣٨) .

وكان وقع الرسالة على السلطان شديدا ، ودرس مستشاروه رسالة چنكيز خان واستقر رأيهم جميعا على أنها تحمل فى طياتها معانى التهديد والوعيد فى أكثر من موضع ، فقول چنكيز خان أن علاء الدين محمد الخوارزمشاه فى منزلة الابن معناه التبعية لچنكيز خان ولها شواهد عديدة فى المعاهدات التى كتبت بين أمراء آسيا فى ذلك الوقت الذين كانوا لا يعرفون معنى للعلاقات السياسية التى تقوم على المساواة بين الأطراف المتحالفة . كذلك تعتمد چنكيز خان أن يخبر السلطان الخوارزمى أنه فتح الصين ، وأخضع كافة الطوائف التركية ويعتبرهم رعاياه (٣٩) ، فاعتبر السلطان

(٣٧) مير خواند : روضة الصفاء ، ج ٥ ، ص ٧٦ و ٧٧ .

(٣٨) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ، ص ٨٣ و ٨٤ .

(٣٩) راجع قصة استدعاء السلطان علاء الدين محمد للسفير

=

علاء الدين محمد الخوارزمشاه - وهو تركي الأصل والأرومه - أن هذا القول يحمل معاني التهديد والوعيد لا سيما وأنه تركي .

وأخيرا استقر رأى السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه على عقد المعاهدة التجارية بينه وبين الدولة المغولية وهو كاره ابرامها . وبدأ التبادل التجارى بين الدولتين ، ونشطت جموع التجار من المسلمين والصينيين كلتا الدولتين فى التعامل التجارى .

ولم يمضِ قصير وقت على توقيع المعاهدة التجارية بين الدولتين ، المغولية والخوارزمشاهية حتى أقدم چنكيز خان على اجراء اعتبره السلطان الخوارزمى عملا عدوانيا لا يصح فعله من رئيس دولة صديقه بينهما اتفاقات ومعاهدات ورسائل متبادلة ، بل اعتبرها السلطان علاء الدين محمد استهانة بحقوقه وتعديا على دولته . ذلك أن چنكيز خان قام من جانبه باخضاع القبائل التركية وغيرها المنتشرة فى أواسط آسيا بحجة تأمين الطرق التجارية ، والضرب على أيدي المعتدين من اللصوص وقطاع الطرق ، حتى تكون التجارة فى مأمن من شرورهم وعبثهم . وزود الطرق الرئيسية بحراس من قبله ، وكلفهم بأن يرافقوا كل تاجر أجنبى يحمل تجارة الى معسكرات المغول (٤٠) ، وكان هؤلاء الحراس يسمون « قداقچية » أى المستحفظون (٤١) .

نظر السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه الى أعمال چنكيز خان داخل بلاده واعتبرها عدوانا على بلاده وغضب غضبا زائدا لكنه لم يظهر عداؤه السافر ، واستمر فى تعامله مع الدولة المغولية لعله يستطيع معالجة الأمر أو احتوائه دون نشوب حرب بين الطرفين .

المغولى محمود يلواج الخوارزمى وما دار بينهما من حديث ، انتهى باقناع الخوارزمشاه بتوقيع الاتفاقية التجارية ، فى كل من النسوى ، سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ص ٨٤ ، ومير خواند فى روضة الصفصا ص ٧٧ و ٧٨ .

(٤٠) D'Ohsson : Histoire des Mongols, Tom. I, P. 204.

(٤١) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٢٩ .

ثم حدث ما قطع الصلات الودية بين الدولتين وتبدلت العلاقات انطية بعلاقات عدائية وخصومة ، وذلك أثر حادثة اعتبرت المواجهة الحقيقية بين چنكيز خان والسلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه .
بدأ بمسير ثلاثة من التجار المسلمين من رعايا الدولة الخوارزمية ومن اعل بخارى الى أقصى الشرق حيث معسكرات المغول وبلاط چنكيز خان ، يحملون معهم البضائع من الثياب المذهبة والكرباس (٤٢) وغير ذلك .
وقد خفرهم حراس الطرق (المستحفظون) المغول وبدلا من أن يتركوهم بعد وصولهم لتسويق بضائعهم قادوهم الى بلاط چنكيز خان بعد أن وقفوا على ما معهم من السلع ، وعرفوا أن مع أحدهم ، ويدعى أحمد بن اثياب ما يليق بمقام چنكيز خان نفسه . فلما مثل بين يدي الخاقان طالب اثمانا باهظة لبضاعته خنق عليه ، وصادر بضاعته ووزعها على أفراد حاشيته . ثم قبض على التاجر . ولما مثل التاجران الآخران أمام چنكيز خان لم يجرؤا على طلب ثمن البضاعة ، وتظاهرا بأنهما جاءا لتقديمها هدية للخابان فما كان من چنكيز خان الا أن أمطر هذين التاجرين ذهبا وفضة ، وأخذته الشفقة بالتاجر الثالث رفيق الرحلة فعفا عنه (٤٣) .

وأقام هؤلاء التجار الثلاثة في أراضي الدولة المغولية فترة كانوا فيها موضع التكريم ، وعاملهم المغول معاملة ممتازة . ولما هموا بالرحيل أمر چنكيز خان بأن يرسل كل أمير في دولته ، وكل قائد من قواده العسكريين رجلا أو رجلين من أتباعه يحملون تجارة مغولية الى غرب آسيا وبيعها في الأسواق الخوارزمية ، وشراء بعض المنتجات التي يحتاج اليها المغول . وقد تكون هذا الوفد بسرعة وبلغ عدده أربعمئة وخمسين رجلا من المسلحين كما ذكر الجويني ونقل عنه دوسون ، وان كان ابن العبري قد ذكر أن عددهم بلغ مائة وخمسين شخصا فقط ومن جميع الأديان دون تفريق (٤٤) .
وزود چنكيز خان هذه الجماعة العسكرية المتخصصة في التجسس

(٤٢) الكرباس : الثوب الخشن ، وذكرها أدى شير في « الألفاظ الفارسية العربية » على أنها فارسية معربة بمعنى الثوب من القطن الأبيض ، وأن أصلها يوناني ، ص ١٣٤ .

(٤٣) D'Ohsson : Histoire des Mongols. Tom I, P. 204.

(٤٤) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٣٠ .

والاستطلاع وجمع المعلومات بمبعوث مغولى حملته رسالة الى السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه ، جاء فيها : « ان التجار وصلوا الينا ، وقد أعدناهم الى مأمّنهم سالمين غانمين ، وقد سيرنا معهم جماعة من غلماننا ليحصلوا من طرائف تلك الأطراف ، فينبغى أن يعودوا الينا آمنين ليتأكد الوفاق بين الجانبين وتتحسم مواد النفاق فى ذات البين » (٤٥) .

وسار هذا الجمع الغفير قاصدا البلاد الخوارزمية ، ووصلت القافلة بكامل هيئتها وتشكيلاتها الى مدينة أوترار الواقعة على نهر سيحون ، وكانت تعد مفتاح التجارة بين شرق آسيا وغربيها . وكان يحكم المدينة فى الوقت الذى وصلت فيه القافلة « اينال خان » ، الذى يعرف أيضا باسم « غاير خان » ، وهو ابن خال السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه وتحت امرته عشرون ألف فارس (٤٦) .

حال الجاكم اينال خان ورود هذا الجمع من التجار ومن صاحبهم من الرجال العسكريين الى الدولة الخوارزمية ، فخشى الأمر وأدرك أن هؤلاء لم يقصدوا البلاد الإسلامية للتجارة كما يزعمون ، وإنما غرضهم التجسس واستطلاع قوة الخوارزميين وتحديد استحكاماتهم . وعندما تأكد أنهم ليسوا من طبقة التجار ، وأنهم من العسكريين ، كتب الى الخوارزمشاه يخبره بأمرهم ، فأوصى بمراقبتهم ، وبعد فترة أمر بمصادرة أموالهم وإرسالها اليه وقتل جميع أفراد القافلة . وفعلنا نفذ غاير خان حاكم مدينة أوترار أوامر السلطان الخوارزمى ونفذ المهمة على خير وجه . أما البضائع المصادرة فقد باعها السلطان علاء الدين محمد لتجار بخارى وسمرقند (٤٧) ، وذكر النسوى هذه الواقعة بقوله : « ان هؤلاء القوم قد جاءوا الى أوترار فى زى التجار ، وليسوا

(٤٥) المرجع السابق ، ص ٢٣٠ .

(٤٦) ذكر البيهقى فى كتابه تاريخ الخلفاء ص ٣١١ ، والديار بكري فى كتابه تاريخ الخميس فى أحوال أنفس نفيس ج ٢ ص ٣٦٨ ، ان اينال خان حاكم مدينة أوترار هو خال السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه ، وليس ابن خاله ، كما ذكر النسوى فى كتابه سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ص ٨٥ . ونؤيد النسوى لانه مؤرخ الخوارزميين وشاهد عيان بل وشارك فى الاحداث نفسها .

(٤٧) ابن الاثير ، ج ١٢ ، ص ١١٦ .

بتجار بل أصحاب أخبار ، يكشفون منها ما ليس من وظائفهم ، إذا خلوا
بواحد من العوام يهددونه ويقولون : انكم لفي غفلة مما وراكم وسيأتيكم
ما لا قبل لكم به . وأمثال ذلك حتى أذن له السلطان في الاحتياط عليهم
الى أن يرى فيهم رأيه . فحين أرخى عنانه في الاحتياط عليهم تعدى طوره ،
وعدى شوطه ، فقبض عليهم ، وخفى بعد ذلك أثرهم وانقطع خبرهم ، وتفرّد
المذكور بتلك الأموال المعدة ، والأمتعة المنصدة ، مكيدة منه وغدرا ، وكان
عاقبة أمره خسرا ، (٤٨) .

كذلك علق على هذه الواقعة عطا ملك الجوينى مؤرخ المغول بقوله :
« ان كل قطرة من دماء هؤلاء التجار قد كفر المسلمون عنها بسيل من الدماء ،
كما كلفتهم كل شعرة من رعوسهم مائة ألف من أرواحهم » (٤٩) ، وأيضا علق
على الحادثة المستشرق الروسى بارتولد بقوله : « ولا بد أنها درت عليهم
أرباحا طائلة ولا سيما إذا عرفنا أن القافلة كانت تتكون من خمسمائة
رجل » (٥٠) . أما النسوى فانه ذكر أن أفراد تلك القافلة لم يكونوا تجارا
وانما هم جواسيس ، ومع ذلك نجده يقبح ما فعله حاكم أوترار بشأنهم (٥١) .
ونرى أن الحدث الذى أقدم عليه حاكم أوترار بتأييد من السلطان علاء الدين
محمد الخوارزمشاه كان خاطئا من بدايته ، وكان يمكن للخوارزمشاه احتواء
المشكلة واعادتهم الى دولتهم دون قتلهم أو حتى اهانتهم وأيضا دون شراء المسلمين
بضائعهم أو شرائهم بضائع من الأسواق الاسلامية مما يشعرك قادة المغول
أن الدولة الخوارزمية قد غهمت الغرض الذى من أجله حضر هؤلاء الأشخاص ،
وأنها حرصا منها على حسن الجوار والسلام أقدمت على هذا الاجراء وأعادت
الجواسيس سالمين فتكون بذلك قد أوصدت بابا في وجه چنكيز خان
ولا تعطيه الفرصة لاعلان الحرب أو معاداة الدولة الخوارزمية .

ولما وصلت أخبار تلك المذبحة البشرية الى مسامع چنكيز خان ،

(٤٨) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ، ص ٨٦ .

(٤٩) عطا ملك الجوينى : تاريخ جهانگشاي ، ج ١ ، ص ٦١ .

(٥٠) Barthold : Turkestan Down to the Mongol Invation, P. 398.

(٥١) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ، ص ٨٦ .

بسبب تواجد شخص مغولي بعيدا عن الخيام لقضاء حاجة وتمكنه من الفرار ، استشاط غضبا وهاله الأمر . ومع ذلك رغب في تسوية حسابه مع الخوارزميين بالطريق السلمى . فأرسل الى السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه رسولا من المسلمين يدعى « ابن كفرج » ، كان أبوه أميرا من أمراء السلطان علاء الدين تكش والد السلطان علاء الدين محمد ، فصار ومعه عضوان آخران من المغول يحملون رسالة من چنكيز خان كلها تهديد ووعيد ويطلب فيها تسليم حاكم أوترار تكفيرا عما حدث . وذكر النسوى نص تلك الرسالة ، وفد جاء فيها : « انك قد أعطيت خطك ويدك بالأمان للتجار . وألا تتعرض الى أحد منهم ، فغدرت ونكثت ، والغدر قبيح ومن سلطان الاسلام أقبح . فان كنت تزعم أن الذى ارتكبه ينال خان كان من غير أمر صدر منك فسلم ينال خان الى لأجازيه على ما فعل ، حقنا للدماء ، وتسكيننا للدهماء ، والا فاذن بحرب ترخص فيها غوالى الأرواح » (٥٢) .

وما أن قرأ السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه رسالة خاقان المغول ، حتى أمر بقتل ابن كفرج وزميلييه ، وكان ذلك فى سنة ٦١٥ هجرية (١٢١٨م) ، وان كان المؤرخ دوجلاس قد ذكر أن الخوارزمشاه لم يقتل الرسل الثلاثة ، بل قتل رئيسهم ابن كفرج بمفرده ، وأطلق سراح الآخرين ، بعد أن حلقت لحيتهما حتى يرويا قصة مصرع الرسول المغولى لچنكيز خان كما شاهذا (٥٣) .

وسواء أقدم السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه على قتل مبعوث چنكيز خان ابن كفرج بمفرده أو معه زميلييه المغوليين ، فإن السلطان ارتكب حماقة بقتل الرسول ومن معه ، وهى بلا شك سنة قبيحة ، وعادة غير شريفة ، لم نجد لها مثيلا وسابقة فى الاسلام الا ما ندر ، ولا بد أن الخوارزمشاه أقدم على ذلك الاجراء تحت ضغوط سياسية ونفسية صعبة ، تعود الى الناحية الداخلية ليس أكثر . وكانت مطالبة چنكيز خان للخوارزمشاه تسليم ينال خان للمغول لمعاقبته على فعلته واصراره على ذلك ، بعد أن أعلن

(٥٢) المرجع السابق ، ص ٨٧ .

(٥٣) Douglas : The Life of Jenghiz Khan, P. 15.

السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه أنه لم يحط علما بالموضوع ، وأن حاكم مدينة أوترار أقدم على ذلك دون إذن منه . فوجد الخوارزمشاه نفسه - بعد تصريحاته تلك - مطالبا بتسليم شخص له وزنه السياسى ووضعه الاجتماعى فى الدولة الخوارزمية ، خصوصا وهو ابن خال السلطان نفسه وتربطه به أواصر قرابة وصداقة وطيدة ، ومن عشيرة أمه ترکان خاتون التى غاق نفوذها فى الدولة الخوارزمية نفوذ السلطان علاء الدين محمد نفسه ، بفضل سيطرتها على شئون الدولة وأجهزتها الادارية وتعزيد الجيوش الخوارزمية لها . وكانت الظاهرة المتفشية فى عصر السلطان علاء الدين محمد انخوارزمشاه تواجد كثير من رجال الدولة من أقرباء ترکان خاتون أو من عشيرتها يتفانون فى خدمتها ويأتمرون بأمرها . فاذا فرض وقام السلطان علاء الدين محمد بتسليم اينال خان للمغول كطلبهم ، فانه لا محالة سيواجه ثورة داخلية من جانب رجال الجيش ، واخلال بالأمن قد يودى فى النهاية الى الاطاحة به . أما من ناحية المغول فسوف يعتبرون ذلك تسليما من الخوارزمشاه لهم واعترافا بضعفه أمامهم . ففضل قتل الرسل الثلاثة . وبذلك تحددت العلاقات بين المغول والخوارزميين .

وكان قتل الرسل على النحو الذى ذكرناه والطريقة التى تمت بها ، بمثابة اعلان الحرب بين الفريقين ، فأخذ كل منهما يستعد لمواجهة الآخر . وشرع الخوارزمشاه يستطلع أخبار المغول ويجهز الجيوش ويبنى الأسوار حول المدن ، وشغل نفسه ليل نهار برسم الخطط الحربية ، حتى صار لا يتكلم الا فى الموضوع ، ولا يكلمه أحد الا فيه . أما چنكيز خان فانه انصرف بدوره يستعد لمواجهة الخوارزمشاه ، فنظم دولته من الداخل وجيش جيوشه وجهاز معدات القتال ، وجند لهذا الغرض كل قادر من المغول والقتار والترك فى دولته .

ان مذبحة أوترار تعتبر بداية الصراع الذى جـر الوبال على البلاد الاسلامية ، حتى أن المؤرخ الدياربكرى عندما أراد تأريخ الواقعة والتعليق عليها قال : « فىالها من قتلة ما كان أقبحها » أجرت كل قطرة من دماء الرسل

سيلا من الدماء» (٥٤) . ونفس الشيء ذكره فامبرى فى كتابه حيث قال :
 « ان كل قطرة من دماء هؤلاء التجار قد كفر المسلمون عنها بسيل من الدماء
 كما كلفتهم كل شعرة من رؤوسهم مائة ألف من ارواحهم » (٥٥) .

(٥٤) الدياربكرى : تاريخ الخميس فى أحوال أنفس نفيس ،
 ج ١٢ ، ص ٣٦٨ .
 (٥٥) Vambery : History of Bokhara, P. 117.

الفصل الثالث

حملات چنكيز خان على الدولة الخوارزمية :

أعد چنكيز خان حملته لمحاربة السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه، وكان يعتقد أن القوات الخوارزمية أقوى وأكبر مما تصور ، وشرع يتحرك نحو بلاد ما وراء النهر في خريف عام ٦١٦ هـ (١٢١٩ م) ، وبرفقته أمراء القزلق والماليق والأويغور . ويرى المؤرخون أن القوات المغولية كانت ما بين ١٥٠ الى ٢٠٠ ألف جندي ، وأن الجيش الخوارزمي كان أكثر من ذلك بقليل ، لكن ضعف همة الخوارزمشاه والخلافات التي كانت بين قادة الجيش والدعائيات المخيفة عن العدو مكنت جحافل المغول من اكتساح الدولة الخوارزمية في فترة قصيرة جدا بالنسبة الى عظم المساحة التي استولى عليها المغول بحد السيف ، فهي لا تزيد على أربع سنوات ، اذ وصل چنكيز خان الى الحدود الشرقية للدولة الخوارزمية سنة ٦١٦ هجرية (١٢١٩ م) ، وأتم له اخضاع تلك الدولة . وفعل ما فعله بأهلها ومدنها ، ثم عاد فعبر نهر سيحون عائدا الى منغوليا سنة ٦٢٠ هجرية (١٢٢٣ م) .

استعدادات الخوارزمشاه وخطته الدفاعية :

اجتمع السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه بالأمرأ وقادة جيشه وكبار رجال دولته ليطلعهم على خطته ويعرض عليهم ما ينويه المغول وخططهم واستعداداتهم . واقترح الامام شهاب الدين الخيوقي الذي كان يعتقد فيه السلطان كثيرا بأن يرسل المنحوبين والرسل والرسائل الى كافة بلاد المملكة لجمع العساكر واستنطار الناس للدفاع عن الاسلام وجمع التبرعات والمعونات لايقاف عبور المغول نهر سيحون ، لكن أمراء الجيش لم يستحسنوا هذه الفكرة ، ورأوا أنه من الأفضل ترك المغول يعبرون نهر سيحون واصطيادهم بعد ذلك في بلاد ما وراء النهر التي لا يعزفون مسالكها ، بل وقطع المدد عنهم واهلاكهم آخر أمر . واقترح

آخرون خطة أخرى أشبه بالسابقة ، وأخيرا استقر رأى السلطان علاء الدين محمد على اصطلياد المغول فى بلاد ما وراء النهر ووزع جيشه على هذا الأساس بين مدن ما وراء النهر المختلفة فى انتظار قدوم المغول .

خطة چنكيز خان فى حربه مع الخوارزمشاه :

وفى شهر رجب سنة ٦١٦ هجرية (١٢١٩ م) بلغ چنكيز خان وجيشه نهر سيحون على مقربة من مدينة أوترار ، وتوجه إليها وتظاهر بمحاصرتها . وكانت خطة چنكيز خان محكمة للغاية ، فلم يشأ مهاجمة الخوارزمشاه من جهة واحدة ، بل رأى أن ينقض عليه من جهات أربع ، وقسم قواته لهذا الغرض الى أربع مجموعات ، عهد الى كل مجموعة بمهمة الاستيلاء على جزء معين من إقليم ما وراء النهر . وبهذه الخطة أخذ چنكيز خان أعداءه على غرة ، ولم يترك لهم فرصة كافية للاستعدادات لمواجهة وتنفيذ خططهم .

ان المجموعات القتالية المغولية الأربع التى تشكل القوات المغولية ، كانت على النحو التالى :

المجموعة الأولى : وكانت تتكون من سبع تومانات (التومان بلغه المغول عشرة آلاف) تحت قيادة ولديه چغتاي واوزتاي . وكان واجب هذه المجموعة الاستيلاء على مدينة أوترار .

المجموعة الثانية : وكانت بقيادة ولده جوجى ، وهو الابن الأكبر لچنكيز خان ووجهته مدينة جند وكانت تعد فى ذلك الوقت احدى القلاع الاسلامية الهامة الواقعة على نهر سيحون .

المجموعة الثالثة : وكانت تتكون من خمسة آلاف جندى ، وقد أمر چنكيز خان عليها ثلاثة من كبار قواده ، وكان واجبهم الاستيلاء على مدينتى « بناكت » و « خجند » .

المجموعة الرابعة : وكانت تحت قيادة چنكيز خان نفسه ومعه ابنه تولوى . وكانت هذه المجموعة تشكل القسم الأعظم من الجيش المغولى والقوة

الضاربة الرئيسية ، وكانت وجهتها مدينة بخارى الواقعة في قلب اقليم ما وراء النهر ، وكان من واجبها أيضا التصدي لقوات الخوارزمشاه والحيلولة دون وصولهم الى المدن المحاصرة على نهر سيحون من ناحية الشرق .

كان هجوم المغول على مدينة أوترار ، مفتاح اقليم ما وراء النهر والمدينة التي حدثت فيها مذبحة التجار المغول ، وبها اينال خان حاكم المدينة وقاتل التجار . وما أن علم حاكم المدينة بقدوم المغول حتى قام باصلاح حصون المدينة وقلعتها وزودها بحامية كبيرة ، ووكل أمر الدفاع عنها لأحد قواده المهرة . وحاصر كل من چغتاي وأوكتاي المدينة خمسة أشهر فقد الخوارزميون فيها رباطة جأشهم ونفذ صبرهم خصوصا وأنه لم يصلهم مدد من الخوارزمشاه ، حتى فكر القائد الخوارزمي في التسليم . لكن اينال خان لم يوافق على فكرة تسليم المدينة للمغول ، وقرر الدفاع عنها الى النهاية . وأخيرا استسلمت المدينة تحت ضربات المغول الشديدة ودخلوها عنوة في نفس السنة (٦١٦ هـ) ونهبوها وطاردوا سكانها الذين أصابهم فزع شديد ، بينما تقهقر اينال خان الى قلعة المدينة واحتمى بها نحو من شهر ، فقد في أثناءه معظم رجاله وعدته وعتاده ، ومع ذلك ظل يدافع ويقاقل الى أن وجد نفسه محاصرا من كل جانب ، فقف بنفسه الى سقف أحد المنازل والمغول ينظرون اليه . وأخيرا تبعه جنديان مغوليان ، ورغم أنه كان لا يملك شيئا يدافع به عن نفسه الا أنه كان يقوم بقذفهما بالحجارة التي تناوله اياها بعض النسوة . وأخيرا وقع في أيدي المغول فقادوه الى چنكيز خان ، الذي كان قد عسكر في ذلك الوقت أمام مدينة سمرقند ، غانتقم منه ونكل به بأن أمر بصب كمية من الفضة السائلة في عينيه وأذنيه . وبذلك نفذ چنكيز خان وعييده في قاتل تجاره ورسله . وبسقوط مدينة أوترار سقط مفتاح اقليم ما وراء النهر واهتزت الدفاعات الخوارزمية ازاء هذا الحادث الكبير .

أما المجموعة الثانية التي قادها جوجي ، فانها توجهت الى مدينة جند ، واستولت وعى في طريقها على كثير من القلاع والمدن الواقعة على نهر سيحون ، وتمكن بذلك جوجي من السيطرة على كل مجرى النهر تقريبا . وعندما اقترب من مدينة جند غادرها حاكمها ليلا تاركا لسكانها أمر الدفاع عن أنفسهم وعن مدينتهم . ونصب المغول المجانيق حول المدينة استعدادا لتحطيم

أسوارها • وهال سكان مدينة جند قوة المغول واستحاثاتهم القى نصبوها حول مدينتهم ، وانقسموا فيما بينهم الى فريقين ، فريق آثر الاستسلام والنجاة بأرواحهم من الوقوع تحت سيوف المغول ، وفريق رأى ضرورة الدفاع عن المدينة ورفضوا الخضوع والاستسلام للكفار مهما كلفهم الأمر من جهد ومال وأرواح • وتشاجر الفريقان كل يؤيد رأيه حتى داهمهم جوجى ودخلت الجيوش المغولية المدينة بعد أن استولت عليها عنوة ، وسلم من سلم من أهلها ، وقتل من قاتل المغول ثم وضع جوجى على المدن المفتوحة حكاما من قبله ، وواصل سيره بعد نجاحه الكامل فى ما كلف به وعبر نهر سيحون الى اقليم خوارزم •

أما المجموعة الثالثة فقد سارت الى مدينة « بناكت » على نهر سيحون وتمكنت من دخولها بعد أن سلمها الأهالى ، وكان المغول قد أمنوهم على أرواحهم وممتلكاتهم لكنهم غدروا بأهلها وما أن دخلوها حتى فصلوا الجند عن الأهالى المدنيين ، وأعملوا القتل فى رقاب الفريق الأول ، واختاروا من الفريق الثانى خيرة شبابه لينتفعوا بهم فى أعمالهم الحربية • ثم سارت الفرق العسكرية المغولية بعد ذلك نحو الجنوب تجاه مدينة « خجند » الواقعة على نهر سيحون ، فتركها قائدها والتجأ الى جزيرة صغيرة فى وسط النهر بعيدة عن شاطئيه ، فحاصروه حصارا شديدا • ومن الغريب حقا أن المغول استعانوا بقراة خمسين ألف من شباب الخوارزميين الذين سخروهم لمساعدة الجيوش المغولية ، فكلفهم المغول باحضار الأحجار من الجبال المجاورة والقائها فى النهر ، وأخيرا لاذ الحاكم الخوارزمى من مكمنه بالفرار من وجه المغول فى سبعين مركبا بعد أن شحن جنده وأمتعته وسار فى النهر متجها نحو الشمال ، لكن المغول كانوا يراقبونه من جانبى النهر الذى سدوه بقنطرة من السفن ، فما كان منه الا أن امتطى صهوه جواده وقاتل أعداءه قتال اليائس واستطاع الافلات بنفسه فقط من حصارهم والوصول الى مدينة خوارزم حيث كان يربط جلال الدين منكبرتى الابن الأكبر للسلطان الخوارزمى علاء الدين محمد •

چنكيز خان يستولى على بخارى ويبيد أهلها ويجعلها طعمة للنيران :

أما المجموعة المغولية الرابعة والتي كان يقودها چنكيز خان وابنه

تولوى ، فانها توجهت الى مدينة بخارى ، واستولت على المدن التى صادفتها فى طريقها وجردتها مما فيها من ذهب وفضة وأشياء ثمينة ، وسخرت من يصلح من سكانها فى حصار مدينة بخارى . وعلى الرغم من أن الجيش الخوارزمى الذى وكل اليه أمر الدفاع عن المدينة كان يبلغ عشرين ألف مقاتل ، فانه ما لبث أن أنهار وخارت عزيمته وفقد حماسه أمام استعداد المغول وقوة روحهم المعنوية .

وهاجم المغول المدينة أياما متتالية بعنف وقسوة شعر المدافعون فى أثناءها باليأس ، وقرروا الانسحاب ليلا ، وحتى يخترق المسلمون صفوف المغول قاتلوهم قتالا عنيفا ، وحققوا هدفهم فى فتح ثغرة فى جيش عدوهم ، وكانت ضربات الخوارزميين قوية حتى أن المغول أرغموا على الارتداد . وبدلا من أن يتتبع الخوارزميون أعداءهم الفارين ، نجدهم يفضلون الهرب من المعركة ، فعاد المغول وطاردوا المسلمين أثناء هروبهم واشتبكوا معهم فى قتال عنيف بالقرب من نهر سيحون ، انتصر فيه المغول وقتلوا كثيرا من جند المسلمين . أما من بقى من الأهالى فى المدينة ، فقد خارت قواهم رغم كثرتهم وقرروا الاستسلام ، وأرسلوا بدر الدين خان قاضى المدينة مندوبا عنهم رسولا الى چنكيز خان يعرض عليه تسليم المدينة ويطلب الأمان لسكانها ، فلما أجابه چنكيز خان الى طلبه فتحت أبواب المدينة لجحافل المولى .

ودخل چنكيز خان مدينة بخارى فاتحا ونكت بعهد الذى أعطاه للقاضى بدر الدين خان مندوب شعب المدينة ، وبعد أن استسلم أهلها قهرا وهبها چنكيز خان لجنوده ، فنهبوها وعاثوا فيها فسادا وارتكبوا من الفضائح والموبقات الشيء الكثير . ثم سار چنكيز خان الى قلعتها لاحتماء كثير من الجنود بها ، ودافعوا عن أنفسهم ، وتمكنوا من قتل عدد كبير من المغول ومن المسلمين الذين استخدموا فى حصار القلعة . وهال چنكيز خان كثرة ضحاياه فانتقم من سكان المدينة بأن أخرجهم منها مجردين من أموالهم وأمتعتهم ، ثم حمل المغول على المدينة ، وأعملوا فيها النهب وقتلوا من صلبهم من السكان أو من كان متوارى ومختبئا من وجههم ، ثم أشعلوا النار فى المدينة ، فاحترقت بأسرها وصارت طعمة للنيران ، بحيث لم يبق من سكان بخارى إلا من كان خارجها

قبل دخول المغول أو نزح إلى إقليم خراسان (١) . ان المذبحة التي أقدم عليها جنكيز خان لسكان مدينة بخارى ، وضحاها لنا أحد الفارسيين الذين تمكنوا من الوصول إلى خراسان ، وقال قولة مقتضبة عبّر فيها تعبيرا صادقا عما حدث « آمدند - كشتند - سوختند - بردند ورفقتند » وترجمتها « أتوا - قتلوا - أحرقوا - نهبوا ثم ذهبوا » .

استيلاء المغول على سمرقند :

وبعد أن أجهز جنكيز خان على مدينة بخارى قصد سمرقند حاضرة إقليم ما وراء النهر ، وصحب معه عبدا كبيرا من الأسرى الذين أسرهم من بخارى ليستعين بهم في حصار سمرقند . ومن المؤسف حقا أن هؤلاء الذين سيقوا لحرب اخوانهم في الدين قتل منهم جنكيز خان في الطريق عددا كبيرا ، وبخاصة أولئك الذين ظهرت عليهم علامات التعب ولم يقووا على مواصلة السير (٢) . وانضم لجيش جنكيز خان أيضا الكثير من الفرق المغولية التي انجزت أعمالها ، واستعد القاهر المغولي بمن معه من رجال وعتاد للاجهاز على مدينة سمرقند (٣) .

ان عدد أفراد حامية سمرقند كان مئارا نقاش لاختلاف الآراء ، ذلك أن المؤرخ الإيراني عطا ملك الجويني ذكر أن عددهم كان ستين ألفا من الفرس (٤) ، وذكر ابن العبري أن حامية المدينة كانت تتكون من مائة وعشرة آلاف فارس (٥) ، أما ابن الأثير فذكر أنهم كانوا خمسين ألفا (٦) . وإضاف هيوارث أنه كان بالمدينة عشرون فيلا أعدت للدفاع (٧) .

وعلى كل فإن الروح المعنوية التي ظهر بها الخوارزميون واستقبلوا

-
- (١) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٣٤ .
 - (٢) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٣٤ ، ٢٣٥ .
 - (٣) مير خواند : تروضة الصفا ، ج ٥ ، ص ٩٣ .
 - (٤) عطا ملك الجويني : تاريخ جهانكشاي ، ج ١ ، ص ٩٥ - ٩٦ .
 - (٥) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٣٥ .
 - (٦) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج ١٢ ، ص ١٦٩ .
 - (٧) Howarth : History of the Mongols, part 1, P: 79 .

بها أعدائهم - رغم عددهم - كانت تنبئ بسقوط المدينة في وقت سريع على الرغم من مناعة حصونها وقلعتها ووفرة جنودها .

وما أن ظهر المغول أمام أسوار المدينة حتى دب الذعر في نفوس المحاصرين ، وأمر چنكيز خان الأسرى من المسلمين يسوقهم جند المغول بالتقدم لاحتلال المدينة ، فتصدت لهم فرقة من الجند الخوارزمية سرعان ما حلت بها الهزيمة . كذلك رأى فريق من الجنود الخوارزمية من ذوى الأصول التركية أن يستسلموا للمغول ، ويعرض الصلح والخدمة في الجيش المغولي على أساس أنهم والمغول من أصل واحد ، فقبل چنكيز خان فكرتهم ووعد بادخالهم في خدمته . فخرجوا من المدينة مع عائلاتهم وانضموا الى المعسكر المغولي . وضيق چنكيز خان الخناق على المدينة وحاصرها محاصرة السوار للمعصم فلم يجد المحاصرون بدا من الاستسلام ، فخرج قاضى المدينة يتبعه كبار رجال الدين فيها ، وقصدوا معسكر چنكيز خان ليعرضوا عليه تسليم المدينة بشرط تأمين سكانها على حياتهم ، فوعدهم بالإجابة وتحقيق مطالبهم . وفتحت أبواب المدينة أمام المغول غدلوها دخول الظافرين . وجريا على عادة چنكيز خان في خططه العسكرية والاجهاز على أعدائه فإنه أمر السكان بالخروج من المدينة ، فخرج بعضهم وتباطأ البعض الآخر ، فأعمل القتل في رقاب الذين لم يخرجوا ، كما ذبح كثيرا من السكان الذين خرجوا من بيوتهم طبقا لأوامره ، وحجز مجموعة كبيرة أيضا أهداها لأولاده وحريمه وقواده . كما اختار عددا آخر للانتفاع بهم في الأعمال الحربية . ولما رأى المدافعون بالقلعة ما حل بالمدينة من دمار حاولوا الاستسلام . لكن چنكيز خان استولى عليها عنوة وقتل من كان فيها . وأخيرا سمح القائد المغولى لخمسين ألفا من السكان بالعودة الى مدينتهم سمرقند بعد أن دفعوا مائة ألف قطعة ذهبية- (٨) . وهكذا تم استيلاء المغول على سمرقند في أوائل عام ٦١٧ هـ (١٢٢٠ م) .

كان فتح چنكيز خان لمدينة سمرقند حاضرة إقليم ما وراء النهر نصرا للعسكرية المغولية وتتويجا لأعمال العسكرية . وقبل أن يغادر القائد

(٨) خواجه رشيد الدين فضل الله : جامع التواريخ ، ج ١ ، ص ٩٦ .

المغولي سمرقند فرض على أهلها جزية سنوية قدرها ثلاثمائة ألف دينار ،
وصحب معه الى قره قورم ثلاثين ألفا من العمال والصناع الحرفيين من
أهالى المدينة ليعملوا هناك .

ان الاجهاز على اقليم ما وراء النهر كان ضربة قاصمة للخوارزميين
فى كافة النواحي حيث كانوا يعتبرونهم خط دفاعهم الأول ، فانهارت بالتبعية
بقية خططهم الدفاعية ومعنوياتهم وتحطمت نفسياتهم مما سهل على المغول
بعد الاستيلاء على أقاليم الدولة الخوارزمية الباقية دون عناء .

تسخير اقليم خوارزم :

كان اقليم خوارزم ، أهم ولايات الدولة الخوارزمية ، وكان من
الولايات التى تسيطر عليها ترکان خاتون والدة الخوارزمشاه علاء الدين
محمد . وكانت تتابع أخبار المعارك والهزائم التى منى الجيش الخوارزمى
بنفس مضطربة ، وما أيقن الخوارزمشاه علاء الدين محمد بالهزيمة والتشتت
راسلها ينذرها بالخطر ، وطلب منها أن تتقهقر هى ومن معها الى اقليم
مازندران لتكون فى مأمن من القتال . وفى نفس الوقت أرسل لها چنكيز خان
رسولا يستميلها الى جانبه ووعداها بأن يترك لها ما بيدها من أملاك بعد
أن يتم أعماله العسكرية .

وبعد أن سيطرت الجيوش المغولية على ما وراء النهر ، قررت ترکان
خاتون مغادرة اقليم خوارزم مع وصيفاتها وأحفادها أبناء علاء الدين محمد
الخوارزمشاه ، وحملت معها كل ماتمكن حمله من كنوز قاصدة العراق العجمى .
وقبل أن تغادر الاقليم أمرت بقتل من كان محبوسا من الملوك عند
الخوارزميين ، وكانوا بضعة عشر نفرا ، ثم سارت بالخزائن وقافلتها
للنسائية ومن يحرسهم من رجال الى قلعة « ايلال » بمازندران (٩) ، لكن
المغول كانوا أسرع منها ، وما أن بلغهم خبر رحيلها حتى تتبعوها فوقت
أسيرة فى أيديهم ، فقادوها وحاشيتها وأبناء علاء الدين محمد الى معسكر

(٩) الذهبى : العبر فى خبر من غير ، ج ٥ ، ص ٥٩ وبلدان الخلافة
الشرقية ص ٤٠٩ ، والنسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ، ص ٩٤ .

چنكيز خان حيث ظلت أسيرة لديهم ، وصحبوها معهم الى العاصمة « قره قورم » حيث ماتت هناك سنة ٦٣٠ هجرية (١٢٣٣م) . أما أبناء السلطان علاء الدين محمد الصغار فقد قتلهم چنكيز خان رغم حداثة سنهم ، كما أعطى ابنه چغتای اثنتین من بنات السلطان الخوارزمی فتزوج واحدة منهما ، وأهدى الثانية لأحد رجاله المقربين . كما أعطى چنكيز خان ابنة ثالثة من بنات علاء الدين محمد لحاجبه دانشمند (١٠) .

أما اقليم خوارزم نفسه ، فانه بعد مغادرة ترکان خاتون وحاشيتها له فقد خلا من الحكام الخوارزميين وأى نوع من الادارة ، وبات ينتظر مصيره المحتوم على أيدي المغول خصوصا وأن الملكة فاتها تعين حاكم على الاقليم .

أما السلطان علاء الدين محمد فانه انسحب الى همدان في نحو عشرين ألفا من جنوده (١١) ولكنه ما أن بلغه خبر أسر والدته وأبنائه وما حل بهم حتى أصابه الهم والهزيمة ، ووصل آخر المطاف الى جزيرة « آبسكون » ، يقول الذهبي أن السلطان مرض بالاسهال وطلب الدواء فأعوزه الخبر غمات (١٢) ، وأسلم روحه في ١٣ شوال سنة ٦١٧ هجرية . فما كان من ولاده الثلاثة جلال الدين منكبرتي وأوزلاغ شاه وآق شاه الا أنهم عبروا البحر الى اقليم خوارزم لمواصلة الكفاح حيث استقبلوا بمظاهر الفرح والسرور . واستطاع جلال الدين منكبرتي الذي خلف والده أن يجمع جيشا كبيرا لمواجهة المغول ، لكنه واجه موقفا صعبا ، ذلك أن الجيش الذي تمكن من جمعه كان يتكون من القبائل التركية التي تنتمي اليها ترکان خاتون ، والتي لم ترض عن تولى جلال الدين منكبرتي الحكم بعد أبيه ، فأراد أن يخضع الجيوش النائرة بالقوة ، فتأمروا على قتله ، فلم يجد السلطان الجديد بدا من الفرار والنجاة بنفسه من الهلاك ، ففر الى خراسان ومعه ثلاثمائة فارس فقط : وما أن علم چنكيز خان بقدم أبناء السلطان الخوارزمي وتجييشهم

(١٠) ميرخواند : روضة الصفا ، ج ٥ ، ص ١٠٣ - ١٠٧ .

(١١) الذهبي : العبر ، ج ٥ ، ص ٥٩ .

(١٢) المرجع السابق ، ص ٧٠ .

للجيوش حتى سير جيشا كبيرا بقيادة ثلاثة من أبنائه هم : جوجى وجغتاي وأوكتاي للقضاء على المقاومة في خوارزم . ولكى يحاصر چنكيز خان أبناء السلطان الخوارزمى من كل جهة ، أمر جيوشه في خراسان بأن تتفب على الحدود الجنوبية للصحراء وعلى أهبة الاستعداد ، وكان ذلك في المنطقة الصحراوية التى تفصل خوارزم عن خراسان . وعسكر سبعمائة فارس مغولى بالقرب من مدينة نسا . وعندما قدم جلال الدين منكبرتي الى خراسان التقى بالمغول واشتبك معهم وقتل منهم عددا كبيرا لكنه هزم آخر الأمر لثقله رجاله وكثرة أعدائه . غفر الى نيسابور .

... أما أوزلاغ شاه وآق شاه فكانا أسوأ حظا من أخيهما جلال الدين منكبرتي . فقد غرا الى خراسان ولحق بهما المغول بالقرب من نسا . ثم وقما في الأسر . وقطع المغول رأسيهما ورشقوهما في سهمين ، ثم طافوا بهما في جميع أنحاء خوارزم امعانا في السخرية بالخوارزميين ، وانذارا للمتمردين وأوعابا للأهالى المستسلمين .

وتقدم المغول نحو مدينة « جرجانية » حاضرة خوارزم والتي كانت من أكبر المدن الإسلامية وأكثرها عمراناً في ذلك الوقت . وطلبوا من أهلها التسليم ووعدهم المغول بحسن المعاملة ، وأعلنهم جوجى أن أباه الخاقان أعطاه إقليم خوارزم ليحكمه . إلا أن الأهالى آثروا المقاومة ، وحاصر المغول المدينة ستة أشهر ، وتكبدوا خسائر جسيمة ، حتى أن القادة طلبوا من چنكيز خان المدد ليعوضهم عما خسروه في المعارك . وأخيرا استولوا على المدينة وأشعلوا النار في منازلها . وأمر القائد المغولى الأهالى بالخروج من المدينة ، وطلب من أصحاب الحرف أن يقفوا في مكان منعزل ، وأعمل المغول السيف في رقاب من بقى من السكان . وكان على كل جندي مغولى أن يقتل أربعة وعشرين رجلا خوارزميا حتى أنه لم يبق من سكان المدينة الا الفتيات الصغيرات والأطفال الذين استرقهم المغول . ولم يكتف المغول بما فعلوه في سكان المدينة ، وما أشعلوه من حرائق ، بل انهم فتحوا سدود نهر جيحون فغرقت المدينة وتهدمت أبنيتها وأصبحت خرابا .

وبهذه الطريقة البربرية . أو المغولية الچنكيزية على أصح تعبير ، سيطر

المغول على إقليم خوارزم ، والذي كان لهم معبرا الى إقليم خراسان لينال ضربتهم القتالية .

الاجهاز على خراسان :

بدأ چنكيز خان هجومه على خراسان أثناء عملية اجهازه على إقليم خوارزم . وكان اول ما فعله القائد المغولي ازاء خراسان أن أمر بارسال فصائل من جيشه في ذات الوقت الذي أرسل فيه جيشا الى إقليم خوارزم ليسد السالك على الخوارزميين حتى لا يترك لهم سبيلا للهرب . وتعرضت خراسان قبل ذلك بفترة يسير لغزو مفاجئ ، قام به كل من « جبه نويان » و « سوبوتاي » حينما كانا يطاردان السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه ، فاستوليا على بعض المدن الخراسانية الهامة مثل نيسابور . وكان جيش الاحتلال المغولي في خراسان قليل العدد ، ذلك لأن القائدين المغوليين لم يهتما كثيرا باخضاع خراسان قدر اهتمامهما بمطاردة الخوارزمشاه وأسرتة . ومع ذلك فقد وضعوا قواد من المغول على المدن المفتوحة واستسلم الأهالي اهم نتيجة ما سمعوه من فظائع اقترفها المغول في البلدان الاسلامية التي استولوا عليها بحد السيف وبخاصة تلك التي قاوم شعبها المغول . ومع ذلك حاولت بعض المدن الخراسانية الخلاص من الحكم المغولي ، مثل قتل الخوارزميين الحاكم المغولي في مدينة طوس ، واجهازهم على من بها من جند وتخليصها من نير المغول ، أو بمعنى أدق تطهيرها من دنسهم . واستمر الوضع قائما على ذلك ، جيش احتلال مغولي قليل العدد ، وأهالي يخشون كارثة تقع على أيدي المغول البرابرة ، حتى صدرت الأوامر لتولوي بن چنكيز خان بالسير الى خراسان في خريف عام ٦١٧ هجرية (١٢٢٠م) ومعه سبعين ألفا من المغول . وفي نفس الوقت عبر الخاقان بنفسه الى الضفة الغربية لنهر جيحون قاصدا احتلال مدينة بلخ ، وتم له الاستيلاء عليها عام ٦١٨ هجرية (١٢٢١م) . ولم يعفها من التخريب ، كما لم يعف أهلها من القتل .

وتقدمت طلائع جيش تولوي بقيادة « طغاجار Togachér » زوج ابنة چنكيز خان وتحت امرته عشرة آلاف جندي ، وعسكروا تجاه مدينة نسا . وتمكن المحاصرون من الانفراد باحدى كتائب المغول ، وقتلوا عددا كبيرا منهم من بينهم قائدهم ، فحاصر طغاجار المدينة مدة خمسة عشر يوما

استطاع أن يحدث ثغرة في سورها واحتلالها ليلا . وما أن طلع النهار حتى بدأ المغول يثأرون من الأهالي ، فأخرجوهم من منازلهم . وأمروا بربطهم الواحد بجوار الآخر وأن يربط ذراع كل رجل وراء ظهره ، ثم أجهز المغول على سكان المدينة جميعهم ، نساء ورجالا وأطفالا . حتى قيل أن عدد من قتل من سكان تلك المدينة بلغ أكثر من سبعين ألف .

وانتشر المغول بعد ذلك في خراسان ، وكانوا كلما حلوا ببلد جمعوا الأهالي وساقوهم أمامهم لمساعدتهم في حصار الأماكن التي يرغبون في الاستيلاء عليها . كما أرغموا حكام المقاطعات واتباعهم على الاشتراك في أعمال الحصار ، بل والقتال ، ومن أبى منهم قتلوه شر قتله .

وسار طغاجار بعد مذبحة نسا الى مدينة نيسابور في نفس السنة (٦١٧هـ) . وهاجم المدينة فقتل بسهم من سهام المسلمين ، وانسحب من تولي القيادة بعده تاركا عملية فتحها لجيش تولوى .

وكانت المهمة الأساسية لتولوى في خراسان تنحصر في الاستيلاء على حاضرتة « مرو » والتي كانت مقر سلاطين السلاجقة ، ومن بينهم ملكشاه وابنه سنجر ، ثم اتخذها الخوارزميون حاضرة لهم بعد أن استولوا على أملاك السلطان سنجر في خراسان . وعندما فر السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه من اقليم ما وراء النهر ، أمر بنقل دواوين الحكومة والمصالح العامة ووثائق الدولة من مرو الى إحدى القلاع الحصينة ، ووضع حامية للدفاع عن المدينة وحماية الأهالي الذين يبقون فيها .

الاستيلاء على مرو حاضرة الدولة الخوارزمية :

ظهر تولوى أمام مدينة مرو على رأس جيش جرار يفكون من سبعين ألف رجل بينهم عدد غفير من أسرى البلاد الإسلامية التي خضعت للمغول . وكان أول عمل أقدم عليه المغول إبادة قرابة عشرة آلاف رجل من الخيالة التركمان كانوا يعسكرون على مقربة من المدينة بعد أن استدرجهم في كمين فقتلوا منهم عددا كبيرا ، وفر الباقون ، وغنم المغول منهم عددا كبيرا من قطعان الماشية التي كان التركمان قد نهبوها من مرو .

تلى ذلك احكام حصار المدينة وسد منافذها بقوات مكثفة حتى لا يهرب أحد من أهلها . ووجد حاكم مرو أن لا طاقة له بمحاربة المغول ، فأرسل كبار رجال الدين الى تولوى يعرضون التسليم . بشرط تأمين من في داخل المدينة . فوعدهم تولوى بتحقيق طلبهم . وخرج حاكم المدينة وتوجه الى معسكر المغول يحمل الهدايا الى تولوى ، الذى استقبله ووعدته بتثبيتته فى حكم المدينة . وطلب منه رؤية كبار رجال مدينته وأعيانها ليطلع عليهم الخلع ويمنحهم الهبات . فجد الحاكم الخوارزمى فى استدعائهم . ولما حضروا الى معسكر المغول قيدهم تولوى ومعهم الحاكم المستسلم وطلب منهم اعداد قائمة باسماء الأغنياء وكبار الملاك الذين جى بهم الى معسكر المغول مع نحو اربعمائة من أصحاب الحرف والمهن . وفعلوا ما أراد . ثم دخلت الجيوش المغولية المدينة وطاردت السكان الذين أمرهم تولوى بالخروج ، فوقعوا جميعا فى فخ المغول بين قتيل وجريح وشريد(١٣) .

وما أن نجح تولوى فى تحقيق هدفه والاستيلاء على المدينة وتجريد سكانها من أى مقاومة وزع سكان مدينة مرو من الرجال والنساء والأطفال على جند المغول وأمرهم بقتلهم جميعا ، ولم يبق من السكان سوى الاربعمائة رجل حرى الذين أبقاهم المغول للانتفاع بهم فى الأعمال الحربية . وأزال المغول أسوار المدينة ومبانيها ودمروا قلعتها ، ونبشوا قبر السلطان سنجر السلجوقى . وكار بناء فخما ظنا منهم أنهم سيجدون فيه ذهباً وفضة . وملك سكانها جميعهم الذين قدرهم ابن الأثير بسبعين ألفا(١٤) . أما الجوينى فذكر أن جملة قتلى مرو بلغ مليوناً وثلاثمائة ألف ، عدا الجثث التى كانت فى أماكن خفية لم يستدل عليها(١٥) .

ثم أسرع تولوى بعد ذلك الى مدينة نيسابور ، فأتى عليها بعد أن وقف أهلها جميعا يدا واحدة ضد المغول ، لكن قوة المغول وكثرة عددهم أفقدتهم رباطة جأشهم . وأرسل الأهالى نوابا عنهم من الأئمة وكبار رجال المدينة . وعلى رأسهم قاضى قضاة خراسان الى معسكر المغول . وعرضوا

(١٣) مير خواند : روضة الصفا ، ج ٥ ، ص ١١٠ - ١١٧ .

(١٤) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج ١٢ ، ص ١٨١ .

(١٥) عطا ملك الجوينى : تاريخ جهانگشا ، ج ١ ، ص ١٤٠ .

على تولوى تسليم مدينتهم ، وتعهدوا بأن يؤدوا للمغول ضريبة سنوية ،
لكن تولوى رفض التسليم وقرر الانتقام لمقتل زوج أخته « طغاجار » .

ولم يمضِ قصير وقت حتى تمكن المغول من اختراق حصون المدينة ،
وأحداث ثغرات عديدة في حوائطها مكنتهم من دخولها من جميع جهاتها بعد أن
أن أجهزوا على الجنود المدافعين عنها ، وتمكنوا من احتلالها والقضاء على البقية
الباقية من الرجال المحاربين فيها والأجهزة على من اختبأ في المنازل ومصارف
البياه والشوارع . ودخلت ابنة چنكيز خان أرملة طغاجار يصحبها عشرة
آلاف رجل ، فقتلوا كل من صادفهم من رجال ونساء وأطفال ، ولم يتركوا
حتى القطط والكلاب . وحتى يطمئن تولوى إلى القضاء على جميع سكان
المدينة ترك بعد رحيله عددا من الجنود لقتل السكان الذين قد يظهرون بعد
رحيل الجيش المغولي . وفعلا ظهر عددا منهم كانوا مختبئين بين القتلى
أجيز عليهم المغول . وقد قدر عدد من قتل سكان مدينة نيسابور بنحو
مليون ونصف المليون (١٦) .

وانتقل تولوى بعد أن أجهز على نيسابور إلى مدينة هرات - التي
كانت تعد آخر مدن خراسان الهامة - وعسكر في سهل خصيب يشرف
عليها . وأرسل رسولا من قبله يطلب إلى أهلها التسليم والا فسيلقون
جزاء كبيرا ، غير أن القتل كان نصب ذلك الرسول ، واستعد حاكمها للدفاع
عنها . فأمر تولوى بمهاجمة المدينة من جميع جهاتها في آن واحد . وبعد
ثمانية أيام عرض حاكم المدينة التسليم بشرط تأمين الأهالي على أرواحهم ،
فوافق تولوى على ذلك . وما أن دخل المدينة حتى أمر بقتل عدد كبير من
جند الخوارزميين من أتباع السلطان جلال الدين منكبرتي الذي خلف
أبيه علاء الدين محمد على حكم الدولة الخوارزمية ومسئولية الدفاع عن الاسلام
والمسلمين . كما قتل تولوى أيضا اثني عشر ألفا من سكان المدينة المدنيين .
ولأول مرة نرى تولوى يولى حاكما مسلما على مدينة خوارزمية ، وإن كان ذلك
الحاكم هو الآخر كان تحت رقابة حاكم مغولي (١٧) .

(١٦) مير خواند : روضة الصفا ، ج ٥ ص ١١٧ - ١١٩ .

(١٧) مير خواند : روضة الصفا ، ج ٥ ، ص ١١٩ - ١٢٥ .

وبعد أن أجهز تولوي على مدينة هرات ، تلقى أمرا من أبيه چنكيزخان ليلاحق به عند مدينة الطالقان في أعالي نهر جيحون . وكان الخاقان قد عزم على الرحيل إلى منغوليا ، وبذلك خضع إقليم خراسان برمته للمغول بعد أن دمروه تماما .

خضوع الأقاليم الغربية من الدولة الخوارزمية للمغول :

انتهت المرحلة الأولى من تحطيم الدولة الخوارزمية ، والتي استولى المغول فيها على أقاليم ما وراء النهر وخوارزم وخراسان . وتلى ذلك مرحلة أخرى تتمثل في مطاردة المغول للسلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه . وقد تولي هذه المهمة القائدان الشهيران « جبه نويان » و « سوبوتاي » ، وكانت تعليمات الخاقان لهما بالسير في أثر السلطان الخوارزمي فاذا وجداه على رأس جيش كبير يتجذبا انتظارا لوصول إحد من الجيوش المغولية ، أما إذا ركن السلطان إلى الفرار ، فيجب عليهما أن يقتبعاه بلا تردد .

وقد ظهر اليأس على السلطان علاء الدين محمد بعد أن رأى اكتساح المغول لبلاده ، وشلت حركته وانهارت مقاومته ، كذلك ما لبث أن تسرب اليأس إلى رجال الخوارزمشاه . أما السلطان فأثر الابتعاد عن مسرح السياسة والحرب معا ، وبدأ يستعد للهرب عازما الرحيل إلى الأقاليم الغربية من بلاده على جدد الأمن فيها . أما رجاله وقادة جيشه فإن كل واحد منهم بدأ يفكر في نفسه ويسعى للحفاظ على حياته بعد انهيار الدولة واكتساح المغول للعالم الإسلامي .

وفي نفس الوقت الذي قرر فيه علاء الدين محمد الخوارزمشاه الهروب عقد مجلسا طارئا ضم وزراءه وكبار قادته للتشاور فيما يفعله الخوارزميون لمواجهة الموقف المتدهور . وانقسم المجتمعون في الرأي ، فريق رأى أنه لم يعد هناك من الوقت ما يتسع لحماية بلاد ما وراء النهر وأنه يجب التركيز لحماية الأقاليم الواقعة غربي نهر جيحون . وفريق آخر رأى وجوب انسحاب السلطان علاء الدين محمد إلى غزنة ، وهناك يجمع جيوشه المتفرقة ويواجه بها المغول بعد تنظيمها واستعدادها للقتال ، وإن حلت الهزيمة

بالجيشي الخوارزمي يمكن الانسحاب الى الهند ومعاودة الكرة مرة بعد اخرى .

وفضل السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه الرأي الثاني ، وسار في طريقه الى غزنة ، لكن حدث وهو في مدينة بلخ ما دفعه الى تغيير خطته والاتجاه نحو العراق العجمي اثر ايعاز من وزيره « نظام الملك » الذي زين له الاتجاه الى الغرب لعله يجد هناك المال والرجال لمساعدته في محنته لصد المغول . وما أن وصل السلطان علاء الدين محمد الى مدينة نيسابور ، علم أن المغول قد عبروا نهر جيحون ، وأنهم يجدون في البحث عنه ، لذلك بادر الى مغادرة المدينة ويمم شطر العراق العجمي .

وجد القائدان المغوليان جبه نويان وسوبوتاي في السير للحاق بالسلطان الخوارزمي كتعليمات الخاقان ، وكل منهما يقود فرقة من ألف جندي مغولي ليس أكثر ، واستوليا على مدينة الري . وقبل استيلائهم على الري عثروا مصادفة وهم في الطريق على والده السلطان « تركان خاتون » التي انسحبت من خوارزم وأرادت أن تعتصم بقلعة في العراق العجمي ، فأسروها ووضعوا أيديهم على ما معها من نفائس وكنوز وجواهر ، وبعثوا بهذا كله مع أسيرتهم الى چنكيز خان . وكان لسقوط مدينة الري في أيدي المغول أثر كبير على نفسية السلطان علاء الدين محمد الذي كان حتى ذلك الوقت يفكر في المقاومة ، أما بعد ذلك فانه أخذ يفكر في الهرب والخلاص . كذلك كان حال الخوارزميين فانهم أيقنوا أنه لا فائدة من الدفاع ، وأخذ كل منهم يفكر في الطريق الذي ينجيه من الهلاك ، وهرب الجنود ، وتركوا السلطان بمفرده يواجه الموقف الصعب . كما استولى الفرع على الأهالي ، وبدأ كل شخص ينظر الى نفسه وتدبر حاله والتنصل من المسؤولية حتى أصبحت البلاد دون قادة أو حكام ، كل يواجه مصيره بنفسه . وعندما دخل المغول مدينة الري وجدوا سكانها مختلفين مع بعضهم ، وأصحاب المذاهب الاسلامية في قمة خلافاتهم في تفسير بعض نصوص القرآن الكريم مما سهل على المغول الاستيلاء عليها بسهولة ويسر ، وقتلوا كل من كان فيها .

موت السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه :

فصل السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه التوجه الى اقليم مازندران ، وفعلًا تمكن من الوصول الى ذلك الاقليم الذي لم يكن قد أصيب بشيء على أيدي المغول ، واستقبله أمراء تلك الجهات بكل ترحاب ونزل بينهم بما يليق بمقامه . وكان يرافقه ثلاثة من أبنائه هم : جلال الدين منكبرتي وأوزلاغ شاه وآق شاه . ولما سأل عن قاعة أمينة يمكنه الاحتماؤها بها ، أشاروا عليه بالالتجاء الى إحدى الجزر في بحر قزوين لا تبعد كثيرا عن ساحل مازندران . ورأى السلطان علاء الدين محمد نفسه يعمل بتلك المشورة ، وانتظر عدة أيام في إحدى القرى الواقعة على ساحل البحر ، لكن المغول لم يلبثوا أن اقتفوا أثره واستدلوا على مكانه وهجموا على القرية ، فركب السلطان علاء الدين محمد إحدى السفن وتوارى عن الساحل . وقد أراد بعض الخيالة المغول اللحاق به فرموا أنفسهم في الماء فابتلعتهم الأمواج .

وأخيرا وصل السلطان الخوارزمي وأبنائه الثلاثة الذين بقوا له الى جزيرة « أبسكون » (١٨) والتجأ اليها ، وأقام خيمة نصبها له أحد الأهالي . وقد ساعد السلطان أهالي المنطقة الذين كانوا يقيمون على الشاطئ ، فقد كانوا يأتونه بما يلزمه من مأكول وما يحتاجه من ضروريات الحياة . وفي نظير ذلك كان السلطان يوصي باقطاعهم الاقطاعات . ولما استعاد جلال الدين منكبرتي أملاك أبيه بعد بضعة سنين أقر هذه الاقطاعات لأصحابها .

وجد السلطان الخوارزمي وحده في جزيرة نائية بعيدة عن العمران بل والحياة ، وحل عليه التعب والارهاق ، فمرض مما وقع له ولدولته ولشعبه . وما أن علم أن أمه تركان خاتون قد وقعت في أسر المغول ، وأن بعض نسائه وأطفاله الذين كان قد أودعهم إحدى القلاع قد وقعوا أيضا في أسر المغول وقتلواهم عن آخرهم ، اشتد عليه المرض ، وما أن شعر بدنو أجله حتى استدعى أبنائه الثلاثة الذين كانوا يرافقونه في رحلته ووكّل

(١٨) يذكر حبيب الله شاملوئي في كتابه « تاريخ إيران » أن جزيرة « أبسكون » كانت تقع عند مصب نهر جرجان ، ولا وجود لها الآن ، ص ٤٤٥ .

أمور دولته الى ارتد ابنائه جلال الدين منكبرتي . وأعلن أنه الوحيد الذي يستطيع حماية الدولة الخوارزمية وخلع ابنه أوزلاغ شاه الذي كان قد نصبه قبل ذلك وليا لعهد . ومما قال لابنائه ، عبثه العبارة المؤثرة التي ذكرها النسوي (١٩) .

« ان عرى السلطنة قد انفصمت ، والدولة قد وعنت قواعدها وتهدمت ، وهذا العدو قد تأكدت أسبابه ، وتشبثت بالملك أظفاره . وتعلقت أنيابه وليس يأخذ بثأر منه الا ولدى منكبرتي ، وها أنا موليه العهد ، فعليكما بطاعته » .

وبعد ان قضى السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه في جزيرة « أبسكون » شهرا ، توفي في ١٣ شوال سنة ٦١٧ هجرية (١٢٢١م) . ومما يؤسف له ان المحيطين بالسلطان عجزوا عن ايجاد كفن يكفونه به ، فقام كل من « سيد شمس الدين محمود بن يلاغ جاوش » و « مهتر مهتران مقرب الدين » رئيس ومقدم الغراشين بغسله ، وخلع سيد شمس الدين محمود قفيصه وكفنه به . وأمر السلطان الجديد جلال الدين منكبرتي بدفن والده في نفس الجزيرة .

أما القائدان المغوليان جيه نويان وسوبوتاي فانهما استوليا على ما مرا به من الأقاليم الغربية من الدولة الخوارزمية أثناء مطاردتهما للسلطان علاء الدين محمد . كما تمكنا من الاستيلاء على كل ما كان يحمله السلطان من كنوز وإحجار كريمة وأنية ذهبية وفضية ، وبعثا بها الى الخاقان .

وسارت جيوش المغول الى همدان التي فتحت صلحا . ثم اتجهت صوب قزوین واستولت عليها أيضا بعد أن قتل من أهلها ما يزيد على أربعين ألفا . وعلى هذا النحو وضع المغول أيديهم على العراق العجمي . واتجه المغول بعد ذلك الى أذربيجان في نفس السنة (٦١٧هـ) حيث كان يحكمها الأتابك أوزبك بن البهلوان ، ففضل مسالمة أعدائه المغول الذين صالحوه بعد ن غمرهم بهداياه من مال وثياب ودواب ، ودخل المغول

(١٩) النسوي : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ، ص ١٢٠ .

مدينة تبريز عاصمة آذربيجان وحاضرة أزوبك بن البهلوان الذي قبل أن يكون تابعا لهم .

المغول في غزنة :

بدأ السلطان جلال الدين منكبرتي عهده بأن قرر اتخاذ غزنة قاعدة للنضال الاسلامي ضد المغول . وبدأ يكاذب الأمراء والحكام ويحثهم على مساعدته بالرجال والعتاد ، لكن المغول كانوا يتعقبونه من مكان لآخر لمعرفتهم أنه أقوى الأمراء شوكة وأجراهم على الحرب والنزال . وأخيرا وصل جلال الدين منكبرتي الى غزنة حيث رحب به الأهالي ، وانضم تحت لوائه جموع غفيرة من مختلف الأجناس (٢٠) وتمكن جلال الدين منكبرتي بحسن سياسته وقوة شخصيته أن يؤلف بين جنود غزنة المتنافرين . ومن أخذتهم الحمية والغيرة على الاسلام من المتطوعين . وأتته الأموال من وجهاء المسلمين وفقرائهم على حد سواء الذين أدركوا أن البلاد في خطر والاسلام في محنة . وهكذا استطاع جلال الدين منكبرتي تكوين جيش اسلامي قوى بلغ عدده قرابة سبعين ألف فارس .

السلطان جلال الدين منكبرتي يهزم المغول :

فاجأ السلطان جلال الدين منكبرتي في ربيع عام ٦١٨ هجرية (١٢٢١م) طلائع جيش المغول الذي كالتيفتفى أثره ، واندصر عليه انتصارا ساحقا في معركة خاطفة قتل فيها من المغول قرابة ألف رجل منهم ، ثم ظهر جيش المغول الأساسي . وكان قوامه ثلاثين ألف رجل . وكان الصراع شديدا والغلبة تتأرجح بين القوتين المتصارعتين . وأخيرا انتصر جلال الدين منكبرتي على جيوش المغول بعد أن سالت الدماء وغطت الأودية القريبة من ميدان القتال . وولت خيالة المغول الأدبار ، واصطادهم جنود السلطان وأجهزوا عليهم . وكان انتقام الخوارزميين من المغول شديدا ، حيث كانوا يدقون الأوتاد في أذان الأسرى . وجلال الدين ينظر اليهم ويعلوا وجهه البشاشة بما ظفر (٢١) .

(٢٠) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ، ص ١٣٢ - ١٣٤ .
(٢١) المرجع السابق ، ص ١٣٤ .

ووصلت أخبار السلطان جلال الدين منكبرتي الى بعض المدن الإسلامية التي خضعت للمغول ، فظننت أن انتصار السلطان ضربة قاضية لجيوش چنكيز خان . وأن وقت الخلاص قد حان ، فتارت في وجه المغول . وكانت من بين تلك المدن هرات التي اشتعلت فيها نيران الثورة عندما سمع سكانها بانتصار جلال الدين منكبرتي . وتقدم چنكيز خان بنفسه الى المدينة واستطاع الاستيلاء عليها ، وقتل من أهلها مليوناً وستمائة ألف رجل ، كما أجهز المغول على كل شيء فيها ولم يسلم من القتل الا أصحاب المهن والحرف الذين أبقاهم المغول للاستفادة من خبرتهم ونقلهم الى منغوليا كعاداتهم .

ولم ينعم السلطان جلال الدين منكبرتي بانتصاره على المغول ، ذلك أنه حدث خلاف بين قادة جيشه ، انتهى بشجار بين الأطراف المتنازعة ، حتى أن بعض القادة اعتدى على آخرين باللكم والضرب بالمقارع (٢٢) . فانسحب أحد القادة المضروبين الى مدينة بشار ، وانضم اليه عدد كبير من الجنود الغورية وتركوا مدينة غزنة بعد أن خابت جميع جهود السلطان لاعادتهم والصلح بين الأطراف المتنازعة . ولما وجد السلطان جلال الدين منكبرتي أن جيوشه قد أصبحت مقصورة على الأتراك الخوارزميين دون الجنود الغورية الذين كانوا يكونون عصب الجيش الإسلامي أدرك أنه لم يعد قادراً على مواجهة المغول ، واضطر الى الانسحاب الى سهل يقع غربي نهر السند حين علم بقدوم المغول بقيادة چنكيز خان الى إقليم غزنة للانتقام من الهزيمة التي حلت بجيشه في سهلها .

وجمع جلال الدين السفن ليعبر بها نهر السند هو وجنوده على يجد مأمناً في بلاد الهند . وما أن علم البحارة الهنود من أهل السند بمقدم چنكيز خان حتى لاذوا بالفرار بسفنهم تاركين السلطان الخوارزمي وجنوده على الشاطئ ولم يستطع جلال الدين منكبرتي أن يحصل الا على سفينة واحدة أمر أن تنقل فيها أمه وزوجه وأولاده الأطفال . لكن المركب ما لبث أن تحطمت وتعذر عبور أسرة الخوارزمشاه . وفي هذه الأثناء وصل

(٢٢) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ، ص ١٥٥ .

چنگيز خان الى غزنة وجد في السير للحاق بجلال الدين منكبرتي ليحول دون عبوره النهر .

وهكذا أجبر چنگيز خان عدوه السلطان الخوارزمي علي خوض معركة غير متكافئة . بدأها بأسر مؤخرة جيشه وأجهز عليها ، ثم حاول أن يطوق الباقي بقوات تنتشر على شكل نصف دائرة لتسد جميع المنافذ على الجنود الخوارزمية وتحصرها بين نهر السند من جهة والجيش المغولي من جهة أخرى . ورأى جلال الدين منكبرتي أن يختار أمرين ، اما أن يبذل أقصى ما يستطيعه من جهد فينتصر على المغول أو يموت اما بسيف المغول ورماحهم ، واما غرقا في نهر السند . وثبت السلطان جلال الدين منكبرتي أول الأمر لهجوم المغول حتى أنه حمل بنفسه على قلب الجيش المغولي حيث يقيم چنگيز خان فمزقه وأصابه بتلفيات شديدة ، وكان الجيش المغولي ينهزم وتدور الدائرة عليه لولا أنه تمكن من كسر ميمنة جيش السلطان ، فانهزمت وتبددت . كذلك حلت الهزيمة بالميسرة ، ووقف جلال الدين منكبرتي في القلب ومعه سبعمائة رجل يقاتلون بشجاعة نادرة ويحاولون احداث ثغرة في صفوف أعدائهم حتى يهربوا منها .

السلطان جلال الدين منكبرتي يفر الى الهند كلاجي وطريد :

ولما لم يجد السلطان جلال الدين منكبرتي سبيلا الى اختراق صفوف المغول ، ولى وجهه شطر النهر وقذف بنفسه وهو ممتط جواده من ارتفاع عشرين ذراعا ، واستطاع بهذه الوسيلة أن يعبر النهر الى الجانب الشرقي . أما جيشه الذي ثبت معه فقتل عدد كبير من جنوده في المعارك التي نشبت وغرق الباقون الذين حاولوا العبور الى الضفة الشرقية . وأسر المغول أحد أبناء السلطان وكان طفلا دون الثامنة فقتله چنگيز خان بيده . يقول ابن الوردي ويؤيده في ذلك النسوي مؤرخ الخوارزميين ما يلي : « رأى (السلطان جلال الدين منكبرتي) والدته وأم ابنه وحريمه يصحن بالله عليك اقتلنا وخلصنا من الأسر ، فأمر بهن فغرقن ، وهذه من عجائب البلايا ونواذر الرزايا » (٢٣) .

(٢٣) ابن الوردي : تنقمة المختصر في أخبار البشر ، ص ١٥٥ .
وأیضا النسوي : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ، ص ١٥٩ .

وهم كثير من الجنود المغولية بعبور النهر واللاحق بجلال الدين ، غير ان چنكيز خان أسرع ومنع جنوده من اللاحق بالسلطان . ولما علم چنكيز خان أن عدوه الخوارزمي أمر بالقاء كل ما كان يمتلكه من ذهب وفضة في نهر السند حتى لا يقع غنيمة سهلة في يد المغول ، أمر بعض رجاله المتخصصين في الغوص بالبحث عن الكنوز الخوارزمية ، فغاصوا في النهر وأمكنهم انتشال بعض هذه الكنوز (٢٤) .

وهام جلال الدين منكبرتي على وجهه في بلاد السند يبحث عن مأوى ، ومعه قرابة أربعة آلاف من الجنود الخوارزمية الذين استطاعوا النجاة بأنفسهم والعبور الى الضفة الشرقية من نهر السند واللاحق بسلطانهم . ومن المؤسف حقا أن جنود السلطان جلال الدين منكبرتي وكلهم من الترك ثم يزرعوا حرمة اقامتهم في بلاد الهند ، التي استضافهم شعبها وقدم لهم ما يحتاجونه من مؤن وعقاد وملابس ، وتصرفوا وكأنهم في ديارهم فأغاروا على بعض أقاليم الهند العامرة وخرّبوها وجمعوا ما بها من ذهب وفضة واغتفروا على النساء واستولوا على عدد وفير منهن ، وفرضوا الاتاوات على الحكام والأهالي ونهبوا ما وجدوه أمامهم من ملابس ومأكّل وسلاح وغير ذلك من النفائس ، وباختصار عاثوا في البلاد فسادا مما ترك أثرا سيئا لدى كافة الهنود من المسلمين وغيرهم عن هؤلاء الخوارزميين .

وفكر جلال الدين منكبرتي في الالتجاء الى مدينة دهلي عندما علم أن فصائل مغولية تجد في البحث عنه . وما أن علم سلطان دهلي باقتراب السلطان الخوارزمي ورجاله من المدينة عمل على ابعاده بشتى الطرق ، فأرسل اليه الهدايا وعرض عليه صداقته ، كما عرض عليه ابنته ليتزوج منها ، ثم أفهمه أن جو بلاده لا يلائمه . فامتل السلطان جلال الدين منكبرتي انصيحة سلطان دهلي وابتعد عن المدينة .

ان الفقرة التي قضاها السلطان جلال الدين منكبرتي في الهند كانت تاسية للغاية على سلطان مثله ، وكثيرا ما كان يظهر بمظهر الكسير الذليل

من هول ما أصاب دولته بعامه . وما أصاب أسرته بخاصة ، بعد موقعة السند التي فقد فيها كل شيء ، أمه وأم ولده وابنه وحريمه وجيشه وأمواله وعرشه آخر الأمر وصار طريدا مطاردا لا يعرف ماذا تخبئه الأيام .

نهاية جنكيز خان :

عزم جنكيز خان على العودة الى منغوليا في ربيع عام ٦٢٠ هجرية (١٢٢٣م) ، بعد أن دمر أملاك الخوارزميين وحطم كل محاولة فيها ، وجعل البلاد الإسلامية أشبه ما تكون بصحراء جرداء لا زرع فيها ولا ماء ، وأباد سكانها وخرب مدنها وأزال عددا منها . كذلك نجح الطاغية المغولي في تشريد السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه الذي ظل طريدا شريدا تتلاقفه مدينة وتلفظه أخرى . الى أن مات منكسر الجناح ذليلا في جزيرة « آبسكون » ببحر قزوين . كما طارد ابنه وخليفته جلال الدين منكبرتي حتى ألجأه الى بلاد الهند لا يلوى على شيء يتقبل الحسنات والهيئات والمواساة . وأصدر جنكيز خان قرارا - قبل أن يبدأ رحلة العودة - بقتل جميع الأسرى الكثيري العدد الذين تجمعوا في خيام المغول ، حيث كانت كل خيمة تضم حوالى عشرين أو ثلاثين أسيرا من الحرفيين والفنانين وكبار الشخصيات والقادة الخوارزميين وغيرهم ، فقتلوا جميعا في ليلة واحدة . ان هذه المذبحة لم يعرف لها التاريخ مثيلا حيث سالت دماء هؤلاء الأسرى على شكل نهر سريع الجريان . وأما هؤلاء كانوا من الشباب المسلم الذين أجبرهم المغول على القتال في صفوفهم ، أو أصحاب الحرف والفنون أو كبار القوم وعليتهم .

وسارت الجيوش المغولية في طريق التبت أولا ، لكن الخاقان أدرك مدى الصعاب التي ستواجهه أثناء عبور الأقاليم الجبلية الوعرة المغطاة بالثلوج ، فعاد الى بشاور وآثر أن يسلك الطريق الذي سلكه عند قدومه الى ايران . ولما وصل الى مدينة بلخ أمر بقتل جميع السكان الذين عادوا وسكنوا المدينة ، ثم عبر نهر جيحون فوصل الى مدينة بخارى ومنها الى سمرقند حاضرة بلاد ما وراء النهر ، فلما وصل اليها خرج كبار رجال الدين فيها لاستقباله ، ولما مثلوا بين يديه طلب الدعاء له في الخطبة ، ثم أمر باعفائهم من الضريبة التي كانوا يدفعونها . وفي سمرقند طلب

چنكيز خان أبناءه جميعا ليكونوا الى جانبه حينما يرحل الى منغوليا .

وقضى چنكيز خان شتاء عام ٦٢٠ هجرية (١٢٢٣م) في سمرقند وضواحيها ، ولما حل الربيع بدأ في السير ، والتقى بولديه چغتاي وأوكتاي ، والأخير كان في قافلته أسيرة ملكية هي ترکان خاتون أم السلطان علاء الدين محمد وجدة السلطان جلال الدين منكبرتي . وقضى چنكيز خان السنة التالية (٦٢١هـ) في الطريق الى موطنه الأصلي . وفي هذه الفترة تقابل مع حفيديه قوبيلاي وهولاكو ، وكان الأول في الحادية عشرة من عمره ، والثاني كان في التاسعة . وأخيرا وصل چنكيز خان الى قره قورم سنة ٦٢٢ هجرية (١٢٢٥م) ، وشرع في محاربة أعدائه القدامى من القبائل المغولية والتركية وخاصة قبائل التانجوت ، كما أعلن الحرب على امبراطورية سونج الصينية ، واشترك چنكيز خان في هذه الحرب بنفسه ، لكنه مات في سنة ٦٢٤ هجرية (١٢٢٧م) . ولم تكن الحرب قد انتهت بعد ، أثر مرض لزمه نتيجة لرداءة الجو على شاطئ نهر السند أثنا، مطاردته للسلطان الخوارزمي جلال الدين منكبرتي . وله من العمر اثنان وسبعون عاما (٢٥) .

الباب الثاني

الفصل الرابع

المقاومة الإسلامية بعد وفاة چنكيز خان :

ترك چنكيز خان الدولة الخوارزمية وعاد الى منغوليا بعد أن دمر البلاد الإسلامية وصيرها أشبه ما تكون بصحراء جرداء ، لا زرع فيها ولا ماء ، فأباد سكانها وخرّب مدنها ، وأيضا نجح چنكيز خان في تشريد السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه وتحطيم دولته وتدمير مدن الدولة الخوارزمية ، ولم يتركه الا بعد أن هام على وجهه وتوفي آخر الأمر بعد أن تلقفته مدينة ولفظته أخرى ، فمات منكسر الجناح ذليلا في جزيرة « آبسكون » إحدى جزر بحر قزوين وكان قد أسند ولاية العهد الى ولده جلال الدين منكبرتي أرشد أبنائه الذي كان على رأسه ساعة وفاته . أما بقية أبناء السلطان فمنهم من قتل ، ومنهم من اختبأ وتوارى عن الأعين ، ومنهم من ظل يحارب الى أن استولى عليه اليأس ثم فر آخر الأمر يلتمس النجاة والخلص . وقتل من أبناء السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه في المعارك كل من ركن الدين غورشاہ وقطب الدين أوزلاغ شاہ وآق شاہ . هذا خلاف من قتل بيد المغول من أبناء صغار كانوا بصحبة جدتهم تركان خاتون . وفر غياث الدين شير شاہ الى مازندران واعتصم بها حتى ابتعد المغول عنها ، ثم أخذ يظهر على مسرح الأحداث من جديد منافسا أخاه السلطان الشرعي جلال الدين منكبرتي الذي فر الى الهند كما رأينا ، وظل بها لا يلوى على شيء . وهكذا توارى عن مسرح الأحداث كل أبناء السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه ، الا ولديه جلال الدين منكبرتي وغياث الدين شير شاہ .

غياث الدين شير شاہ بن علاء الدين محمد وحكم الأقاليم الجنوبية والغربية :

كان غياث الدين شير شاہ يحكم بعض الأقاليم في جنوب وغرب

الدولة ، أبان حكم والده السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه ، وظل فيها حتى الغزو المغولي . وكان يساعده في ذلك خاله « ايغان طائيسى » الذى كان نائذا الكلمة مطاعا في ذلك الجزء من الدولة الخوارزمية . وعندما رحل المغول عن المناطق الغربية من الدولة الخوارزمية بعد وفاة چنكيز خان ، عاد غياث الدين شير شاه الى الظهور ، واسترد ما كان تحت يده من اقاليم . وكان معه جيش قوى متماسك القيادة لم يصبه الفشل والهزيمة التى حلت ببقية الجيوش الخوارزمية نتيجة تواجده في قلاع مازندران الحصينة . لكن خاله استغل الفرصة وانفرد بالحكم . وأيده في ذلك الخليفة الناصر لدين الله العباسى سرا وشجعه على الانفرد بالسلطة والثورة على شير شاه ، بل أعطاه تفويضا بحكم البلاد مدفوعا الى ذلك بعدائه القديم للخوارزميين . واستطاع « ايغان طائيسى » أن يجذب اليه عددا كبيرا من الجنود الخوارزمية من أتباعه المخلصين . على أن غياث الدين شير شاه ما لبث أن واجه الجيوش المنسقة وهزمها شر هزيمة سنة ٦٢٠ هجرية (١٢٢٣م) وفر المنهزمون الى آذربيجان واعتصموا بها .

واستتب الأمر لغياث الدين شير شاه بعد انتصاره على خاله « ايغان طائيسى » وأراد التوسع فقرر الاستيلاء على أتابكية فارس سنة ٦٢٠ هجرية ، غباغت صاحبها الأتابك سعد بن زنكى وأستولى على حاضرة ملكه شيراز سنة ٦٢١ هجرية (١٢٢٤م) دون مقاومة تذكر ، فما كان من الأتابك سعد بن زنكى الا الاعتصام باحدى القلاع المنيعه في نفس اقليم فارس ، ولما لم يجد فائدة من المقاومة تصالح مع غياث الدين شير شاه واتفقا على أن يحكم كل منهما جزءا من أتابكية فارس (١) .

ولم ينجح غياث الدين شيرشاه في حكم البلاد الخوارزمية التى كانت تحت حكمه لكثرة الفتن والدسائس والمؤامرات التى كانت تحاك من الخوارزميين أصحاب النفوذ والسلطان البائد ، وانغماس الأمير نفسه في الملاذات والشهوات ، وأيضا قيام جنوده الأتراك بنهب البلاد وتخريب ما تصل اليه أيديهم . كذلك كانت أم غياث الدين شيرشاه مهيمنة على ولدهما تحركه كيفما يشاء ، وهى التى حرضته على الاستيلاء على شيراز وانتزاعها

(١) ابن الوردي : تنمة المختصر في أخبار البشر ، ج ٢ ، ص ١٤٥ .

من الآتابك سعد بن زنكى . وما أن تم فتح شیراز حتى تلقبت بلقب « خداوند جهان » أسوة بما كانت تتلقب به ترکان خاتون ثم والده علاء الدين محمد الخوارزمشاه . واستمرت تلك الفوضى والاضطراب الإدارى والسياسى والاقتصادى يسود الأقاليم التى كانت تحت سيطرة غياث الدين شيرشاه حتى عاد أخوه الأكبر جلال الدين منكبرى من منفاه فى بلاد الهند .

الصراع بين جلال الدين منكبرى وغياث الدين شيرشاه :

مكث جلال الدين منكبرى فى الهند فترة من الزمان جمع فيها قوة اسلامية كبيرة من الجند الفارين من وجه المغول الذين التجأوا الى الهند وتمكنوا من عبور نهر السند ، وأيضاً من انضم اليهم من جنود مسلمين مندفعين بروح اسلامية وحمية دينية للدفاع عن الاسلام والمسلمين . كذلك انضم الى جلال الدين منكبرى كثير من القواد الخوارزميين الذين قدموا من العراق العجمى فراراً من تسلط أخيه غياث الدين شيرشاه وسخطهم على سياسته . وساعد هذا المدد الاسلامى الممتلىء حماسه وغيرة ووطنية جلال الدين منكبرى على مهاجمة الأقاليم الهندية الواقعة فى حوض نهر السند ، حتى أنه أخضع بعض الأقاليم الهندية لسلطانه واستولى على خيراتها ، فغنم منها مغانم كثيرة لا تقاس الا بتلك التى استولى عليها السلطان محمود الغزنوى عند فتحه للهند ، ومما يؤخذ عليه اقدامه على قتل كل من كان يصادفه دون تمييز بين مسلم ووثنى ، هندی وغير هندی مما يؤخذ عليه .

وتحالف أمراء المسلمين حكام اقليم السند ضد جلال الدين منكبرى بعد أن استفحل خطره وزادت شروره وهم الذين آووه فى محنته وقدموا له المعونات ابان تشرده ، وانضم اليهم سلطان دهلى ، فسار الجميع مندفعين لمواجهة جلال الدين منكبرى وطرده من بلاد الهند برمتها . ولم يستطع السلطان الخوارزمى الطريد اللاجئ الوقوف أمام القوات المتحالفة ، وانقسم قواده الى فريقين ، فريق رأى ضرورة العودة الى أراضى الدولة الخوارزمية ، خاصة وأن غياث الدين شيرشاه تمكن من الاحتفاظ بما كان تحت يد الدولة من أقاليم ، الا اقليم ما وراء النهر واستتب الأمر له . وزين هؤلاء

لجلال الدين منكبرتي العمل على انتزاع السلطة من يد أخيه غياث الدين شيرشاه لأنه خائفة والده وأرشد أخوته . أما الفريق الآخر ثانه أثر البقاء في بلاد الهند - رغم قساوة جوها وصعوبة الحياة فيها - ليكون السلطان الخوارزمي في مأمن من چنكيز خان وجيوشه الى أن تتضح الأمور .

وأثر جلال الدين منكبرتي الأخذ بالرأى الأول ، فعبر نهر السند في سنة ٦٢٢ هجرية (١٢٢٥ م) ، وأسرع الى الأقاليم الغربية من الدولة الخوارزمية الواقعة تحت سيطرة أخيه غياث الدين شيرشاه ، وعين وهو في طريقه احد قواده حاكما على مدينة غزنه وما يليها .

وصل جلال الدين منكبرتي الى كرمان ، فاستقبلها حاكمها التركي « براق الحاجب » الذي ينتمى الى دولة الخطا . وأسس لنفسه دولة في كرمان سنة ٦١٩ هجرية (١٢٢٢ م) فأظهر ولاءه للسلطان الخوارزمي الجديد ، وقدم له من البدايا ما كان في حوزته . ولكي يؤكد هذا الولاء، عرض على جلال الدين منكبرتي الزواج من إحدى بناته ، فقبل السلطان الخوارزمي ذلك . وغادر جلال الدين منكبرتي أتابكية كرمان بعد أن تأكد خضوعها لسلطانه واتجه الى أتابكية فارس حيث أظهر له الأتابك سعد بن زنكي ولاءه وتأييده وزوجه أيضا إحدى بناته . وفي أثناء إقامة الخوارزمشاه في شيراز قدم اليه الأتابك علاء الدين صاحب يزد معلنا خضوعه وتبعية ، وحذا حذو كل من أتابكي كرمان وفارس غزوج الخوارزمشاه من ابنته أيضا ، فأقره جلال الدين منكبرتي على ما بيده من بلاد . ومن يزد سار الخوارزمشاه ومعه جيش قوى الى مدينة أصفهان التي لم تلبث أن قدمت اليه فروض الطاعة والولاء والتبعية والتأييد . وتقدم الخوارزمشاه لملاقاة أخيه غياث الدين شيرشاه في حرب غايتها السلطة والمنصب .

وكان غياث الدين شيرشاه يتتبع بحذر بالغ نشاط أخيه جلال الدين منكبرتي ويستعد لحربه ان لزم الأمر . وكانت تحت امرته قوة كبيرة تعسكر على عقربة من مدينة الري . وكان كلما سمع بتفوق أخيه يزداد حماسا لقتاله واستعدادا للقضاء عليه . وأراد جلال الدين منكبرتي استمالة أخيه الى جانبه وذكره بوصية والدهما الا أن غياث الدين شيرشاه رفض قبول عرضه وصمم على حربه .

ووجد جلال الدين منكبرتي أن قوات أخيه تفوقه عدة وعدداً واستعمل الخديعة وحمل جنده أعلاماً بيضاء ، كتلك الأعلام التي يحملها المغول . فلما رأى غياث الدين شيرشاه ذلك المنظر ظن أن أمامه جيشاً مغولياً فولى الأدبار ، لكن حيلة جلال الدين منكبرتي لم تلبث أن انكشفت ، فأعاد الكرة مرة أخرى على رأس جيش كبير يتألف من ثلاثين ألف جندي من الخيالة . ولما وجد جلال الدين منكبرتي أنه لن يستطيع مواجهة هذا العدد الوفير من جند أخيه ، أتاه أيضاً عن طريق الحيلة والغدر ، وأعلن أنه لم يأت من بلاد الهند إلا ليكون بجوار أخيه والوقوف أمام المغول عدوهم المشترك صفاء واحداً ، والعمل معاً على إعادة الدولة الخوارزمية التي أقامها أجداده إلى سابق مجدها وعزها ، بل وإصلاح ما خربه المغول وأنه يضع نفسه تحت تصرف أخيه ورهن إشارته . وخدع غياث الدين شيرشاه بهذه الحيلة وصرف جيوشه وأمرها بالعودة إلى سابق مواقعها بعد أن كانت متفوقة ومتعاسكة . ولما أطمأن جلال الدين منكبرتي إلى تفكك قوة أخيه الواقفة بجواره ، انقلب عليه وأعمل السيف في رقاب جند أخيه الذين فوجئوا به ولم يكن استعدادهم كافياً ، وعزم جلال الدين منكبرتي جيوش أخيه عزيمة منكراً ، وفر غياث الدين شيرشاه من أرض المعركة واعتصم بأحدى القلاع النائية بالقرب من مدينة الري .

وبانتصار جلال الدين منكبرتي على أخيه غياث الدين شيرشاه أصبح يسيطر على الأقاليم الغربية من الدولة الخوارزمية ، وتوافد عليه قواد الدولة الخوارزمية الذين كانوا تحت إمرة أخيه ، وأعلنوا ندمهم على عصيانهم وتوسلوا إليه أن يصفح عنهم ونادوا ببيعته سلطاناً على الدولة الخوارزمية . فأجابهم جلال الدين منكبرتي إلى طلبهم ، كذلك أسرع إليه حكام المدن والأقاليم المختلفة الذين انتهزوا فرصة القضاء على الدولة الخوارزمية واستقلوا ببعض ولايات خراسان ومازندران والعراق العربي في الفترة التي أعقبت رحيل جنكيز خان عن البلاد الإسلامية يعلنون طاعتهم وتأييدهم له . فمنهم من صفح عنه السلطان وأعادته إلى بلاده معززا مكرما ، ومنهم من عزله السلطان عما كان بيده من بلاد ، وبخاصة أولئك الذين ساعدوا المغول وخضعوا لهم وساروا في ركابهم لتثبيت مراكزهم دون النظر إلى مصالح رعاياهم من المسلمين .

وعكذا استقر جلال الدين منكبرتي على عرش أبيه ، وعمل جده على إعادة الأمن وإصلاح ما خربه المغول ، وتجهيز جيش إسلامي للوقوف على أهبة الاستعداد لمواجهة أي طارئ . وامتد سلطانه على أقاليم خوارزم وخرزنة وكرمان وفارس وخراسان ومازندران ، ولم يفقد من بلاد الدولة الخوارزمية سوى إقليم ما وراء النهر لتمسك المغول بالسيطرة عليه . وأعاد الدولة الخوارزمية إلى ما كانت عليه قبل المحنة ، لكنه جلس على عرش دولة تختلف عن عهود آبائه وأجداده ، إذ كانت الدولة في عهده تعاني آثار التخريب والدمار الذي لحق بأقاليمها المختلفة بعد غزو چنكيز خان ، فاضطربت أحوالها السياسية والاجتماعية وأصبحت خاوية تماما من أي نشاط ، وباتت طعمة لمغتصبين من الحكام والقادة ، وانتشر قطاع الطرق ينهجون الناس في وضح النهار ، وتوقفت الحركة التجارية وأقفلت كثير من الحوانيت نتيجة موت أصحابها أو فرارهم من بلادهم .

وكان أهم سمة من سمات الدولة الخوارزمية بعد المحنة ، انعدام الرابطة السياسية والعاطفية بل والروحية بين الشعب الإسلامي رغم وجود سلطان خوارزمي واحد نتيجة انفراد كل حاكم بما تحت يده من إقطاع أو مدينة ، وأصبح لايعترف للسلطان الخوارزمي إلا بتبعية اسمية منتهزين فرصة انشغال السلطان بجمع الجيوش لمواجهة المغول ومحاربة أعدائه من ملوك وأمراء المسلمين . وساعد على ذلك أن السلطان جلال الدين منكبرتي عادى كل جيرانه من الحكام عندما آنس في نفسه قوة . وكان من أثر ذلك أنه لم يجد في النهاية من يقف إلى جانبه عندما عاد المغول لغزو الدولة الخوارزمية من جديد . ومع ذلك كانت سياسته الحفاظ على ما استولى عليه من بلدان والوقوف في وجه أعدائه الكثيرين في الداخل والخارج . هذا فضلا عن أنه كان يرمى إلى التوسع على حساب جيرانه من الأمراء المسلمين . ويحاول الانتقام من الخلافة العباسية لسابق عدائها للدولة الخوارزمية . بينما كان كثير من الأمراء المسلمين يؤثرون مسالة السلطان جلال الدين منكبرتي ومهادنته وعقد صلح معه ، لأنهم وجدوا أن المغول باتوا يهددون أملاك الخوارزميين في فارس ويخشون استيلاء المغول على الدولة الخوارزمية من جديد فتدور عليهم الدائرة بالتبعية ، فآثروا الصلح على الحرب . كما كانت شخصية جلال الدين منكبرتي القوية الشجاعة دافعا لهم على ذلك ،

لأنهم وجدوا فيه ضالتهم الكبرى والذي يمكنه مواجهة الخطر المغولى الذى بات يهدد كيان الخوارزمشاه وكياناتهم جميعا .

زوال الدولة الخوارزمية على أيدي المغول :

توفى چنكيز خان - كما سبق أن ذكرنا - سنة ٦٢٤ هجرية (١٢٢٧ م) وأحوال المغول غير مستقرة . ورجع أمراؤهم وكبار رجال دولتهم وقادتهم المنتشرون فى الأقاليم الخاضعة للمغول فى آسيا وأوروبا الى العاصمة « قره قورم » لانتخاب خاقان جديد . واستمر الوضع على ذلك سنتين الى أن تم انتخاب « أوكتاي بن چنكيز خان » سنة ٦٢٦ هجرية (١٢٢٩ م) خاقانا ، وأخذ على عاتقه إخضاع الدولة الخوارزمية من جديد .

وفى سنة ٦٢٤ هجرية (١٢٢٧ م) أى بعد وفاة چنكيز خان مباشرة كان أول احتكاك مباشر بين السلطان جلال الدين منكبرتى والمغول ، عندما خرجت قوة من المغول قاصدة الدولة الخوارزمية وتوغلوا فى أراضيها حتى أصبحوا على مقربة من مدينة الري . وتصدى السلطان جلال الدين منكبرتى لجيش المغول ، واستطاع أن ينتصر عليه ، بل ويبيده عن آخره . وفى سنة ٦٢٥ هجرية (١٢٢٨ م) نشبت معركة أخرى بين جيش خوارزمى بقيادة جلال الدين منكبرتى وفرقة مغولية قرب أصفهان . وقد ظن المغول أنهم فى استطاعتهم أن يلعبوا نفس الدور الذى لعبه چنكيز خان مع الدولة الخوارزمية من قبل ، فانقصر عليها الخوارزمشاه وبددها تماما . يقول الحافظ الذهبى عن واقعة أصفهان ما يلى : « أخبار سنة أربع وعشرين وستمائة : فيها جاء الخبر الى السلطان جلال الدين وهو بتوريز (تبريز) أن التتار قد قصدوا أصفهان وبها أهله . فسار اليها وتأهب للملقى . فلما التقى الجمعان خذله أخوه غياث الدين وولى وتبعه جهان بهلوان ، فكسرت ميمنته ميسرة التتار ، ثم حملت ميسرته على ميمنة التتار فطحنتها أيضا ، وتباشر الناس بالنصر . ثم كرت التتار مع كميته وحملوا حملة واحدة كالسيل وقد أقبل الليل . فزال الأقدام وقتلت الأمراء واشتد القتال وتداعى بنيان جيش جلال الدين وثبت هو وطائفة يسيرة وأحيط به فانهزم على حمية ، وطعن طعنة لولا الأجل لتلف . وتمزق جيشه الا أن ميمنته زخت فى أقفية التتار ، ورجعت بعد

يومين فلم يسمح بمثله في الملاحم من انهزام كلا الفريقين وذلك في رمضان» (٢).

وجهاز الخاقان الجديد ، أوكتاي ، جيشا من ثلاثين ألف مقاتل لقتال الخوارزميين وشن حرباً شاملة على جلال الدين منكبرتي . واستقطاع ذلك الجيش عبور الضفة الغربية من نهر جيحون والوصول الى خراسان بسرعة فائقة ومنها الى الأقاليم الغربية من الدولة الخوارزمية ، والاستيلاء على الري وهمدان وما بينهما من البلاد (٣) . وواصلوا سيرهم الى حدود آذربيجان سنة ٦٢٨ هجرية (٢٢٣١ م) . وفيها يقول الحافظ الذهبي أيضا : « أخبار سنة ثمان وعشرين وستمائة : لما علمت التتار بضعف جلال الدين خوارزم شاه بادروا الى آذربيجان . فلم يقدم جلال الدين على لقائهم . فملكوا مراغة ، وعاثوا وبدعوا وفر هو الى آمد وتفرق جنده . فبيته التتار ليلة فنجا بنفسه . وطمع الأكراد والفلاحون وكل أحد في جنده وتخطفوه . وانتقم الله منهم . وسأقت التتار الى ديار بكر في طلب جلال الدين لا يعلمون أى طريق سلك » (٤) .

وكان هدف الحملة المغولية مطاردة السلطان جلال الدين منكبرتي والقبض عليه . حتى اذا تم لهم القضاء على رأس الدولة الخوارزمية ، اطمأنوا الى اخضاعها في سهولة ويسر . لذلك كانت حركات المغول وتنقلاتهم في أراضي الدولة الخوارزمية في تلك الفترة مقيدة تماما بحركات الخوارزمشاه وتنقلاته فيها . وعندما رحل جلال الدين منكبرتي الى تبريز تتبعه المغول ، وأرغموه على التقهقر الى سهل موقان المجاور للساحل الغربي من بحر قزوين قبل أن يتمكن من جمع جيوشه . وحاول السلطان الخوارزمي الاستنجاد بأمراء ديار بكر والجزيرة والخليفة العباسي ، لكنهم جميعا تقاعسوا عن نصرته ، وتركوه وحيداً يواجه مصيره المحتوم . فلما وصل الى مدينة آمد في أعالي نهر دجلة ، لحق به المغول ، وهزموه شر هزيمة ، وقتلوا وأسروا الكثير من جنده . واستولوا على ما كان معه من سلاح وعقاد ، وتفرق الباقون لا يلوون

-
- (٢) الحافظ الذهبي : العبر في خبر من غير ، ج ٥ ، ص ٩٧ - ٩٨ .
 (٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج ١٢ ، ص ٢٣٠ .
 (٤) الحافظ الذهبي : العبر في خبر من غير ، ج ٥ ، ص ١١٠ .

على شيء . وكان السلطان جلال الدين منكبرتي ضمن من ولوا الأدبار ، فتبعه خمسة عشر فارسا مغوليا وأدركه اثنان منهم قتلها جلال الدين منكبرتي ، وعاد الباقيون بعد أن يئسوا من الظفر به . وأخيرا لجأ السلطان الخوارزمي الشريد إلى جبال كردستان (٥) . وهام على وجهه حتى عثر عليه رجل كردى . وأخبره أنه هو السلطان . فأخذ الرجل إلى منزله . وتركه ذاك الكردى تحرسه زوجته وخرج لاحضار بعض خيوله ليستعين بها فى ارجساعه إلى بلاده . وبينما كان الكردى غائبا عن منزله أتى كردى آخر وتحقق من قيافة السلطان الخوارزمية . وكان جلال الدين منكبرتي قد قتل له اخا من قبل ، فخر به بحربة كانت بيده فأغنت عن الثانية . وكانت وفاته فى منتصف شعبان سنة ٦٢٨ هجرية (١٥ أغسطس ١٢٣١ م) وان ذكر الحافظ الذهبى واقعة وفاته على أنها تمت فى أوائل سنة ٦٢٩ هجرية (٦) .

تلى هزيمة السلطان جلال الدين منكبرتي وقتله اعتداء الأهالى من سكان المدن والقرى من الفلاحين والرعاة على كل من وجدهم من الخوارزميين انتقاما منهم لما فعلوه بهم من قبل ، مما يساعد المغول على الاستيلاء على البلاد الإسلامية ونهبها بعد ذلك . واستولى المغول فى سنة ٦٢٨ هجرية - وهى السنة التى قتل فيها السلطان جلال الدين منكبرتي - على بعض المدن الإسلامية مثل ديار بكر وماردين ونصيبين وسنجار ، وأخذوا يعيشون فيها فسادا دون أن يجدوا مقاومة من السكان .

وتقدم المغول إلى آذربيجان فى نفس السنة التى قتل فيها الخوارزمشاه (٦٢٨ هـ) واقتربوا من حاضرتها تبريز ، فاستقبلهم وفد من سكانها وافتدوا أنفسهم بكثير من الأموال والهدايا النفيسة ، ثم تمكن المغول من الاجهاز على مدن آذربيجان بعد ذلك الواحدة تلو الأخرى . وساعد على استيلاء المغول على تلك المدن الهزيمة التى حلت بجلال الدين منكبرتي وتفرق جيشه . وتمزق دولته وأخيرا اختفأؤه عن المسرح العسكرى والسياسى باختفاء أخباره . إذ لم يكن معروفا على وجه التحقيق المصير الذى آل إليه لتعلق الناس به

(٥) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج ١٢ ، ص ٢٣٤ .

(٦) الحافظ الذهبى : العبر فى خبر من غبر ، ج ٥ ، ص ١١٤ .

وتداولهم سيرته كبطل مغوار . كل ذلك شجع حكام آذربيجان واران على الثورة ضد الخوارزميين تقربا منهم للمغول ، غقطعوا رؤوس من قبضوا عليهم ، وارسلوها الى المغول ليبرهنوا على عداءهم للخوارزميين وتأييدهم للحكم المغولي .

ان نجاح المغول في السيطرة على الأقاليم الاسلامية التي كانت تحت سيطرة الخوارزميين وغيرهم ، من أقاليم مثل اران وجورجيا وأراضى العراق العربى ، ليس نتيجة لزوال آخر شخصية خوارزمية وقفت في وجه الغزو المغولى حيث لم يعد هناك من يحول بين المغول وبين العبث في أراضى العالم الاسلامى دون أن يقف في وجههم عائق دون تنفيذ أغراضهم فقط . بل أيضا عن تقاعس المسلمين عامة . حكاماً وشعوباً عن نصره الخوارزمشاه وتركه بمفرده يواجه المصير المحتوم .

عوامل زوال الدولة الخوارزمية :

ان العوامل التي أدت الى انهيار الدولة الخوارزمية كثيرة ومتشعبة . يرجع بعضها الى ضعف العالم الاسلامى عامة قبيل الغزو المغولى لدرجة أنه كان مفكك الأوصال تتنازعه أيدي المقتصبين في الداخل والخارج . ولم تكن هناك قوة واحدة تستطيع أن تقف في وجه التيار المغولى الجارف عندما قرر چنكيز خان اجتياح الدولة الخوارزمية . والبلاد الاسلامية عامة .

ان موضوع هزيمة دولة كبيرة كالدولة الخوارزمية وفنائها في فترة زمنية قصيرة رغم ما كانت تحويه من مدن كبيرة وحضارة مزدهرة وجنود غفيرة وشعب أصيل عاش طوال حياته يدافع عن شرفه وحقه وكرامته من أي مغير أو طارئ من خارج ايران أو من مستبد يظهر داخلها على يد شعب بدوى نصف وحشى لن الأمور الغريبة حقاً . بل نقرر أن أسباب الهزيمة وموضوعاتها المتشعبة تحتاج الى كتاب مفصل أو عدة كتب مستقلة ، كما نقرر أيضا أن السبب الواحد من أسباب انهيار الدولة الخوارزمية يكفى بمفرده لدمار دولة ، بله الأسباب مجتمعة . وبصفة عامة نوجز فيما يلي أهم أسباب النكسة الخوارزمية :

١ - استبداد وغرور وتعصب السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه

الذى واجه المغول وكان عذا السلطان الخوارزمى مصابا بأمراض نفسية تتمثل فى حبه للسيطرة وإضافة الممتلكات ، وتأسيسه امبراطورية على حساب القوى الاسلامية وغير الاسلامية الأخرى حتى أنه طمع فى فتح الصين وبلاد الكرج . فكان من أثر سياسته تلك أن أزم الموقف الإسلامى وحاربت الجيوش الاسلامية بعضها البعض ، وخشى كل أمير من جاره ، وانتهى الأمر بضعف تلك القوى جميعها ، وضعفت الدولة الخوارزمية أيضا . وما أن مر السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه من المغول ، لم يكن هناك أمير قوى يستطيع أن يقود العالم الإسلامى ويقف به فى وجه المغول .

٢ - تدخل « ترکان خاتون » والددة السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه فى شئون المملكة واستبداد رأيها بما كان لها من قوة ونفوذ . وكانت تلك الملكة الخوارزمية من قبائل « قنقلی » ، وأصلهم قبائل تركية سكنت السهول الواقعة شمالى إقليم خوارزم وفى الجزء الشمالى الشرقى من بحر قزوين . واندفعوا الى أراضي الدولة الخوارزمية اثر تصاهرهم مع السلطان علاء الدين تكش من بنات احد زعماء تلك القبائل . وكانت ترکان خاتون صاحبة سلطان قوى سواء فى حياة زوجها أو فى عصر ولدها علاء الدين محمد . وكان من اثر ذلك أن هاجر كثير من رجال تلك القبائل التركية من أقرباء ترکان خاتون وأفراد عشيرتها الى أراضي الدولة الخوارزمية ، ودخلوا خدمة ولدها السلطان علاء الدين محمد ، ووصلوا الى أعلى المناصب وأرقاها حتى تكونت منهم قوة وعصبية لا يستهان بها بعد أن حكموا أقاليم الدولة وأطلقت أيديهم فيها . وكانت النتيجة الحتمية لذلك أن قوة الخوارزميين تأثرت تأثيرا كبيرا بتلك الطائفة بزعاماتها الجاهلة واستبدادها وطيشها وقسوتها ، وتضاوت امام قوة تلك الارستقراطية العسكرية ، وشعر الأهالى والسلطان بالحاجة الى وقف هؤلاء عند حدهم ، فلما شعروا بنوايا السلطان نحوهم عمدوا الى ارباب الأهالى المسلمين ونهب حواصيتهم وما يملكون من حبوب وحيوانات . غاضب الأمن فى البلاد واضطربت معه أحوال الدولة السياسية والاجتماعية (٧) .

(٧) الديار بكري : تاريخ الخميس فى أحوال أنفس نفيس ، ج ٢ ، ص ٣٦٨ .

ومما زاد اضطراب الأمور السياسية والادارية سوءاً داخل الدولة الخوارزمية أن تركان خاتون كونت لها عصبية قوية من قواد عشيرتها حتى أصبح نفوذها في الدولة لا يقل عن نفوذ ولدها السلطان نفسه . بل وصل الأمر بها أن كل المناصب العسكرية والوظائف الهامة في الدولة الخوارزمية كانت في يد طائفتها وأقاربها وحاشيتها . وكان ولاء هؤلاء جميعاً للملكة تركان خاتون أكثر من ولائهم للسلطان نفسه ، بل كانوا لا يهتمون بقراراته ويصدرون ما يخالفها ويحرضون على إهمال فراماناته وقراراته بأى حجة من الحجج . وآخر الأمر كان حرص هؤلاء على الحياة كطبقة ممتازة مسيطرة على شئون الدولة أكثر من حرصهم على سلامة الوطن الاسلامى المنهار أمامهم .

٣ - نشوب الخلافات بين أمراء الجيش وقادته وشيوع النفاق بينهم وإهمالهم تدريب قواتهم استعداداً للقتال . وكانت كل جماعة تخالف غيرها من الجماعات ، وظهر بينهم التنافس البغيض على ارتقاء العنصر التركى وغلبته دون النظر للكفاءة والمقدرة والاخلاص والتضحية . وفى كثير من الأحيان كانت جماعات كثيرة تخالف السلطان نفسه وتعصى أوامره ، ولا تشترك فى قتال اذا أمرهم به ، بل كانوا ينظرون أول كل شىء الى ما سيعود عليهم بالفائدة من عدمه ، ثم يقررون على ضوء ذلك اشتراكهم فى القتال أو عدمه . وكان الجيش الخوارزمى يعتمد على الاتراك الذين كانوا فى نفس الوقت مصدر قلق واضطراب الدولة ، ولم يهتموا كثيراً بالدفاع عن تلك الدولة لأنها لا تهمهم من قريب أو بعيد ، فهم مرتزقة أوكل اليهم أمر الدفاع عن شعب غريب عنهم كانوا يدركون أنهم اذا انتصروا فى ميدان القتال ، فلن يعود عليهم عذا النصر بخير كثير .

كذلك كان الجيش الخوارزمى يفتقر النظام والطاعة للقادة ، والقدره على تحمل الصعاب وكانت تلك الصفات من أهم مميزات الجيش المغولى ، فكان النصر حليفه فى كل معركة .

٤ - كانت غالبية الجيوش الخوارزمية من أتراك القبچاق وقنقلى دون غيرهم من القبائل التركية . وكان هؤلاء لا يطيعون أمراً الا صادراً من رؤسائهم حتى السلطان نفسه ، وكان ولاؤهم لسادتهم ورؤساء عشائهم ، وليس

للدولة الخوارزمية ولا السلطان نفسه . وكانوا يسعون للقتال لا حبا فيه ولكن حبا في الغارات التي كانوا يشنفونها بعد القتال والتي كانت تدر عليهم كثيرا .

٥ - معاملة الخوارزمشاه وكبار رجال دولته والخوارزميين عامة الشعوب المغلوبة في أغلب الأحيان معاملة غير انسانية ، خاصة ملوك وقادة تلك الشعوب . وثبت التاريخ أن عددا كبيرا من زعماء الشعوب المغلوبة من الملوك والقادة والوزراء وكبار الشخصيات العسكرية والمدنية بعد انهزامهم سيقوا الى خوارزم مكبلين في الحديد حيث يقيم السلطان الخوارزمي ، وآذوهم كثيرا حتى أن كثيرا من هؤلاء وضعوا في سجون أشبه بالكهوف لا يعرفون ليلهم من نهارهم ، كما أغرقوا بعضهم في نهر جيحون دون ذنب جنوه سوى دفاعهم عن شعوبهم حتى انهزموا وأصبحت مقاديرهم في أيدي الخوارزميين ليس أكثر .

٦ - معاداة الخليفة الناصر لدين الله العباسي السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه لمحاولة الأخير السيطرة على بغداد والحجر على الخليفة العباسي ، فنشبت بينهما الحروب . وأقدم الخوارزمشاه على تعيين أحد الطويين خليفة بعد أن فشل في الحصول على ما كان للسلاجقة ببغداد من نفوذ أدبي وسياسي لدى الخلافة العباسية ، وتصميم السلطان علاء الدين محمد على احتلال بغداد والاطاحة بالخليفة . وكانت تلك الأحداث المؤسفة سببا في احجام سائر طبقات المسلمين عن تقديم المساعدة عندما اجتاح المغول اراضي الدولة الخوارزمية واهدارهم الكرامة الاسلامية باذلالهم المسلمين . وما كان ذلك الا لأن غالبية المسلمين كانوا يعتقدون في الخليفة العباسي .

٧ - كان السلطان علاء الدين محمد - حتى في أحلك الظروف وأشدّها قسوة - يخشى تجمع الجيش في يد قائد واحد ، قد تحدّثه نفسه بالعصيان والاستتثار بالسلطة والاطاحة بالأسرة الخوارزمية - كما فعلوا هم من قبل . وواقع الأمر أن قواد الجيش كانوا هم رؤساء العشائر وزعماء الطوائف الذين كانوا يستمدون قوتهم وسيطرتهم من كثرة عدد أتباعهم ، ولم يكونوا من الكفاءة والمقدرة بحيث يستطيع أحدهم قيادة جيش كبير ومواجهة المغول أصحاب الخطط والنظريات والاستراتيجية السليمة .

٨ - انهيار السد المحكم بين ايران ومنغوليا ، ونقص بذلك دولة الأتراك القراخانيين . وكان وجود هؤلاء في حد ذاته مانعا للمغول من مجاورة الولايات الشرقية للدولة الخوارزمية ، فانفتح بذلك أمام المغول الطريق الى ايران دون أن يجحدوا عائقا يوقفهم .

٩ - خوف السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه من المغول وخشيته منهم وأصيب بالجبن والخور في العزيمة منذ فراره أمام جحافلهم بعد معركة صحراء القبچاق التي نشبت بينه وبين جيش مغولى بقيادة جوجى بن چنكيز خان . وكان الخوارزمشاه قبل ذلك مشهورا بالشجاعة النادرة والقوة الجسمانية الفائقة . ولازم الخوف الخوارزمشاه في كل مرة واجه فيها المغول ، حتى أنه كان يفر أمامهم ولا يستطيع مواجهتهم ، وفعل مثله بقية الشعب الاسلامى الذى أصيب بشلل كامل في التفكير والتصرف ومواجهة الأحداث . وكان يسبق المغول عادة دعائهم ينشرون بين الناس الرعب والفرع ويحرضوهم على الاستسلام حتى لا يتعرضوا للقتل والذبح كما حدث ابتداء من معركة أوترار وما فعلوه بحاميته وحاكمها غاير خان وشعب المدينة ، كل ذلك أضعف من معنويات الخوارزمشاه ووجد أن من الصعب عليه أن يلتقى بأعدائه في ميدان القتال ، وفضل التحصن في المدن ، وثبت فشل خطته ، ومع ذلك استمر عليها الى أن وجد نفسه آخر المطاف مطاردا شريدا ألقت به المقادير في جزيرة « آبسكون » ليموت فيها دون أن يجرى به أحد .

١٠ - نفرة الشعب الاسلامى في مختلف الولايات الايرانية مثل خراسان وأفغانستان (بلاد الغور) ومازندران والعراق العجمى من الحكم الخوارزمى بسبب الظلم وتطاول الحكام على رعاياهم ، وابتزازهم الأموال بطرق غير سليمة أقرب الى اللصوصية منها الى العمل الحكومى الرسمى . وكانوا يحصلون الضرائب بطريقة منفردة ومؤذية ومع ذلك لم يقدموا للشعب الايرانى أية خدمات مقابل ذلك ، بل كانت تلك الأموال تصرف على الخوارزمشاه وحاشيته والحكام الأتراك وطبقة العسكريين دون سواهم . هذا علاوة على اعتداء الحكام الأتراك على السكان الآمنين وهدمهم الحرمات ، وآخر الأمر كانت الطبقة الخوارزمية الحاكمة تشكل طبقة أرستقراطية تتصور في نفسها السيادة والسيطرة وتتعامل فيما بينها

ولا تتعامل مع غيرها . . . وعندما جدد الجدد وجدوا أنفسهم محاصرين من المغول من ناحية والشعب الاسلامي من ناحية أخرى مما سهل هزيمتهم . . .

١١ - افتقار بلاط الخوارزمشاه الى المستشارين الجيدين والوزراء الممتازين أصحاب الرأي والتدبير ، ولم نسمع طوال قرن من الزمان أن وزيراً خوارزمياً برز على مسرح السياسة الاسلامية والدولية مثلما كان عند العباسيين والسامانيين والغزنويين والسلاجقة . وكان كل واحد منهم يسعى للحصول على الثراء بأي وسيلة وعن أي طريق ، لأنه لم يضل الى منصبه الا عن طريق ملتقون كفاءة ادارية أو علمية ، بل وحتى في أحلك الأوقات نجد الوزير نظام الملك محمد بن صالح (٨) ينفرد بالسلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه ويؤثر عليه ، ويجعله يغير خطته العسكرية والادارية كلية ، فبدلاً من قرار السلطان التوجه الى بلاد الغور والتوجه الى غزنه لقربها من ميدان القتال نجد الوزير - وهو من المناطق الغربية - يزين له التوجه الى العراق العجمي ومازندران أي المناطق الغربية من الدولة الخوارزمية لبعدها عن الجيوش المغولية ومسرح القتال مما أودى بالسلطان الى كارثة سريعة وفاجعة غير متوقعة .

١٢ - نشوب الخلاف بين أبناء السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه، سواء في زمن أبيهم أو بعد انهيار الدولة ، وتم ذلك لأنهم من أمهات مختلفة ، وكل واحد منهم يعمل بطريقة ليخلف والده ويفوز بالعرش دون سواء ، وكان كل واحد منهم يعتمد على عضبية أمه ، فجاء صراعهم مؤثراً على قادة المملكة ورجالها ، فتشتت قواهم ، وأجهز عليهم المغول واحداً بعد الآخر بسهولة ويسر ، وكان الأجدر بهم أن يتحدوا ويواجهوا الخطر المغولي المدمر لكن عنادهم وكراهيتهم بعض البعض عجل بدولتهم وجعلتهم عبوة لغيرهم .

١٣ - السرعة الفائقة للجيش المغولي في تنفيذ أوامر الخاقان والطاعة العمياء لكافة القادة والجنود ووقوفهم صفاً واحداً وبروح نشطة مما مكنهم

(٨) ناصر الدين منشي كرماني : نسائم الأسحار من لطائف الأخبار - جز ثاني وجزا ص ٩٦ - ٩٧ .
(م ٧ - تاريخ الدولة المغولية)

من عدم إتاحة الفرصة للخوارزمشاه لتمرکز قواته وإعادة خطته لدرجة أن الخوارزمشاه وجد نفسه في نهاية الأمر يفر أمام المغول من مدينة الى أخرى وهو مشلول الحركة غاقد حرية التصرف .

١٤ - عدم وصول المعونات اللازمة سواء في الأفراد والمواد الغذائية والتموينية والعسكرية الى المناطق المعرضة للغزو المغولي . وأيضا ترك بعض الحكام المدن والأقاليم الخوارزمية مواقعهم عندما علموا بقدوم المغول، وكان تصورهم أن فرارهم هذا حماية لأنفسهم ولأموالهم وكنوزهم التي حملوها معهم تاركين الشعب وحده يواجه المصير المحتوم ، فأصبحت البلاد تحت رحمة المغول وتحت وطأة أقدامهم فقضوا على مدن برمتها بمن فيها وما كان فيها مثل أوترار - خجند - جرجانيه - نيسابور - هرات ، ثم الهزيمة الشاملة آخر الأمر واستيلاء المغول على كافة البلاد الإيرانية بسهولة ويسر .

١٥ - وجود طابور خامس لچنگيز خان منتشر في المدن الإسلامية عامة وبلاد الدولة الخوارزمية خاصة . وكان واجب هؤلاء الجواسيس موافاة عمياداتهم بأخبار الدولة الخوارزمية وإشاعة الفوضى والاضطراب والخوف والرهبة في نفوس السكان قبل المعارك حتى لا يتمكنوا من محاربة المغول .

١٦ - إقدام المغول على القتل العام وتخريب المدن وإشعال الحرائق في مدن كاملة حتى يعجز الناس عن مقاومة المغول بعد ذلك والاستسلام آخر الأمر للواقع الذي هم فيه ، مثل ما حدث لنيسابور وسمرقند وبلخ وبخارى حيث كان خوف الناس من القتل العام سببا في أن جعلهم يستسلمون للمغول . ومع ذلك كان جزء الكثير منهم للقتل .

١٧ - استبداد السلطان جلال الدين منكبرتي برأيه . ومعاداته أخاه غياث الدين شيرشاه الذي استتب له الأمر ، ونشوب الحرب بينهما وهزيمة الأخير ، في الوقت الذي كان يتحتم على أخيه جلال الدين منكبرتي الاستفادة بمجهود كل رجل في دولته . وعندما ظهر المغول في الميدان للمرة الثانية للأجهاز على الدولة الخوارزمية والقضاء على جلال الدين منكبرتي ، كان جيش الخوارزميين مجهدا من كثرة القتال وعدم وجود نصير له من أمراء

المسلمين غآأذه المغول على غرة ، ووجد نفسه آخر الأمر يخر أمامهم حيث أأقت به المقادير فى بلاد كردستان يذبح ذبح الشاه ، وتنتهى بنهايته السيئة الدولة الخوارزمية تماما . ونتج عن ذلك أن استتب الأمر للمغول وأصبحوا حكام البلاد وسادتها بعد زوال الدولة الخوارزمية وعلى أنقاضها بزوال آخر شخصية خوارزمية من سلالة نوشتكين ، ونعنى به السلطان جلال الدين منكبرى .

الفصل الخامس

المغول من چنكيز خان حتى هولاكو خسان

كان چنكيز خان يرى أن خير وسيلة لتدريب أبناءه على مباشرة مهام الحكم وتحمل المسئوليات والاحتفاظ بدولته التي أسسها بحد سيفه ، أن يقسم امبراطوريته وهو على قيد الحياة بينهم ، وذلك طبقا للتقاليد المغولية ، فخص كل فرد من أفراد أسرته بعدد من القبائل (أولوس) ، وجعل له موطنًا (يورت) يشتمل على مساحة من البراري تمارس فيها هذه القبائل حياة الرعي ، وأن يكون له من الخراج ما يكفي للانفاق على بلاطه وعسكره . وهذا الخراج تؤديه الشعوب التي خضعت للمغول في الصين وتركستان وإيران . وطبقا للقانون المغولي (الياسا) يعطى الأب قبل وفاته قسما من أملاكه لأبنائه الكبار بحسب سنهم ويترك الجزء الأهم لأصغر أبنائه ، وفلا تم التقسيم على النحو التالي :

١ - كان نصيب جوجي وهو أكبر أبناء چنكيز ، وكان يشرف على شئون الصيد وتنظيم القصور وتزيينها ، البلاد الواقعة بين نهر أرتش والسواحل الجنوبية لبحر قزوين . وتسمى عادة تلك المنطقة بالقبچاق ، ويطلق عليها اسم « القبيلة الذهبية » (آلتون أوردو Golden Horde) نسبة الى خيام معسكراتها ذات اللون الذهبي ، وكان غالب أهلها من الترك والترکمان (١) . ولما رحل جوجي قبل والده قرر چنكيز خان أن تكون تلك المناطق من نصيب حفيده « باتو » وهو ابن جوجي الذي اشتهر بركة العاطفة وعذوبة الحديث ، والتعقل والرزانة التي أوصلته ليكون رأس بيت چنكيز خان ، وظهر ذلك بوضوح عندما قام بدور حاسم فيما نشب من منازعات على ولاية العرش في البيت الجنكيزي .

(١) المقریزی : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٣٩٤ - ٣٩٥ ، حاشية ٤ .

٢ - اختص چغتاي بن چنكيز خان ببلاد الأويغور وأقاليم ما وراء النهر وكاشغر وبلخ وغزنة . وكان چغتاي في حياة أبيه يشرف على القضاء والعمل على تنفيذ أحكام چنكيز خان وقوانينه (الياسام) وتوقيع الجزاء والعقاب للمقصرين .

٣ - نال أوكتاي بن چنكيز خان المنطقة المنحصرة بين جبال «تارباغاي» وأطراف بحيرة «الاجول» وحوض نهر «ايميل» الذي يصب في بحيرة الاجول ويقع غربي منغوليا . وتعد هذه المنطقة أقل نصيب وزعه چنكيز خان على أبنائه . وكان أوكتاي مختصا بالشئون المالية والإدارية وتنظيم شئون الملك وتدبير مصالح الناس والإشراف على الرعايا .

٤ - أما تولوي أصغر أبناء چنكيز خان ، وهو الذي كان يباشر شئون الدفاع واعداد الجيوش وأحد مستشاري والده الخاقان حتى لقب بأولغ نويان أي الأمير الكبير (٢) ، فقد حصل على منغوليا وهي الوطن الأصلي لچنكيز خان والمغول ، والتي تشمل وديان وأنهار كرولين وأونون وأرخن ومنطقة قره قورم . وهو الذي استمر يحكم الإمبراطورية المغولية بعد وفاة والده چنكيز خان طبقا للقانون الچنكيزي مدة عامين من سنة ٦٢٤ حتى ٦٢٦ هجرية (١٢٢٧-١٢٢٩م) بصفته وصيا على العرش وبمساعدة ثلاثة من المستشارين إلى أن انتخب خاقان جديد خلفا لچنكيز خان .

وكان چنكيز خان قد وقع اختياره على ابنه أوكتاي ليكون ولي عهده وخليفته من بعده ، خاصة وأن جوجي الابن الأكبر مشكوك في شرعية بنوه أبيه چنكيز خان له ، حيث ولدته أمه بعد اختطافها بمدة تؤكد ذلك وأعادها چنكيز خان مع ولدها واعتبره ابنه البكر ، وأيضاً لما كان يمتاز به أوكتاي من اتساع الأفق وعمق التفكير ونباهة البصيرة رغم ما كان لأخوته من صيت ذائع مثل شهرة تولوي في الشئون العسكرية وما اتصف به چغتاي من صرامة يستطيع أن يفيد منها في تحقيق المبادئ الأساسية التي تشكل نظام چنكيز خان الإداري والاجتماعي .

(٢) خواندمير : حبيب السير ، ج ٣ ، ص ١٨٠ .

انتخاب أوكتاي خاقانا للمغول :

توفي چنكيز خان سنة ٦٢٤ هجرية ، وظل العرش المغولى أو ما أطلق عليه بالعرش الذهبى خاليا من ملك مدة عامين اثنين ، وأخيرا رأى كبار الأمراء من البيت الچنكيزى ضرورة التعجيل بتفصيب خاقان جديد حتى لا يتطرق الفساد والخلل والطمع الى أساس الملك . واجتمع مجلس الشورى المغولى (القوريلتاي) فى ربيع عام ٦٢٦ هجرية فى منغوليا ، وأجمعوا على تولية أوكتاي عرش الخاقانية ، وأعلنوا تنصيبه « خاقانا » للامبراطورية المغولية .

سار أوكتاي على نهج والده ، واهتم اهتماما كبيرا باتمام الفتوحات التى بدأها والده چنكيز خان وجيش الجيوش اللازمة لغزو ايران والصين وأوروبا . ويهمنا فى هذا المقام حروب المغول فى ايران أكثر من غيرها .

وسبق أن ذكرنا أن السلطان جلال الدين منكبرى انتهاز فرصة انصراف المغول عن البلاد الايرانية اثر وفاة چنكيز خان لاهتمامهم بشئونهم الداخلية وانشغالهم بأمور الملك والاعداد أن سيقولاه خاصة وأنه قد ساهم فى الانتخاب القواد والحكام والأمراء المغول المتواجدين فى أماكن بعيدة عن الوطن الأصلى وعادوا الى منغوليا .

وفى هذه الفترة التى انشغل فيها المغول بأمورهم الداخلية ، انتهاز السلطان جلال الدين منكبرى الفرصة ورجع من الهند ، وأخذ يجمع شتات الامبراطورية الخوارزمية من جديد ، ونجح فى ذلك نجاحا كبيرا بحيث لم تفقد الدولة من ممتلكاتها سوى اقليم ما وراء النهر فقط ، ووفق الخوارزمشاه فى خطته الى حد كبير وأعاد للدولة الخوارزمية مكانتها فشملت خراسان وكرمان وفارس والعراق العجمى وآذربيجان ، كما نهب الخوارزمشاه حصون الاسماعيليه عندما بلغه أنهم على اتصال بالمغول أعداء الاسلام وقتل منهم خلقا كثيرا وفرض عليهم جزية ثقيلة . وأخذ المغول يناوئون الخوارزمشاه بغير نجاح فى أول الأمر ، حتى اذا ما تولى أوكتاي العرش الذهبى أرسل جيشا قويا استولى به على الري وهمدان وما بينهما من بلاد ، ثم قصد آذربيجان وأستطاع أن يوقع بالسلطان جلال الدين منكبرى ليلا وهو بظاهر آمد عام ٦٢٨ هجرية (١٢٣١ م) فهزم هزيمة منكرة وتشتت جنده ، وفر السلطان الى الجبال حيث قتله أحد الأكراد كما أن ذكرنا . وبذلك تخلص

المغول من أخطر عدو استطاع أن يواجههم في بسالة منقطعة النظير ، وأصبح الطريق أمامهم ممهدا للغزو والفتح دون أن يعوقهم عائق ، وبالتالي استطاعوا في سهولة ويسر أن يشنوا حملاتهم على معظم البلاد الإسلامية ، وينشروا فيها الخراب والدمار .

واستمر أوكتاي قا آن يحكم الامبراطورية المغولية مدة ثلاث عشرة سنة الى أن توفي سنة ٦٣٩ هجرية بسبب افراطه في اللهو والشراب ، بعد أن ضم الى دولته البلاد الايرانية . وشرعت جيوشه تناوش جيوش الخلافة العباسية في العراق العربي . وكانت أهم معركة نشبت بين المسلمين والمغول تلك التي وقعت سنة ٦٣٤ هجرية (١٢٣٦م) عندما تقدمت الجيوش المغولية الى مدينة سامراء ، لكن جيوش الخليفة العباسي بقيادة مجاهد الدين ايبك الدويدار الصغير استطاع أن يهزم المغول بالقرب من تكريت في منطقة تقع ما بين دجلة وجبل حميرين ، وأن يفك عدد كبير من المسلمين كانوا قد وقعوا أسرى في أيدي المغول أثناء قتالهم في أربيل . وفي العام التالي عاود المغول الكرة مرة أخرى (أي في سنة ٦٣٥ هـ) وهزموا المسلمين في خانقين وقتلوا عددا كبيرا منهم .

واشتهر الخاقان المغولي أوكتاي في الشرق الاسلامي بكرمه ومروعة ، وهناك حكايات كثيرة تروى عن جوده وعطاياه لدرجة أنه كان يطلق عليه « حاتم آخر الزمان » . هذا الى جانب ما عرف عنه من عدل وحب للرعية وعطف على المسلمين ، فكان على العكس من أخيه چغتاي الذي كان فظا غليظ القلب شديد الوطأة على الاسلام والمسلمين .

وعندما توفي أوكتاي قاآن تمكنت زوجته « توراكيينا خاتون » المسيحية بداهاتها وسياستها أن تحافظ على عرش المغول لابنها كيوك ، بعد أن اختار أوكتاي قبيل وفاته ابنه الثالث « كوچو » وليا لعهد له لأنه كان يؤثره بحبه ، لكن كوچو توفي أثناء حياة أبيه ، فاختار أوكتاي حفيده « شيرامون بن كوچو » وليا لعهد ، وكان لا يزال طفلا صغيرا . وجريا على عادة المغول شرعت توراكيينا خاتون أرملة أوكتاي في مباشرة مهام الحكم الى أن عقد القوريلتاي لانتخاب الخاقان الجديد . وكانت هذه السيدة التي امتازت بالحزم والذكاء وقدرات خاصة أهمها قوة الشخصية تحرص حرصا شديدا على أن يتولى

ابنها الأكبر كيوك هذا المنصب ، فعملت على أن يطول أمد وصايتها لكن تمهد السبيل لتحقيق هدفها .

كيوك خان (٦٤٤ - ٦٤٧ هـ) - (١٢٤٦ - ١٢٤٩ م)

تولى كيوك خان العرش المغولي بعد مداولات دامت قرابة أربع سنوات بين أفراد الأسرة الجنكيزية ، حيث بدأت تظهر الأطماع على السلطنة والخلاف بين أفراد العائلة الواحدة . وفي عام ٦٤٤ هجرية (١٢٤٦ م) انعقد القوريلتاي لهذا الغرض على ضفاف إحدى البحيرات غربى منغوليا ، حضره جميع أفراد الأسرة الجنكيزية والشخصيات المغولية البارزة ما عدا « باتو » (٣) ابن جوجى كبير أفراد البيت الجنكيزى الذى اعتذر لمرضه ، وأرسل اخوته بدلاً منه ، كذلك حضره عدد كبير من حكام الأقاليم والملوك التابعين للمغول ، ومندوبون عن الدول الأخرى فى الشرق والغرب ، فكان من بين هؤلاء أمراء الخطا والأمير أرغون حاكم خراسان وفى صحبته أمراء وعظماء الأقليم ، والسلطان ركن الدين قلق أرسلان الرابع سلطان سلاجقة الروم بآسيا الصغرى ، ومندوبون عن كرمان وفارس الموصل ، والمطالبان بعرش مملكة الكرج ، وممثلون عن الملك علاء الدين خورشاه الحاكم الاسماعيلى ، كما أرسل الخليفة الغباسى مندوباً عنه .

واقترح أغلب الحاضرين انتخاب كيوك خان خاقاناً للمغول ، ورغم أنه كان يتعذر عن تلبية رغبة الحاضرين محتجاً بضعفه ومرضه ، إلا أنه فى النهاية قبل أن يتقلد المنصب نزولاً على رغبة الأمراء بشرط أن يكون الحكم وراثياً فى سلالته . فوافق الجميع على ذلك ، وأعلنوا انتخابه رسمياً خاقاناً للمغول . وتذكر المصادر التاريخية (٤) أن الخاقان كيوك خان عامل رسول الخليفة معاملة حسنة ، لكنه سلمه رسالة كلها تهديد ووعيد ، أما ممثلو

(٣) هو الأمير باتو بن جوجى ملك خانات رونسيا ووادى القنچاق ومؤسس دولة القبيلة الذهبية التى اتخذت من مدينة « سراى » عاصمة لها ، وأحد كبار أمراء البيت الجنكيزى فى عهده .
(٤) عطا ملك الجوينى : تاريخ جهان گشاي ، ج ١ ، ص ٢١٣ ، رشيد الدين فضل الله : جامع التواريخ ، ج ٢ ، ص ٢٤٨ ، ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٥٧ .

علاء الدين خورشاه الملك الاسماعيلي فراح كيوك. يصب عليهم جام غضبه
وصرفهم أذلاء مهانين ، ورد على زعيمهم ردا جافا الى أقصى حد .

وكان كيوك خان على خلاف أبيه رجلا مغامرا محاربا ميالا الى الغزو
والفتح ، فكان في تلك الناحية أقرب الشبه الى جده چنكيز خان ، وصرف
وقته في تعبئة الجيوش لفتح الصين الجنوبية وعهد بذلك الى القائد المغولي
الشهير « سوبوتاي » ، وأوفد « ايلچكتاي » الى ايران لفتح بقية الممالك
الاسلامية ، وجعل له السلطة العليا في الاشراف على شئون بلاد الروم والكرج
والموصل وديار بكر ، ونصب محمود يلواج حاكما على ممالك الخطا ، وولى
ابنه الأمير مسعود بك حاكما على ما وراء النهر وتركستان ، وعين الأمير أرغون
واليا على بلاد خراسان والعراق العجمي وأذربيجان وشيروان والالور وكرمان
وغارس وأطراف الهند ، وقلد السلطان ركن الدين قلج أرسلان السلجوقي
حكم بلاد الروم لأنه قدم الى منغوليا بمناسبة تنصيبه إمبراطورا للمغول .

وكان الأمير أرغون حاكم ايران على صلة قديمة بها ، فقد عينته
« توراكينا خاتون » الوصية على العرش حاكما على ايران سنة ٦٤١ هجرية ،
وحضر الى خراسان في نفس السنة ومنها قصد الى العراق العجمي وأذربيجان ،
وصار يعمل على تخليص البلاد من ظلم واستبداد الحكام المغول الذين سبقوه ،
كما سلك مع الرعية سلوكا حسنا (٥) ، ومن أعمال أرغون اختياره بهاء الدين
الجويني والد المؤرخ عطا ملك نائبا عنه في حكم أذربيجان وجورجيا وبلاد
الروم (آسيا الصغرى السلجوقية) . ولم يعمر كيوك كثيرا حيث توفي
سنة ٦٤٧ هـ (١٢٤٩ م) .

منكوقا آن (٦٤٨ - ٦٥٥ هـ) - (١٢٥٠ - ١٢٥٧ م)

توفي كيوك خان عام ٦٤٧ هجرية ، فقامت أرملته « أقول قيمش خاتون »
بمباشرة مهام الحكم الى حين انتخاب خاقان جديد طبقا لرسوم المغول
وعاداتهم . وكانت الوصية على العرش المغولي تری تولية ابن أخي
كيوك خان ، غير أن أغلب الأمراء لم يوافقوها على اختيارها لصغر سن الأمير

(٥) حبيب الله شاملوئي : تاريخ ايران ، ص ٤٩٢ - ٤٩٣ .

المرشح للعرش الذهبي وقله خبرته ، وكانوا يرون أن الأمير منكو بن تولوى أحق أمراء المغول بهذا المنصب حيث تجتمع فيه صفات القائد المحنك والادارى الحازم . وكان على رأس المؤيدين ، بل وزعيمهم الأمير باتو بن جوجى الذى كان يعد أعظم شخصية مغولية فى وقته ، كما كانت له الكلمة الأولى فى اختيار الخاقان الجديد .

وكان الخلاف على تنصيب الخاقان الجديد فى هذه المرة شديدا ، ذلك أنه على أثر وفاة كيوك خان أراد أبناء أوكتاي وأتباعه أن يقيموا الأمير « شيرامون » خاقانا للمغول ، ولكن كان لا بد من الحصول على موافقة الأمير باتو باعتباره أكبر الأمراء سنا ومقاما ، فأرسلوا اليه يطلبون حضوره الى منغوليا لعقد القوريلتاي وتنصيب الخاقان الجديد ، فرد عليهم معتذرا بعدم قدرته على السفر الى منغوليا بسبب مرضه ، وفى نفس الوقت وجه الدعوة الى كبار الأمراء والقادة العسكريين للحضور الى القبچاق حيث يقيم ، والاشتراك فى القوريلتاي لانتخاب الخاقان . ولكن أبناء أوكتاي وچغتاي عارضوا هذا الاقتراح وأصرروا على عقده فى المقر الأصلي لچنكيز خان جريا على العادة المتبعة . وعلى هذا النحو امتنعوا عن الذهاب الى القبچاق ، واكتفوا بأن أنابوا عنهم بعض النحوبين . أما منكو وأخوته فقد لبوا الدعوة وأسرعوا الى مدينة « سراى » عاصمة باتو حيث عقد القوريلتاي ، ونودى بمنكو خاقانا ، وتلقب بلقب « منكوقا آن » . وبهذا انتقل الحكم الى أولاد تولوى الذين يمثلون الفرع الثانى من أسرة چنكيز خان .

وحدث خلاف شديد بين جماعة باتو ومنكو وبين المعارضين لهما والممثلين فى بعض أبناء أوكتاي وچغتاي من جهة أخرى حيث تمسكوا بأن يظل الحكم فى أسرة أوكتاي وكيوك ، واستمر النزاع سائدا بين الطرفين مدة عامين ، وأخيرا حسم باتو الموقف واقترح عقد القوريلتاي فى شهر ذى الحجة عام ٦٤٨ هجرية (ابريل ١٢٥٠ م) فى منطقة قراقورم ، وفيه أعلن انتخاب منكوقا آن رسميا . وقد استطاع الخاقان الجديد أن يضرب على أيدي المناوئين له من أمراء المغول ، خاصة أسرة أوكتاي حيث أمر الخاقان الجديد منكوقا آن بوضعهم فى أكياس مغلقة ورميهم تحت حوافر الخيول فهشمت عظامهم ، وأمر باعدام أتباعهم رميا بالحجارة .

واذ تولى منكوقا آن العرش المغولي ، أحيا سياسة المغول التوسعية ، وأمر كبار الأمراء بالعودة الى مراكزهم وحكوماتهم وأجرى تعديلا بين المناصب الكبيرة لتنفيذ سياسته ، فأعطى الأقاليم الشرقية من الامبراطورية المغولية الى ثاني اخوته « قوبيلاي » وفوضه في حكم الصين وما يقدر على فتحه من بلاد ، ونهض قوبيلاي لفتح الصين بكل ما توافر له من نشاط وما اتخذ من أساليب سياسية وطرق حربية . وتحول قوبيلاي الى البوذية وتشرب الحضارة الصينية ، واتسمت حروبه ومعاملته للمغوليين على أمرهم بالانسانية والرفق . وبقي في منغوليا منكوقا آن وشقيقه الأصغر أريق بوقا للإشراف على ضبط الامبراطورية المغولية المترامية الأطراف . أما ورثة چغتاي في تركستان ، فانهم شرعوا في القيام بمحاولات تمهيدية لمد سلطانهم الى الهند عبر هضبة البامير . ونقل باتو مقر سلطته الى الروافد السفلى لنهر الفلجا حتى يتسنى له السيطرة على أتباعه الأمراء في روسيا . وأنشأ بتلك البلاد الخانية التي أطلق عليها المؤلفون المسلمون اسم دولة دشت القبچاق والتي اشتهرت عند المغول والروس باسم دولة القبيلة الذهبية (Golden Horde) ، أما حكومة فارس فانقلت الى يد هولاکو ثالث اخوة منكوقا آن فأضحت جهود المغول الرئيسية موجهة الى طرفين اثنين ، طرف فارس في الغرب وطرف الصين في الشرق (٦) .

وفي السنة الثانية من حكم منكوقا آن توجه الى الغزو والفتح بعد أن استقرت الأحوال الداخلية ، وصمم على فتح البلاد التي لم يتيسر فتحها من قبل ، ودفعه هذا التصميم الى تجهيز حملتين كبيرتين ، الأولى نصب عليها أخيه الأصغر هولاکو وعهد اليه بالقضاء على طائفة الاسماعيلية واخضاع الخليفة العباسي ، والثانية نصب عليها أخاه الأوسط قوبيلاي على رأس حملة لفتح جنوب الصين . ويعني هنا فقط ذكر حملة هولاکو على ايران .

ولم تقف استعدادات منكوقا آن على النواحي العسكرية فقط بل تعدى ذلك الى تحول في سياسته الخارجية أيضا ، فاتصل منكوقا بالعالم المسيحي واتخذ سنداً له وقصده وفد الامبراطور لويس التاسع الذي أرسله أثناء إقامته في عكا . وكان الوفد برئاسة الراهب الفرنسيسكاني روبروك . ومما يذكره الأخير أن منكوقا آن كان يرغب في إيجاد سبب مشترك مع

(٦) Grousset; L'Empire des Steppes, P. 312 - 313, 364-366.

امبراطور فرنسا المهاجمة الشرق . ودازت محاورات لطيفة وطريفة بين روبروك والخابان المغولي تنبأ فيها الأول بأن منكو سوف يحكم العالم ويسبغ عليه العنذل والسلام . وعلى كل فان المفاوضات التي تمت بين لويس التاسع ومنكو قا آن لم ترتفع الى مستوى الاتفاق نظرا لخطرسة المغول وعدم قبولهم التحالف مع أى جهة تعتبر نفسها على قدم المساواة فى السيادة والسلطة مع الخاقان المغولى ، ذلك أن منكو قا آن طلب من لويس التاسع أن يكون تابعا له .

أما التحالف الحقيقى والواقعى الذى تمكن منكو قا آن من تحقيقه فكان مع هيتوم (حاتم) ملك دولة أرمينيا الصغرى بعد أن أصبح الأخير تابعا للمغول ، وذلك من أجل بسط النفوذ المغولى فى جهات الشرق حسب الاتفاق المعقود بين الجانبين فى شهر يوليو سنة ١٢٥٤م ، والذى تضمن :

- ١ - تبعية هيتوم لامبراطور المغول .
 - ٢ - التعاون مع كافة الدول المسيحية لاسترجاع بيت المقدس .
 - ٣ - يعين ملك أرمينيا مستشارا للخاقان فى شئون الشرق .
 - ٤ - إعفاء الكنائس فى الامبراطورية المغولية من الضرائب كافة أنواعها .
- ان الاتفاق الذى وقعه هيتوم ملك دولة أرمينية الصغرى المسيحية يظهر هيتوم وكأنه يتكلم باسم كافة ملوك أوروبا المسيحيين ، بل وعن كافة أوروبا اللاتينية والدولة الصليبية .

حملة هولاكو على ايران :

حرص منكو قا آن على اعداد حملة أخيه هولاكو اعدادا دقيقا ، وبأشر ذلك بنفسه ، فأمدّه بكثير من القوات التى مارست الطعن والنزال واقتحمت ميادين القتال . ولم يكتف بذلك ، بل أرسل رسله الى بلاد الخطا لاستدعاء ألفب أسرة من الذين مهروا فى استخدام أدوات الحرب مثل المنجنيق وقاذفات النفط ورمى السهام ، كما قام باختيار اثنين من كل عشرة رجال من خيرة جنود جنكيز خان ليكون حرسا خاصا لهولاكو ، وأوصل تعداد الجيش المغولى الزاحف نحو الغرب الى ١٢٠.٠٠٠ جندي من خيرة محاربى المغول . وما أن سار هولاكو بجيشه نحو ايران حتى انضم اليه الأمير أرغون الحاكم المغولى على ايزان الذى وضع نفسه وقواته تحت امرة هولاكو ، فأبقاه فى منصبه .

وقبل أن يتحرك الجيش المغولي من العاصمة المغولية « قراقورم » أرسل منكو الرسل والمرشدين لاختبار الطريق الذي سيسلكه الجيش ابتداء من قراقورم حتى شاطئ نهر جيحون ، ووضعوا أيديهم على جميع المزارع والمراعى التى تمتد على طول الطريق ، وأقاموا الجسور على الأنهار العميقة ، وعلى مجارى المياه السريعة . ويذكر رشيد الدين فضل الله مؤرخ المغول الخطة التى رسمها منكوقا آن لأخيه هولأكو فى نصيحة أشبه بوصية ، فقال له : « انك الآن على رأس جيش كبير ، وقوات لا حصر لها ، فينبغى أن تسير من توران الى ايران ، وحافظ على تقاليد چنكيز خان وقوانينه فى الكليات والجزئيات ، وخص كل من يطيع أوامرك ويجتنب نواهيك فى الرقعة الممتدة من جيحون حتى أقاصى بلاد مصر - بلطفك وبأنواع عطفك وانعامك - ، أما من يعصيك فاغرقه فى الذلة والمهانة مع نسائه وأبنائه وأقاربه ، وكل ما يتعلق به . وابدأ باقليم قهستان فى خراسان ، فخرّب القلاع والحصون . وإذا فرغت من هذه المهمة ، فعليك أن تتوجه الى العراق ، وأزل من طريقك اللور والأكراد ، الذين يقطعون الطرق على سالكيها . وإذا بادر خليفة بغداد بتقديم فروض الطاعة فلا تتعرض له مطلقا . أما إذا تكبر وعصى ، فألحقه بالآخرين من الهالكين . كذلك ينبغى أن تجعل رائدك فى جميع الأمور العقل الحكيم والرأى الشديد ، وأن تكون فى جميع الأحوال يقظا عاقلا ، وأن تخفف على الرعية التكاليف والمؤن ، وأن ترفه عنهم . وأما الولايات الخربة فعليك أن تعيد تعميرها فى الحال . وثق أنك بقوة الله العظيم سوف تفتح ممالك الأعداء ، حتى يصير لك فيها مصايف ومشات عديدة . وشارور دوقوز خاتون (٧) فى جميع القضايا والشئون » (٨) .

... وخرج هولأكو على رأس جيشه من عاصمة المغول قراقورم سنة ٦٥١ هجرية (١٢٥٣ م) وأسرع أمراء الأطراف الى تقديم كافة التسهيلات لتموين

(٧) كانت زوجة تولوى المفضلة ، ثم آلت من بعده الى ابنه هولأكو ، فتزوج منها جريا على عادة المغول الذين كانوا يتزوجون نساء آبائهم . وكانت امرأة حازمة ذات شخصية قوية وتدين بالمسيحية . وكان هولأكو يعزها ويحترمها ويستشيرها فى مهام الامور .
 (٨) رشيد الدين فضل الله : جامع التواريخ ، نشر كاترمير (الترجمة العربية) ص ٢٣٤ وما بعدها .

الجيش ، كما أنهم أخذوا على عاتقهم تنظيف الطرق من الحجارة والأشواك .
وعلى هذا النحو صار هولاءكو وجنوده يقطعون المراحل والمنازل حتى وصلوا
الى سمرقند في شعبان سنة ٦٥٣ هجرية (فبراير ١٢٥٥ م) .

وسلك هولاءكو بعد ذلك طريق مراعى « كان كل » ، وكان مسعود بك
حاكم ما وراء النهر وتركستان قد أقام له هناك خيمة مطرزة بالذهب ،
غامضى فيها هولاءكو ما يقرب من أربعين يوما ، ثم رحل منها الى مدينة
كش جنوب غربى سمرقند ، فمكث فيها مدة شهر كان خلاله موضع تكريم
الوجوه والأعيان فى إقليم خراسان الذين أسرعوا اليه حاملين هداياهم ،
ومقدمين له فروض الطاعة والخضوع . وكان على رأسهم الأمير أرغون حاكم
ايران من قبل المغول .

ووجه هولاءكو خان عدة رسائل الى الملوك والأمراء فى ايران ، قال فيها :
نقد أتينا هنا بناء على أمر الخان الأعظم ، وعزمنا على تحطيم قلاع
الاسماعيلية ، والقضاء على تلك الطائفة . فاذا ساهمتم معنا فى تلك الحملة
بالجيش والعدد والآلات ، فسوف تبقى لكم ولاياتكم وجيوشكم ومساكنكم ،
وستحمد لكم مواقفكم . أما اذا تهاونتم فى امتثال الأوامر وأهملتم ، فأنبا
حين نفرغ بقوة الله تعالى من أمر الملاحدة ، فسوف لا نقبل عذرکم ، ونتوجه
اليكم فيجرى على ولاياتكم ومساكنكم ما يكون قد جرى عليهم » (٩) .

وعندما وصل هولاءكو خان الى الأراضى الايرانية كانت قد سبقته
أخبار قوته وما يقصده ، فتلقى الترحيب من أتباع جدد ابتداء من شمس الدين
كرت ملك هرات ، والأتابك سعد بن زنكى أتابك فارس وكيكاووس الثانى
وقلج أرسلان الرابع سلطانى سلاجقة الروم والقائمين بالحكم فى آسيا
الصغرى (١٠) .

وفى الوقت ذاته كانت جماعة الاسماعيلية تستوطن الجبال فى ولاية

(٩) رشيد الدين فضل الله : جامع التواريخ (الترجمة العربية) ،
ص ٣٤٠ .

Grosset, L'Empire des Steppes, P. 247.

(١٠)

طالقان ورودبار والموت ، والأخيرة كما ذكرها القزويني « قلعة حصينة تبعد عن قزوین مسافة ستة فراسخ ، وتقع على قلة جبل ، وحولها وهاد لا يمكن نصب المنجنیق عليها ، ولا يبلغها النشاب . وكانت المركز الرئيسي لتجمع الاسماعيلية وكرسی ملكها » (١١) ، وهي بلغة الديلم « عش النسر أو ملجأ العقبان » وكانت هذه القلعة الحصينة ذات الموقع الخطير أحد حصون السلاجقة . وكانت لهم قلاع أخرى محكمة تصل إلى الخمسين في قومس وقهستان بخراسان يحكمها حاكم يقال له « محتشم » .

وأمر هولاكو خان القائد المغولي « كتبغا نويان » بالتقدم في طليعة الجيش المغولي إلى قهستان ، وهي المناطق الجبلية الوعرة الواقعة بين هرات ونيسابور ، فاستطاع أن يستولي على كثير من القلاع الموجودة هناك . غير أنه عندما تقدم إلى قلعة « كرد كوه » وجدها حصينة محكمة ، فأمر جنوده بحفر خندق عميق حولها .

وفي غرة ذي الحجة سنة ٦٥٣ هجرية (٢ يناير ١٢٥٦ م) عبو هولاكو بجيشه نهر جيحون وتقدم بجحافل نحو القلاع المنيعه ، وأخذ هو وقواده يعملون على تخريبها وتحطيمها لكنه أدرك منذ اللحظة الأولى أنه إذا اعتمد على القوة في الاستيلاء على تلك القلاع ، فإن ذلك سيكلفه مزيداً من التضحية فضلاً عن طول الوقت نظراً لمتانة تلك القلاع ولاستماتة المدافعين في الدفاع عنها ، فلجأ هولاكو خان إلى سياسة الترغيب والترهيب ، والوعد والوعيد . ونجحت سياسته بالفعل ، فعندما أرسل هولاكو خان الملك شمس الدين كرت ملك هرات ، والذي كان مرافقاً له في فتوحاته ، برسالة إلى ناصر الدين محتشم قهستان الاسماعيلي في قلعة « سرتخت » يدعوه إلى الدخول في طاعته ، امتثل لهذا الأمر ، وقصد هولاكو خان في صحبة شمس الدين كرت ، وقدم له هولاكو جملة من الهدايا والتحف وقبل الأرض بين يديه ، فقبل هولاكو الهدايا وعامله بلطف ورقه ونصبه حاكماً على مدينة « تون » واستمر في منصبه الجديد إلى أن توفي في شهر صفر سنة ٦٥٥ هجرية (يناير ١٢٥٧ م) .

ثم أرسل هولاكو خان رساله إلى ركن الدين خورشاه ملك الاسماعيلية

(١١) زكريا بن محمد القزويني : آثار البلاد وأخبار العباد ، ص ٢٠٠ .

وزعيم الطائفة ، يطلب إليه الخضوع والتسليم . وفي الوقت نفسه لم ينتظر الرد من ملك الاسماعيلية ، وشرع جنوده يفتحون القلاع الواحدة بعد الأخرى حتى تمت لهم الغلبة على أكثرها ، ولم تستعص عليهم أول الأمر الا قلعتا « ميمون دز » و « الموت » . وأخيرا أرسل هولاکو خان رسله مرة أخرى الى قلعة ميمون دز حيث كان يقيم ركن الدين خورشاه لتهديده وتخفويه حتى يسارع الى التسليم : وكان يقيم في قلعة « ميمون دز » في تلك الاثناء خواجه نصير الدين الطوسي وموفق الدولة جد المؤرخ الايراني الشهير رشيد الدين فضل الله اقامة جبرية ، وكانا قد سئما الاقامة عند الاسماعيلية ومالا الى هولاکو خان ، وودا لو وجدا على يديه الخلاص من سجنهما ، وصار خواجه نصير الدين الطوسي يزين لركن الدين خورشاه النزول على حكم هولاکو وعدم مقاومته لأن في هذا نجاة له ولأسرته .

وبرغم الحصار المضروب على القلعة من جميع الجهات وقوة المغنول الجبارة لكن هولاکو خان تعذر عليه اقتحام القلعة ، وأرسل رسله الى ركن الدين خورشاه يهدده فيها بالتسليم ويوعده بالنظر في أمره ان فعل ذلك وقام بتسليم القلعة . وكانت تلك الرسالة ذات أثر بالغ على خورشاه ونفسيته ، فاستشار أركان دولته ، واستقر الرأي على أن يرسل الى هولاکو خان للخواجه نصير الدين الطوسي مع طائفة من الوزراء والأعيان والأئمة محملين بالتحف والطرائف الكثيرة ، فوصلوا الى معسكر هولاکو في يوم الجمعة ٢٧ شوال سنة ٦٥٤ هجرية .

وأخيرا وجد ركن الدين خورشاه أن الأمر قيد خرج من يده ، ولم تعد له طاقة على المقاومة ، كذلك تطرق اليأس الى نفوس رجاله المحاصرين وفقدوا كل أمل في الصمود ، فنزل خورشاه الملك الاسماعيلي من قلعة ميمون دز ، وسلم نفسه لهولاکو مظهرا الخضوع والطاعة . وكان ذلك في صباح يوم الأحد غرة ذي القعدة سنة ٦٥٤ هجرية . وبذلك دالت دولة الاسماعيلية بعد أن استمرت ١٧١ سنة تثير الرعب والفرع في بلاد العالم الاسلامي كافة . ونظم خواجه نصير الدين الطوسي بيتين من الشعر في تاريخ تلك الواقعة ، هما :

سال عرب چو ششصد و پنجاه و چهار شد
يك شنبه اول مه ذى القعدة بامداد
خورشاه پادشاه سماعيليان زتخت
بر خاست پيش تخت هولاکو باستاد (١٢)

وهكذا خرج خورشاه من حصنه فى قلعة ميمون دژ ، وقدم خضوعه
لهولاکو الذى استغل خضوع ملك الاسماعيليه أبرع استغلال ، فعامله معاملة
كريمة حتى أطاعه ، وأوحى اليه هولاکو أن يدعوا قلاع الاسماعيليه الى
التسليم للمغول ، وسلمت له نتيجة دعوته تلك أكثر من خمسين قلعة . أما
القلاع التى أبت الاستماع الى نصيحة ملك الاسماعيليه مثل قلعتى «کردكو»
و «الموت» غقد فتحهما المغول عنوة بعد قتال مرير (١٣) .

وبعد فتح قلعة الموت فى شهر ديسمبر ١٢٥٦م ، حطم المغول ما وجدوه
من الأسلحة وأدوات القتال التى كانت لدى الاسماعيليه ، واستولوا على
الكنوز والأموال المخفية التى كانت فى مخازن خاصة ولا يعلم مكانها سوى
قلة من المسئولين الاسماعيليين ، كما وقعت فى أيديهم المكتبة النفيسة التى
كانت تعد أقيم مكتبة فى عصرها ، بل كانت تعد التراث الاسماعيلى الوحيد
المتبقى منهم ، وجمعها الاسماعيليون طوال قرنين من الزمان حتى اقترنت
شهرتهم وبعد صيتهم بمكتبتهم تلك المحتوية على عقائدهم ونظمهم .
واستأذن المؤرخ الايرانى عطا ملك الجوينى هولاکو خان فى الاطلاع على المكتبة
والنفائس الاسماعيليه الأخرى ليبقى منها الصالح ويحرق منها الباقي الذى
يتعلق بعقيدتهم . وبذلك استطاع عطا ملك الجوينى أن يخرج كثيرا من

(١٢) وترجمة البيتين :

عندما صارت السنة الهجرية ستمائة وأربع وخمسين
فجر يوم الجمعة أول شهر ذى القعدة
قام خورشاه ملك الاسماعيليه من على العرش
ليقف تحت عرش هولاکو

(١٣) الذهبى : العبر فى خبر من عبر ، ج ٥ ، ص ٢١٦ .

(م ٨ - تاريخ الدولة المغولية)

المصاحف والكتب النفيسة وآلات الرصد والنجوم ، ومن بين النفائس عثر الجويني على كتاب « سر گذشت سيدنا » الذي يتناول تاريخا لحسن الصباح مؤسس الدولة الاسماعيلية في ايران ، وقد لخص الجويني ذلك الكتاب في الجزء الثالث من كتابه التاريخي « جهای گشای » فحفظ لنا تاريخ تلك الجماعة من الضياع (١٤) .

ولما تأكد هولاکو خان من صدق نيات نصير الدين الطوسي واخلصه شمله بعطفه وألحقه بخدمته ، ثم أمر فأعطيت له الدواب اللازمة لحمل أسرته وأمتعته ، وكل ما يتعلق به إلى معسكره وصيره من أتباعه وملازميه ، وصحبه في حملاته التالية بوصفه منجم البلاط ، ثم عهد إليه في انشاء المرصد الفلكي الكبير في مدينة مراغة بأذربيجان .

مسير ركن الدين خورشاه وشعبه الاسماعيلي :

عامل هولاکو خان ملك الاسماعيلية ركن الدين خورشاه في بداية الأمر معاملة حسنة لدرجة أن خورشاه وثق في هولاکو واعتقد أنه ضمن الأبقاء على حياته . وكان ذلك احدى أساليب هولاکو المغولية التي استدرج بها خورشاه ، فأعطاه أسرار وأسرار دولته وشعبه ، وأرشدته إلى مخابىء كنوز الاسماعيلية وثرواتها ، وغالى هولاکو في معاملة خورشاه ، فمنحه فتاة مغولية تزوج بها ، واختار له مدينة قزوين لتكون مكان اقامته وحفظ أمتعته وأمواله ، ويتخذها سكنا له ولأتباعه . وبذلك ظهر هولاکو أمام أمراء المسلمين أنه يحافظ على عهده باعطائه الأمان لخورشاه على حياته وأمواله .

ثم سمح هولاکو لركن الدين خورشاه ، ملك الاسماعيلية بالذهاب إلى العاصمة قره قورم ليقابل الخاقان منكوقا آن عساه أن ينعم عليه بفرمان يعيد إليه بعض ممتلكاته ، وأن يتشفع لبقية الاسماعيلية . لكن الخاقان المغولي رفض مقابلة ملك الاسماعيلية ، وأشار بامتعاض وازدراء « لماذا تحضرونه وتشقون بذلك عبثا على الدولة التي يركبها ، انه من المؤسف حقا

(١٤) عطا ملك الجويني : تاريخ جهانگشای . ج ٣ ، ص ٢٧٠ .

أن تنهك قوى خيول مغولية على مهمة تافهة كهذه ، (١٥) .

وأمر الخاقان بأرجاعه ، وأرسل من قبله شخصا فتك به أثناء عودته في الطريق ، كما أمر بآبادة كافة الاسماعيلية وتدمير آثارهم في إيران . ونفذ هولاكو أوامر منكو قا آن بكل دقة في شأن الاسماعيلية في إيران ، وحبك خطة محكمة للقضاء عليهم ، اذ تظاهر بالعفو عنهم لكي يخرجهم من مكامنهم بحجة أنه يود عمل احصاء عام للنفوس . وعندما تم اكتشاف هؤلاء ، أمر باعدامهم جميعا ، وتبع ذلك حركة تقتيل في جميع أفراد أسرة ركن الدين خورشاه وأقاربه من الرجال والنساء والأطفال . وكان ذلك في موقع ما بين أبهر وقزوين .

وهكذا حقق الخاقان الأعظم للمغول هدفه الكبير بقضائه على جماعة الاسماعيلية قبل أن يشتبك مع الخليفة العباسي . ولما اطمأن الى نجاح خطته ، أمر أخاه هولاكو بالاستعداد للقضاء على الخلافة العباسية والاستيلاء على بغداد حاضرة العالم الاسلامي .

وبرغم القضاء على طائفة الاسماعيلية على يد المغول وابداء الشعب الاسماعيلي كافة ، الا أنه كان لاندجارهم وابدائهم رنه فرح وسرور عمت العالم الاسلامي ، رغم ما يعانیه من المغول ، وبرغم ما كان يتوقعه على أيديهم من أحداث جسام قد تصل الى ما وصل اليه الشعب الاسماعيلي . وما ذلك الا لأن الاسماعيلية قد بثت الرعب والفرع في النفوس ، وأشاعت المفاسد والمنكرات . وكان يخشى بأسها الملوك والسلطين والخلفاء ، كما كانت عاملا في افساد العالم الاسلامي وتفككه وتحطيم معنوياته والحد من تقدمه ، وقد علق على ذلك المؤرخ الايراني عطا ملك الجويني بقوله : « حقا ، لقد كان هذا العمل مرهما لجراح المسلمين ، وتداركا للدين من الخلل . وأن الناس الذين يبقون من هذا العهد يعرفون الى أي حد بلغت فتنة هذه الطائفة ، والى أي مدى بلغ اضطراب الناس وانزعاجهم ، وان الشخص الذي على وفاق معهم منذ عهد الملوك السابقين حتى عهد ملوك هذا العصر .

(١٥) رشيد الدين فضل الله : جامع التواريخ (الترجمة العربية)

انما كان غقط مدفوعا بدافع الخوف منهم . أما اذا عاداهم فكان عليه أن يعيش ليله ونهاره سجيناً خوفاً من رعايهم . لقد كان كأسا طافحاً وريحاً عاتية . ولكنها أخدمت . ذلك ذكرى للذاكرين ، وكذلك يفعل الله بالظالمين « (۱۶) .

سقوط الخلافة العباسية :

طمع هولاکو ، منذ البداية ، أن ينشئ لنفسه بوصفه تابعاً لأخيه منكوقا آن امبراطورية خاصة في الغرب ، وقد يكون أخوه الخاقان قد أوعز له بذلك ليكون في بيتهم الملك والسلطان . وحقق هولاکو هدفه الأول بالقضاء على طائفة الاسماعيلية وجعلها عبرة لغيرهم ممن يفكرون في المقاومة ، ثم سار لتحقيق هدفه الثاني وهو القضاء على الخلافة العباسية وفتح بغداد . فانتقل الى همدان وعسكر فيها ليكون قريباً من العاصمة العباسية . وكان أول عمل أقدم عليه هولاکو أن أرسل الى المستعصم ، آخر الخلفاء العباسيين ، في شهر رمضان سنة ۶۵۵ هجرية (= مارس سنة ۱۲۵۷ م) رسالة يدعوها فيها الى تجريد حصون بغداد وأسوارها من أدوات الدفاع ، كما دعاه الى الحضور بنفسه شخصياً وتسليم المدينة له ، فان فعل ذلك ضمن حريته وحفظ مركزه ، وان أبى واستكبر أحل بنفسه وبأهله وبلاده الدمار والخراب ، لأن جيوش المغول سوف تسير الى بغداد لا محالة وتستولي عليها وتنتزعها من سلطانه . ولن تدع أحداً على قيد الحياة في كل مملكته ، كما ضمن رسالته لو ما شديداً على عدم امداده بالجند عند محاربته طائفة الاسماعيلية .

وجاء رد الخليفة المستعصم على هولاکو شديداً ، وان حرص أن يصوغه في قالب مرن ، اذ دعاه الى الاقلاع عن غييه والرجوع الى خراسان ، وقال

(۱۶) وهذا هو النص الفارسي من كتاب الجويني (تاريخ جهانگشای ج ۳ ، ص ۲۷۸) :

« راستی آن بود که این کار مرهم جراحتهای مسلمانی بود ، و تدارک خلل های دینی ، جماعتی که بعد از این دور وعهد در رسند بدانند که فتنه ایشان تابعه غایت بود و تشویش در دل عالم تابعه حد کشیده ، کسی را که بایشان دم موافقت بودی از عهد پادشاهان گذشته تا وقت شاهان وقت خوف و بیم بودی ، و از مخاصمت ایشان پیمان نه بود که بسر آمد و بادی می نمود که بسته شد ، ذلك ذكرى للذاكرين ، وكذلك يفعل الله بالظالمين » .

له (١٧) : « أيها الشاب الحدث . . . الذي لم يخبر الايام بعد ، والذي يتمنى قصر العمر ، والذي أغرته اقبال الايام ومساعدة الظروف فتخيل نفسه مسيطرا على العالم ، وحسب أن أمره قضاء مبرم وأمر محكم . لماذا تطلب مني شيئا لن تجده عندي ؟ . . ألا يعلم الامير نه من الشرق الى الغرب ، ومن الملوك الى الشحاذين ، ومن الشيوخ الى الشباب ممن يؤمنون بالله ويعتقون الاديان ، كلهم عبيد هذا البلاط وجنود لي ؟ اننى عندما أشير بجمع الشتات ، سأبدأ بحسم ايران ثم أتوجه منها الى بلاد توران ، وأضع كل شخص في موضعه ، وعندئذ سيصير وجه الأرض مملوءا بالقلق والاضطراب . غير أننى لا أود الحقد والخصام ، ولا أشتري ضرر الناس وايزائهم ، كما أننى لا أبغى من وراء تردد الجيوش ، أن تلهج السنة الرعية بالمح والقدح ، خصوصا وأننى مع الخاقان وهولاكو قلب واحد ولسان واحد . »

فاذا كنت مثلى تزرع بذور المحبة فما شأنك بخنادق رعيتي وحصونهم؟ . . . اسلك طريق الود وعد الى خراسان . وان كنت تريد الحرب والقتال . فلا تتوان لحظة ولا تعتذر ، فان لى ألوفاً مؤلفة من الفرسان والرجالة هم على أهبة الاستعداد للقتال . »

ثم أرسل هولاكو رسالة أخرى الى الخليفة ، ذكر فيها أنه سوف يبقيه فى منصبه بعد اعترافه بالتبعية للدولة المغولية وتقديم الاتاوات السنوية ، فاعتذر الخليفة المستعصم بعدم جواز ذلك شرعا ، الا أنه على استعداد تام لدفع الاموال التى يطلبها هولاكو مقابل عودته من جيث أتى . ومما زاد فى غضب هولاكو أن وثب الناس فى بغداد على أعضاء الوفد المغولى وغتکوا بهم .

وعندما وصل رسل الخليفة الى هولاكو ، واطلع الاخير على رسالة خليفة المسلمين أعاد الرسل الى بغداد ، وحملهم رسالة أخرى تتضمن انذارا نهائيا للخليفة ، صيغ فى لهجة شديدة عنيفة . فما أن عرضت الرسالة على الخليفة ، جمع كبار رجال دولته واستشارهم فيما عساه أن يفعل ، فكان

(١٧) رشيد الدين فضل الله : جامع التواريخ (الترجمة العربية) ،

الوزير الشيعي مؤيد الدين بن العلقمي يرى أن يبذل الخليفة الاموال والتحف والهدايا ويرسلها الى هولاء في معسكره مع تقديم الاعتذار اليه . كذلك رأى أن يذكر اسم هولاء في الخطبة ، وأن ينقش اسمه على السكة على نحو ما كانت تسير عليه الامور أيام البويهيين والسلاجقة . وكان ابن العلقمي يرى أن مثل هذه الاجراءات تثني هولاء عن عزمه على فتح بغداد، ولا يتعرض للخليفة بسوء . وكان المستعصم بعد أن فقد رباطة جأشه ووجد الطريق مسدودا أمامه يميل الى الاخذ بهذا الرأي ، غير أن الوزير مجاهد الدين أيوبك الدويدار الصغير رفض مقترحات الوزير ابن العلقمي ، وأصر على المقاومة ، بل واتهم ابن العلقمي بالخيانة والتواطؤ مع هولاء ، فعزل الخليفة المستعصم بكل بساطة عن رأى ابن العلقمي ووافق على ما ارتآه الدويدار الصغير .

وفي الجانب المقابل استشار هولاء منجمه الخواجه نصير الدين الطوسي في فتح بغداد والقضاء على الدولة العباسية ، فأقره على خطته . وكان نصير الدين الطوسي يكره الخليفة ويعمل على اسقاطه ، بل لعله هو الذي زين لهولاء الاستيلاء على بغداد وتملكها .

حصار بغداد :

شرع هولاء بعد أن يئس من اقناع الخليفة المستعصم بالله العباسي بالتسليم ، في الزحف نحو العراق . فأمر بعض جيوشه بالتحرك من أطراف بلاد الروم عن طريق أربل والموصل ، وأن تتجه نحو بغداد لتحاصرها من الجهة الغربية . وكان هذا الجيش جناحه الايمن . وأمره أن ينتظر حتى تصل جيوش هولاء وتتمركز في الناحية الشرقية ، وكان الجيش المرافق لهولاء يشكل القلب للجيش المغولي والقوة الضاربة . أما الجناح الايسر ، والذي قاده « كيتو بوقا » فقد اتجه صوب بغداد عن طريق لورستان وخوزستان .

وعسكر هولاء بجيشه في الناحية الشرقية من مدينة بغداد . ووافاه المند من بعض أمراء المسلمين الذين أجبرهم هولاء على تقديم المعونات للجيش المغولي ، فأمدته كل من بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل والأتابك

أبى بكر سعد بن زنكى السلغرى حاكم اقليم فارس بالرجال والمال . كما قدم بعض أمراء المغول المقيمين فى آذربيجان بقواتهم عن طريق كردستان ، وبذلك أحكم الجيش المغولى حصار بغداد وسد جميع منافذها .

وكانت المدينة بالبائسة ببغداد تضم أربعة أبواب رئيسية فى ذلك الوقت ، هى باب السلطان (ويسمى حالياً الباب المعظم) ، ثم باب خراسان ، والذي أطلق عليه مؤخراً بالباب الوسطانى ، وباب الحلة وباب كلواذى (وهو الباب الشرقى للمدينة) . واتخذ هولاء معسكره فى الجهة الشرقية الممتدة بين بابى السلطان وكلواذى بعد أن استسلمت له الكرخ واكاظمية .

وحاول الجيش العباسى الذى جهزه الخليفة وأنفق عليه الاموال بقيادة مجاهد الدين أيبك الدويدار الصغير أن يحول دون استقرار المغول فى أماكنهم ، وعدم تمكينهم من اتخاذ مواقع ثابتة ، فكان نصيب ذلك الجيش الهزيمة من أول جولة وقتل عدد كبير من جنوده نتيجة عدم انضباطهم العسكرى وعدم خبرتهم فى القتال حيث كانوا أقرب الى رجال العسس منهم بالمقاتلين ، ولم يجد قائدهم مجاهد الدين أيبك الدويدار الصغير الا الهرب مع من نجى بنفسه ولاذ الى بغداد حيث اختبأ خلف أسوارها .

وكان الجيش المغولى ضخماً يقرب من مائتى ألف مقاتل من الفرسان ، وبين صفوفه وحدات حصار من أمهر المهندسين الصينيين . وكانت خطة هولاء العسكرية حصار بغداد بجيوشه من جميع النواحي وسد جميع المنافذ المؤدية اليها حتى تسقط سهلة فى يده دون جهد كبير لتصوره أن بها جندا جرارا وقوى خفية لم تظهر حتى حصارها ، وفى نفس الوقت كان يخشى أن يتعاطف الامراء المسلمون مع خليفة المسلمين ويمدونه بقوات أو يشتركوا فى القتال . وايضا حاول هولاء وهو يقيم على أسوار المدينة ببغداد استمالة الفرق التركية العاملة بجيش الخلافة ، لكن هؤلاء ظلوا على ولائهم واخلصهم لخليفة المسلمين حتى النهاية ، بل وصمموا على الدفاع عن بغداد حتى آخر قطرة من دمائهم .

وقبل أن يبدأ القتال ، أراد هولاء مراوغة الخليفة لكسب الوقت ،

فأرسل اليه يقول : « اذا كان الخليفة عازما على التسليم ، فليأت بنفسه الي هنا ، واذا كان عازما على محاربتنا فليرسل الوزير سليمان شاه والدويدار الصغير قبل كل شيء ليصغوا الي مطالبنا » (١٨) ، ثم تبع ذلك ارسال هولاءكو ثلاثة من قواده مع غرقهم على عجل وكلفهم بعبور نهر دجلة ومهاجمة بغداد من الغرب وبسرعة خاطفة .

ونجح هولاءكو في مناورته تلك ، ذلك أن قوات الخليفة العباسي عندما علمت بالهجوم المغولي من الناحية الغربية ، تحركت من مواقعها ، وعبرت نهر دجلة لصددهم ، فتركت هولاءكو حرا طليقا وسار حتى وصل شاطئ نهر حلوان . وبعد أن عسكر جيش هولاءكو في خانقين بضعة يام واصل سيره حتى أقام معسكره شرقي بغداد في ١٨ يناير ١٢٥٨م .

وفي ٣٠ يناير من نفس السنة (١٢٥٨ م) ، اشتد القصف المغولي وصارت منجنيقاتهم تقذف بصخور جىء بها من جبل حميرين القريب من بغداد ، وتمكنت بعض الوحدات المغولية في اليوم الخامس من شهر فبراير من نفس السنة من اعتلاء الاسوار في جهة برج الفرس . وفي صباح اليوم السادس من فبراير (أى اليوم التالى) سيطرت القوات المغولية على السور الممتد من باب الحلبة الى ما وراء البرج الفارسي ، فأصبحت المدينة تحت رحمتهم (١٩) .

سفارة ابن العلقمي الوزير الى هولاءكو :

أحس الخليفة المستعصم العباسي بالخطر الفادح وأن الأمر قد فلت من أيدي المسلمين وأن ملكه مهدد وشعب المدينة قد أصبحوا تحت رحمة المغول وسيواجهون المصير الذي واجهته مدن ما وراء النهر وخوارزم وخراسان من دمار ، فبدأ يفكر في طريقة مثلى يمكنه بها انقاذ الخلافة الاسلامية من السقوط في أيدي المغول . وهذاه تفكيره أن يعمل لاستمالة

Quatremere; Histoire des Mongols, P. 279. (١٨)

Glubb J., The Lost Centuries 1145 - 1453, London, . (١٩)

P. 252.

هولاكو وارضائه ، فأرسل وزيره مؤيد الدين بن العلقمى فى أول الامر وأمره أن يقول لهولاكو : « لقد طلب منى الأمير المغولى أن أرسل وزيرى ، وهأنذا اليوم قد اقتنعت بما طلب ، راجيسا أن يحفظ الأمير كلمته ، (٢٠) ، ٠ وكان الخليفة يهدف من وراء ذلك اقناع هولاكو بالرجوع من حيث أتى بعد أن نفذ له ما طلبه منه . »

وقام ابن العلقمى بتنفيذ المهمة التى كلف بها وصاحبه فيها بطريق النساطرة فى بغداد الذى أرسله الخليفة مع الوزير عندما علم بأن هولاكو متزوج من مسيحية ، لكن هولاكو رد على الخليفة بقوله : « عندما قطعت على نفسى هذا الوعد كنت لا أزال تحت أسوار همدان ، أما الآن وأنا أعسكر أمام بغداد ، وقد هاج وماج بحر المشكلات والعداوة ، كيف أكتفى باستقبال أحد كبار رجال الدولة ، يجب أن يرسل الخليفة رؤساء حكومته الثلاثة : الوزير (أى ابن العلقمى) والدويدار الصغير وسليمان شاه . »

وفى اليوم التالى أرسل الخليفة الوزير ابن العلقمى دون أن يرافقه الدويدار الصغير وسليمان شاه كطلب هولاكو ، ورافقه تسعة من حاشية الخليفة وخاصته وعددا آخر من كبار رجالات الدولة العباسية ، لكن الوزير ابن العلقمى لم يستطع أن يحقق هدفه ، وردهم هولاكو دون أن يعيرهم أدنى التفات ، (٢١) ، ٠

وفى اليوم الثالث أرسل الخليفة ابنه الأكبر أبا بكر وبصحبته الوزير وعددا من رجال الحاشية ، وأيضا لم يستمع اليهم هولاكو وردهم جميعا يجرون أذيال الخيبة والفشل . وكان هولاكو يصر فى كل مرة على إرسال الدويدار الصغير وسليمان شاه . ولما تأكد الخليفة المستعصم من أن هولاكو لا يزال مصمما على اتباع طريق العنف معه ، بادر الى اجابة مطالبه حتى يسلم من أذاه ، وأرسل فى اليوم الرابع كلا من الدويدار الصغير وسليمان شاه . فكان ذلك إيذانا من الخليفة العباسى بأنه فى سبيله الى التسليم . وقبض هولاكو على مبعوثى الخليفة ، الدويدار الصغير وسليمان شاه ،

ومرافقيهما ، وأمر بقتل كليهما فنفذ ذلك أمامه ، ثم أمر بتوزيع المرافقين على الجنود المغولية فذبحوهم عن آخرهم .

ولما تسامح أهل بغداد بما حدث طارت نفوسهم شعاعا ، واصيدوا بذعر شديد واضطراب كامل وشال في التصرف والتفكير ، وأخذ كل واحد منهم يدبر أمره بنفسه ، فأخذ فريق منهم يختبئ في المغارات وفي أفـران الحمامات ، وخرج بعض كبرائهم من المدينة ليعرضوا تسليمها إلى هولاكو ويرحبوا به قائلين بأن الخليفة إنما أراد بإرسال أولاده أولا أن يحضر بنفسه بعد ذلك . ولكن هولاكو لم يستمع لهم ولم يجبههم إلى مطالبهم . أما الخليفة فقد تسرب الخوف إلى قلبه ، وتحقق من المصير الرهيب الذي ينتظر بغداد وأهلها . ومما زاد وضعه سوءا أن الوزير ابن العلقمي أخذ في تثبيط همته وإدخال الخوف إلى قلبه والخليفة يستمع إليه ويزداد رعبا وهلعا .

موقف الوزير ابن العلقمي :

أجمعت المصادر الإسلامية أن الوزير مؤيد الدين بن العلقمي كان شيعيا . وأنه كاتب المغول يحثهم على فتح بغداد والقضاء على الخلافة العباسية . وفي ذلك يقول الحافظ الذهبي (٢٢) :

« كان الوزير المؤيد بن العلقمي قد كاتب التتار وحرصهم على قصد بغداد لأجل ما جرى على أخوانه الرافضة من النهب والخزى . وظن المخدول أن الأمر تم ، وأنه يقيم خليفة عاويا . فأرسل أخاه ومملوكه إلى هولاكو (يقصد هولاكو) وسهل عليه فتح بغداد ، وطلب أن يكون نائبا لهم عليها ، فوعده بالأمان ، ثم إن ابن العلقمي عندما ذهب إلى هولاكو وتمكن له عاد فأخبر المستعصم بأن الملك (يقصد هولاكو) قد رغب في أن يزوج بفتاه بابنك الأمير أبي بكر ، وأن تكون الطاعة له كما كان أجدادك مع السلجوقية ، ثم يرحل . فخرج إليه المستعصم في أعيان الدولة . ثم استدعى الوزير العلماء والرؤساء ليحضروا العقد بزعمه فخرجوا ، فضربت رقاب الجميع .

وصار كذلك تخرج طائفة بعد طائفة فتضرب أعناقهم حتى بقيت الرعية
بسلام ، .

واضطر الخليفة العباسي الى الخروج من بغداد وتسليم نفسه
وعاصمته للمغول دون قيد أو شرط ، وذلك في يوم الاحد الموافق الرابع
من شهر صفر سنة ٦٥٦ هجرية (١٠ فبراير ١٢٥٨ م) ومعه أهله وولده
بعد أن وعده هولاءكو خان بالأمان . وكان برزقته ثلاثة آلاف شخص من
السادة والأئمة والقضاة وكبار رجال الدولة وأعيان المدينة . فما أن وصلوا
الى معسكر هولاءكو حتى أمر بوضعهم في مكان خاص ، وأمر بتقسيم مرافقي
الخليفة الى جماعات . وفي البداية أخذ هولاءكو يلاطف الخليفة المستعصم بالله
ويطيب خاطره ، ثم طلب اليه أن ينادي في الناس بالقاء أسلحتهم والخروج
من المدينة لاحتوائهم ، فلما ألقى الناس أسلحتهم وخرجوا طبقا لتعليمات
هولاءكو قتلهم المغول جميعهم ، أما الخليفة وأولاده وكل ما يتعلق به
فوضعهم هولاءكو بالقرب منه في مكان بجوار باب كلواذى ، وفرض عليهم
حراسة مشددة ، وهنا أحس الخليفة أنه هالك لا محالة .

ثم أمر هولاءكو بردم الخنادق وإزالة أسوار المدينة ، وإقامة جسر على
نهر دجلة ، ولما تم له ذلك أمر القوات المغولية العسكرية في الناحية
الشرقية للمدينة بدخولها من جهتهم ، وأمر أيضا قواته العسكرية على
الشاطئ الغربي بعبور الجسر ودخول المدينة من الغرب ، فدخلها أولئك
وهؤلاء كالجراد وأتوا على أهلها جميعهم ولم يسلم الا من اختفى في بئر أو
قناة . أما المدينة كثرات حضارى فقد قام المغول بتخريب المساجد بقصد
الحصول على قبابها الذهبية وهدموا القصور بعد أن سلبوا ما بها من تحف
نادرة ومنقولات قيمة ، واستمر الجنود المغولية في غارتهم الوحشية تلك
أربعين يوما ، وكلما يمشطون منطقة يشعلون فيها النيران من كل جانب ،
فكانت تلتهم كل ما يصادفها ، فأنت على الأخضر واليابس ، وخربت أكثر
الأبنية وجامع الخليفة ومشهد الامام موسى الكاظم وقبور الخلفاء في
الرصافة (٢٣) .

(٢٣) لاسترنج ، بغداد في عهد الخلافة العباسية ، ترجمة بشير
فرنسيس ، ص ٢٩٢ - ٢٩٣ .

وبالغ المؤرخون مبالغة شديدة في عدد من أزهقهم المغول أو أبادوهم بطريقة أو بأخرى حين دخلوا بغداد ، فقدّر بعضهم القتلى بمليون وثمانمائة ألف نسمة ، وقدرهم آخرون بمليون نسمة ، وقدرهم غريق ثالث بثمانمائة ألف نسمة ، وهناك من قدرهم بألفي ألف نسمة . يقول الحافظ الذهبي وهو ممن كتبوا عن المغول عن ذلك « ويقال ان هولاءو أمر بعد القتلى غلبوا ألف ألف وثمان مائة ألف وكسر ، فعند ذلك نودي بالأمان » (٢٤) وعلى كل فقد أزال هولاءو معالم بغداد ومبانيها التي كانت آية من آيات الفن الاسلامي ، كما ضاعت الثروة الادبية والفنية الاسلامية التي اشتهرت بها بغداد دون غيرها من البلدان الاسلامية وأصبحت أثرا بعد عين ، ولم يبق منها سوى حطام المدينة ليس أكثر .

وفي اليوم التاسع من شهر صفر سنة ٦٥٦ هجرية (١٥ فبراير ١٢٥٨م) دخل هولاءو مع حاشيته من أمراء المغول وقادتهم مدينة بغداد ، وقصد قصر الخليفة المستعصم الذي كان يرافقهم ، وكانت الجنود المغولية لم تمس قصر الخليفة بسوء . وأمر هولاءو باحضار الخليفة والمثول بين يديه ، وقال له : « أنت الضيف ونحن الضيوف ، فيجب عليك أن تقوم بواجب الضيافة » . وكان الخليفة المستعصم في حالة نفسية سيئة بعد أن شاهد بعينه ما حدث الملك وشعبه والدين الاسلامي من نكبات على يد المغول ، وكان ينتظر للقتل كل لحظة تمر عليه ، فصدق قول هولاءو واستولت عليه الدهشة واعتراه الذهول ، لدرجة أنه لم يعد يعرف أين وضع مفاتيح خزانة ، فأمر بكسر الأقفال وأخرج ألفين من الثياب وعشرة آلاف دينار وجواهر عديدة قدمها هدية لهولاءو ، فأخذها منه بازدراء وعدم مبالاة ، وقدمها الى أمرائه ، وقال للخليفة : « ان الكنوز التي تملكها والتي توجد فوق سطح الأرض من السهل معرفتها ، وهي تحت تصرفي وتصرف أتباعي ، انما ما أريده هو أن تظهر لنا ثروتك المدفونة ، وتبين لنا موضعها » . ولما أخبره الخليفة العباسي أن في وسط القصر جرة مملوءة بالذهب ، أمر هولاءو بالحفر في الموضع الذي عينه ، فوجدوا الجرة مملوءة بالذهب الابريز ، وبها عدد من

(٢٤) الحافظ الذهبي : العبر في خبر من غير ، ج ٥ ، ص ٢٢٦ .

القطع الذهبية تزن الواحدة منها مائة مثقال : ثم أن هولاءكو أمر بأن يحصوا حرم الخليفة وحاشيته ، فوجدهم سبعمائة من النساء والسريا وثلاثمائة خادم خصى . ولم يدع هولاءكو للخليفة الا مائة فقط من النسوة ممن أقاربه والمحبات اليه من الجوارى ، ثم باشر هولاءكو بنفسه ما جمع من قصر الخليفة من ثروة اقتناها الخلفاء العباسيون في مدة خلافتهم الطويلة ووضعت حول خيمة هولاءكو فصارت كجبل قائم . وفي ذلك يقول ابن العبري : « أمر هولاءكو الخليفة أن يفرز جميع النساء اللاتي باشرهن هو وبغوه ويعزلهن عن غيرهن ، ففعل فكن سبعمائة امرأة فأخرجهن ومعهن ثلاثمائة خادم خصى ٠٠٠٠ » (٢٥) .

٢٥- روع الخليفة المستعصم بالله العباسي :

وفي الرابع عشر من شهر صفر سنة ٦٥٦ هجرية (٢٠ فبراير ١٢٥٨م) أمر هولاءكو بقتل الخليفة المستعصم بالله الذي يعد آخر الخلفاء العباسيين في بغداد ومعه ولده الأكبر وخمسة من رجاله المخلصين الذين آثروا البقاء معه ولم يتركوه عندما نزلت به كل تلك المصائب والنكبات . يقول ابن العبري ما يفيد ذلك بطريقة أخرى « ٠٠٠٠ » وفي رابع عشر صفر رحل هولاءكو من بغداد ، وفي أول مرحلة قتل الخليفة المستعصم وابنه الأوسط مع ستة نفر من الخصيان بالليل وقتل ابنه الكبير ومعه جماعة من الخواص على باب كواذ « (٢٦) » . واختلف كثير من المؤرخين العرب والفرس والفرنجة في تاريخ قتل المستعصم وطريقته ، فكثير من المؤرخين العرب يذكرون أن قتل الخليفة تم في شهر المحرم من عام ٦٥٦ هجرية دون تحديد لليوم الذي تمت فيه ، بينما يذكر المؤرخون الايرانيون ومعهم ابن العبري أن القتل حدث مساء يوم ١٤ صفر سنة ٦٥٦ هجرية (٢٠ فبراير ١٢٥٨م) ، وعندهم أخذ مؤرخوا الفرنجة . يقول الحافظ الذهبي « ان الكافر هولاءكو أمر به (أي الخليفة المستعصم) وبولده أبي بكر فرفسا حتى ماتا ، وذلك في حدود آخر المحرم . وكان الأمر أشغل من أن يوجد مؤرخ لموته أو موار لجسده » (٢٧) .

كذلك اختلف المؤرخون في الطريقة البشعة التي قتل بها الخليفة

(٢٥) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٧١ .

(٢٦) ابن العبري : المرجع السابق ، ص ٢٧٢ .

(٢٧) الحافظ الذهبي : العبر في خبر من غير ، ج ٥ ، ص ٢٣١ .

العباسي ، فيقول بعض مؤرخي العرب أنه قتل رفسا بأن وضع في عدل حتى مات ، ويذكر البعض الآخر أنه خنق ، ويقول آخرون أن جسده مزق اربا ، وجماعة ذكروا أنه لف في بساط وألقى به في نهر دجلة (٢٨) . أما مؤرخو الفرس وعنهم أخذ مؤرخو الفرنجة فقالوا أن هولاءكو وضع أمامه شيئا من الذهب والفضة والأحجار الكريمة وطلب منه أن يأكلها إذا أراد بعد أن وضعه هولاءكو في حجرة مغلقة (٢٩) .

ولا شك في أن الطريقة التي قتل بها الخليفة العباسي المستعصم يكتنفها الغموض ، وما ذلك الا أن هولاءكو قد أخفى على الناس قتل الخليفة ردحا من الزمن لذلك لم يقف المؤرخون على الطريقة التي لقي بها الخليفة المستعصم حتفه فهي واقعة من الوقائع التاريخية غير المتفق عليها في توقيتها وطريقتها .

وفي اليوم التالي لمصرع الخليفة العباسي المستعصم ، أمر هولاءكو بتعقب أفراد الأسرة العباسية وقتلهم جميعا ، ويقال انه ظفر بهم ولم ينج منهم سوى أصغر أبناء الخليفة المقتول ، ويدعى أبا المناقب مبارك ، وكان ذلك بناء على طلب زوجة هولاءكو . وقد أرسل الأمير العباسي مبارك هذا الى الشرق حيث تزوج بامرأة مغولية . وممن نجا أيضا من أفراد أسرة الخليفة المستعصم احدى بناته التي أرسلها هولاءكو الى أخيه منكوقا آن . ويقال ان تلك الأميرة عندما وصلت الى سمرقند استأذنت مرافقيها لزيارة قبر قثم بن العباس ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وشقيق عبد الله بن العباس وقد استشهد في سمرقند ، ولما أجابوها الى طلبها وقفت على القبر وقالت : « رب اذا كان لقتل بن العباس عندك قدر فاقبض عبتك اليك ونجها من أيدي هؤلاء الناس » فاستجاب لها ربها وسقطت على القبر ميتة (٣٠) .

وما أن فرغ هولاءكو من فتح بغداد وتنظيم شئون الدولة في البلاد المفتوحة حتى رحل من بغداد في الرابع عشر من صفر بعد أن فوض أمر بغداد

(٢٨) ابن شأكر الكتبي : فوات الوفيات ، ج ٢ ، ص ٢٣٧ .

(٢٩) أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ، ج ٢ ، ص ٢٠٣ .

(٣٠) D'Ohsson; Histoire des Mongols. Tome III, P. 242-244.

الى شمس الدين صاحب الديوان الجويني والوزير ابن درنوش . توجه الى آذربيجان حيث اختار مدينة مراغه عاصمة للكه ، وأقام أيضا عدة بُنية في اقليم أورميه ، كما شيد عدة معابد وثنية (بت خانه ها) في مدينة خوى في آذربيجان . وكلف مستشاره الخواجه نصير الدين الطوسي ببناء المرصد في مدينة مراغه سنة ٦٥٧ هجرية .

وقع انتصارات هولاكو على الدويلات الاسلامية المجاورة لبغداد :

لا شك في أنه رغم الخلافات السياسية والأحقاد الشخصية التي كانت سائدة العالم الاسلامي في ذلك الوقت وكثرة الحروب بين الدويلات الاسلامية والفتن الداخلية ، الدينية منها وغيرها ، الا أن سقوط بغداد وقتل الخليفة العباسي أصاب المسلمين بحسرة وحزن عميق ، ومع ذلك لم يجرؤ أحد من ملوك المسلمين وقادتهم على الوقوف بجانب بغداد أو مناصرتها في محنتها خوفا من المغول ورهبة من عقابهم . وكان الأمراء المسلمون المجاورون لبغداد ينظرون بعيون زائغة الى تقدم هولاكو نحو بغداد والاجهاز عليها ، وهم في حالة من الهلع لا يعرفون معها كيف يتصرفون . ان الخلافات بين الحكام المسلمين وصلت الى درجة سيئة وطريق مسدود ، وكان النفاق والعداء وحب السيطرة والظهور هو المسيطر عليهم ، كان كبيرهم يريد ابتلاع صغيرهم والجميع يعيش في ذلك الجو المضطرب لا يعرف هل سيأتي عليه يوم جديد في منصبه أم لا حتى داهمهم هولاكو بجيوشه وسقطت الخلافة العباسية التي كانت تعد في نظرهم قلعة الاسلام وملاذ المسلمين ، كما سقطت بغداد وقتل أهلها وشردهم وأصبحت المدينة التي اشتهرت بعظمتها مسرحا لجنود المغول يعيشون فيها الفساد والدمار والخراب ، غملاً الرعب والفرع والهلع قلوب أكثرية أمراء الجزيرة وسورية وآسيا الصغرى من جراء الفظائع التي ارتكبها الجيش المغولي بالعراق والخلافة العباسية ، فهرعوا جميعاً الى هولاكو يقدمون له فروض الطاعة والولاء والتهنئة بما ناله من فتح وأحرزه من انتصار ، ويتملقونه خوفاً من بطشه واتقاء لشره . ان الفرع جعل كل واحد منهم يتلمس طريقاً للنجاة بنفسه أولاً مهما كانت الطريقة . فكان ممن حضر لتهنئته في بغداد « بدر الدين لؤلؤ » أتابك الموصل ، وكان شيخاً في الثمانين من عمره ، واستدعاه هولاكو ليشكره على تعاونه معه بما قدمه من جند وعقاد وخيول ،

فأتى على عجل وأسرع بتقديم التهنئة بفتح بغداد ، وقدم لهولاكو هدية قبلها
 الأخير منه ، ولازمه فترة من الزمان الى أن غادر هولاكو المدينة البائسة متوجها
 الى آذربيجان التي اتخذها مقرا له . كما أرسل أبو بكر السلغرى أتابك فارس
 ابنه للغرض نفسه .

وفي مدينة مراغه حيث عسكر هولاكو ، وفد اليه اثنان من سلاطين
 سلاحه الروم ، هما الأخوان المتنافسان على العرش السلجوقي في آسيا
 الصغرى ، السلطان عز الدين كيكاووس الثانى ، والسلطان ركن الدين قلع
 أرسلان الرابع ، وكلاهما يمنى نفسه أن يقوم هولاكو بانصافه والوقوف
 بجانبه ضد أخيه . أما عز الدين كيكاووس الثانى فكان يرتجف رعبا، ويخشى
 أن يعاقبه هولاكو على اشتباك جنوده مع المغول بقيادة « بايجو نويان » الذين
 هزموه قرب مدينة « آق سرا » (٣١) فلما سقطت بغداد على يد هولاكو أحس
 عز الدين كيكاووس الثانى بخرج موقفه ومركزه وخشى بطش الخان المغولى
 وسبق أخاه الى زيارة هولاكو وحاول أن يخلص نفسه من تلك الورطة بنوع
 مبتكر من التملق الذى يحمل طابع الخضوع والذلة والولاء ، فرسم صورته
 على نعل زوج من الأحذية ، وقدمهما الى هولاكو قائلا له : « عبدك يأمل أن
 يتفضل الملك ، فيشرف رأس عبده بوضع قدمه المباركة عليها » (٣٢) .

أسباب سقوط بغداد :

هناك أسباب أدت الى سقوط بغداد والقضاء على الخلافة العباسية ،
 ترجع الى المواقف المتنافرة بين طبقات الشعب وفئاته ، وتصرفات الخليفة
 العباسى نفسه التى كانت لا تبشر بمستقبل سليم ، بل كانت كلها مواقف
 اتسمت بخلافات شخصية وعقائدية وحب للسيطرة ، وفقر فى الأخلاق وتملص
 من المسؤوليات ، حتى داهم هولاكو بجيوشه تلك القوى المتنافرة وقضى عليها
 كلها ، نذكر من هذه الأسباب :

Grousset; L'Empire des Steppes, P. 433.

(٣١)

(٣٢) رشيد الدين فضل الله : جامع التواريخ (تاريخ المغول فى ايران)
 الترجمة العربية ص ٣٠١ ، وأيضا الدكتور فؤاد عبد المعطى للصياد : المغول
 فى التاريخ ص ٢٧٨ - ٢٧٩ .

أولاً - موقف الخليفة المستعصم بالله ورجاله المقربين :

ورث الخليفة المستعصم بالله عن أسلافه دولة ضعيفة مفككة ، وكان الفناء قد دب في جسدها المتهاالك . ان الخليفة نفسه كان رجلاً تقياً صالحاً ، طيب القلب ، الا أن آفته كانت في ضعف ارادته وانقياده لآتباعه وتردده الأمر الذي جر عليه وعلى الاسلام الخراب والدمار . ولم تكن شخصية الخليفة المستعصم بالله مؤهلة لقيادة جيوش أو زعامة سياسية ، بل كانت شخصيته ضعيفة مستكينة ولم يهتم بتجيش الجيوش واستنفار أمراء المسلمين وحكام البلاد والشعب الاسلامي لمواجهة المخاطرة فكان لتقاعسه في الوقوف في وجه هولاكو أكبر الأثر في جعل سقوط بغداد أمراً محتوماً ، وكان دائماً يقول للمقربين اليه « ان بغداد تكفيني وهي مصونة بعناية الهية ومن قصدها بسوء أباده الله » . ومع ذلك نحمد له موقفه البطولي الشريف الذي وقفه بمفرده دون مساعدة من أحد .

ثانياً - موقف أهل السنة :

كان هؤلاء أصحاب الأمر والنهي في بغداد ، وكان المذهب السني هو المذهب الرسمي للخلافة العباسية . وكان أهل السنة يحيطون بالخليفة برعايتهم ويعتبرون سقوط بغداد سقوطاً لهم وضياعاً لنفوذهم ، لذلك نجدهم يقفون أمام الغزاة من المغول في صمود وصلابة . وقبل سقوط المدينة بعام واحد (أي سنة ٦٥٥ هجرية) نشبت فتن طائفية بين السنة وبين الشيعة ، وهاجم السنيون محلات الشيعة وخاصة محلة الكرخ - وشاركهم في غارتهم تلك رجال الشرطة والحكومة ، وقاد الحملة وتزعّمها أبو بكر الابن الأكبر للخليفة المستعصم نفسه ومعه الدويدار الصغير ، فتهبوا محلة الكرخ ، وهتكوا النساء الشيعيات الأمر الذي أحفظ قلوب أهل الشيعة عليهم .

ثالثاً - موقف أهل الشيعة :

كان موقف هؤلاء ازاء تلك الكارثة الرهيبة من أسوأ المواقف التي وقفتها إحدى الطوائف في أية أمة عبر التاريخ ، اذ لم يراع الشيعة أن العراق هو وطنهم الأم الذي يجب الدفاع عنه أمام زحف المغيرين وأن الهزيمة التي وقعت إنما هي هزيمة للاسلام والمسلمين جميعاً . وحاول مؤرخو الشيعة الدفاع عن (م ٩ - تاريخ الدولة المغولية)

ذلك الموقف السلبي لطائفهم أثناء نشوب القتال بين الخلافة العباسية والمغول وأن يجدوا لهم عذرا ومخرجا ، فذكروا في كتبهم أنهم تأروا لأنفسهم مما حل بهم من بلاء في الفتنة التي وقعت ببغداد عام ٦٥٥ هجرية على أيدي أهل السنة ورجال الشرطة . ان موقف الوزير مؤيد الدين بن العلقمي الذي كان وزير الخليفة المستعصم ومن أكبر الشخصيات الشيعية البارزة كان يخطو الشك والريبة في تصرفاته مع هولاكو والمغول . وقد اتهم كثير من المؤرخين المسلمين الوزير ابن العلقمي بالخيانة وحملوا عليه حملة ضارية ، وإن كان يؤخذ عليهم أنهم كانوا يدينون باحدى فرق المذهب السني ، فقد ذكر كل من ابن شاذان الكندي في كتابه « فوات الوفيات » وأبى الفداء في كتابه « المختصر في أخبار البشر » وابن خلدون في كتابه « العبر وديوان المبتدأ والخبر » والنسبوي في كتابه « تاريخ الخلفاء » والمقريزي في كتابه « السلوك لمعرفة دول الملوك » والذهبي في كتابه « دول الاسلام » أن ابن العلقمي حث المغول على الاستيلاء على بغداد ، وكانت له رغبة في إزالة الخلافة العباسية وإقامة خلافة علوية مكانها ، وأنه مهد لانتصار المغول بأن أقنع الخليفة العباسي المستعصم بالله انقاص الجيش توفيراً للتفقات ، ثم دعا الى بذل المال المتوفر لديه من جراء ذلك في استمالة المغول .

رابعاً - موقف أهل الذمة :

... كان النصارى واليهود من رعايا الدولة العباسية يتمتعون بالطمأنينة في أحيائهم ، وينعمون بالغنى والاحترام والحرية الدينية المطلقة في أداء شعائرهم الدينية ، وكان كل ذلك يتم في رعاية الخلفاء ، بل وكثير من أهل الذمة وصل الى أرقى المناصب بجمه وتفوقه ونبوغه ، وحدث أن وقف اليهود ازاء غزو المغول لبغداد موقفا مشرفا ، فحاربوا مع المسلمين حتى آخر لحظة وقاسوا معهم ويلات المذابح التي أعقبت سقوط بغداد . أما المسيحيون ، وكانوا يفوقون اليهود عددا فلم يفعلوا ذلك رغم أنهم كانوا أكثر تقربا الى الخلفاء واتصالا بالحياة العامة في بغداد ، بل سألوا المغول ، وتقربوا اليهم ، وتمكنوا من الحصول على عطف هولاكو بفضل تأثير زوجته المحبوبة « دوقوز خاتون » المسيحية . وأمر هولاكو البطريق النسطوري بجمع المسيحيين في إحدى الكنائس حتى يتميزوا عن غيرهم ، فلا يتعرض لهم جند المغول عند دخولهم بغداد ، وحاول بعض المسلمين اللجوء الى تلك الكنيسة ، وعرضوا

تقديم كل ثرواتهم مقابل الحفاظ على أرواحهم ، فلم يقبل البطريق النسطورى ذلك وتركهم تحت رحمة سيوف المغول وهم يتوسلون اليه . وهكذا لم يدافع عن بغداد في محنتها وبلاقي من الغزاة العذاب والهوان الا أهل النسنة واليهود .
نتائج سقوط بغداد :

تعد واقعة سقوط مدينة بغداد وانقراض الدولة العباسية من أكبر الوقائع التى حدثت فى تاريخ البشرية حيث كانت لها أبعاد عدة على مستقبل الشعوب الاسلامية ودولهم وثقافتهم ولغاتهم ، وتبدو واضحة فى النواحي التالية :

١ - **الناحية الروحية :** ويتجلى ذلك فى شعور المسلمين بفداحة الواقعة التى حلت بشعوب العالم الاسلامى قاطبة الأمر الذى جعلهم يعتقدون أن الساعة قادمة لا ريب فيها ، واستوى فى ذلك الاعتقاد العالم والجاهل . وأشار الى تلك النقطة التى سيطرت على أذهان العامة والخاصة بعض المؤرخين فى محاولة منهم لتعليل الحوادث والكوارث الطبيعية التى سبقت سقوط بغداد بأنها اشارات ربانية على قرب نهاية العالم ، وأورد الذهبى (٣٣) والسيوطى (٣٤) بأنه ظهرت فى ثالث جمادى الآخرة سنة ٦٥٤ هجرية فى المدينة المنورة حيث قبر الرسول الأكرم ، صلى الله عليه وسلم ، نار عظيمة فى احدى الحرات (صخور بركانية) القريبة منها ، وسالت منها أودية ، وطار منها شرر هائل ، حتى شاهد ضوءها من كان بمكة أو فى الفلاة . واجتمع الناس الى قبر النبی الكريم ، صلى الله عليه وسلم ، من هولها مستغفرين بتائبين . واستمرت تلك النار أكثر من شهر . أما المؤرخ ابن خلدون فقد وصف مجىء المغول واسقاطهم بغداد وقتلهم الخليفة العباسى بها بأنهم « طمسوا معالم الملة ، وكادت تكون من أشراط الساعة » (٣٥) .

وكان المسلمون يتطلعون الى الخلافة على أنها رمز للمالك الاسلامية

(٣٣) الذهبى : دول الاسلام ، طبع الهند سنة ١٣٦٥ هـ ، ج ٢ ، ص ١٢٠ .
(٣٤) السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص ١٨٧ .
(٣٥) ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون (العبر ودينوان المبتدأ والخبر) ، طبع القاهرة ، ص ٣٦٤ .

جميعها ، يجب أن يظل قائما ، وكانوا يفظرون الى خليفة المسلمين نظرة
اجلال واحترام ، حيث كان نفوذه الديني بعيد الأثر في نفوس المسلمين جميعا .
ورغم أن الخلافة العباسية كانت قد فقدت منذ قرون جانبا كبيرا من
سلطانها الادارى والأدبى والروحى ومن قوتها المادية الا أنها كانت لا تزال
تدخر قدرا كبيرا من سلطانها الأدبى والروحى ، فلما سقطت بغداد وقتل
الخليفة ، غضى على ذلك النفوذ وزال ما كان لتلك العاصمة من مكانة
دينية ممتازة .

لا شك في أن شعور المسلمين بسقوط بغداد ونظرتهم الى الواقعة كان
في حد ذاته مأساة يقر بها المتعلم والجاهل ، كما يقر المسلم في ذلك الوقت
بأنه هو السبب في الكارثة لعدم الوحدة والوقوف في وجه كل مصلح والسير
وراء كل طامع في السلطة ، فاعتبروا ذلك خسارة عظيمة لهم لفقدانهم المدينة
التي عاصرت أمجادهم وعاش فيها فقهاؤهم وفنانوهم وأدباؤهم ففقدوا
تراثها الحضارى ومكانتها الدينية . وهذا ما عبر عنه في شعر الشعراء ونثر
الأدباء ، فمن الشعراء الذين رثوا بغداد الشيخ تقى الدين اسماعيل بن ابراهيم
ابن أبى اليسر التنوخى بقصيدة دامعة في ستة وستين بيتا ، مطلعها (٣٦) :

لسائل الدمع عن بغداد أخبار فما وقوفك والآحباب قد ساروا
يا زائرين الى الزوار لا تفقدوا فما بذلك الحمى والدار ديار
كذلك نظم الشاعر الفارسى سعدى الشيرازى قصيدتين ، احدهما
بالعربية والأخرى بالفارسية في رثاء المستعصم بالله آخر الخلفاء العباسيين
وذكر واقعة سقوط بغداد ، يقول في مطلع قصيدته العربية (٣٧) :

حبست بجفنى المدامع لا تجرى فلما طغى الماء استطاع على السكر
نسيم صبا بغداد بعد خرابها تمنيت لو كانت تمر على قبرى
لأن هلاك النفس عند أولى النهى أحب له من عيش منقبض الصدر

(٣٦) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٥١ .

(٣٧) كليات شيخ سعدى ، نشر مكتبة علمى بطهران ، ص ٤١٠ .

أما قصيدته الفارسية ، فيقول الشيخ سعدى فى مطلعها (٣٨) :
 آسمانرا حق بود گر خون بگرید بر زمین
 بر زوال ملك مستعصم أمير المؤمنين
 أى محمد گر قیامت می بر آرى سر زخاك
 سر بر آور وين قیامت در میان خلق بین

وترجمة البيتین :

یحق للسماء أن تمطر الأرض دما على زوال الملك المستعصم أمير المؤمنين
 یا محمد ! اذا كنت ستطل برأسك من الثرى يوم القيامة
 فأطل بها الآن، وانظر هذه القيامة وسط الخلق

كذلك من الكتاب والأدباء الذين أثرت فيهم حادثة سقوط بغداد وأهاجت
 مشاعرهم الفنية ظهر الدين الكازرونى المتوفى سنة ٦٩٧ هجرية (١٢٩٨ م)
 فأنشأ مقامة وصف فيها ما كانت عليه دولة الخلافة العباسية ، وخاصة دار
 الخلافة ، وما كانت تحويه بغداد من دواوين للوزارة والحجاب والمخازن
 وحجرات نساء الخليفة ، وغيرها مظهرا عزها ومجدها المندثر (٣٩) .

٢ - الناحية السياسية : كانت بغداد قبل حملة المغول مركزا للنشاط
 السياسى لكافة أنحاء الشرق الاسلامى ، وكذلك كانت لا تزال رغم ضعفها
 لها سيطرة سياسية على العالم الاسلامى كافة ومؤثرة فى كافة المسائل
 السياسية الدولية . وكان اسمها ماثلا فى الأذهان بالنسبة لكافة المسلمين
 وحكام الدول الاسلامية . وأوضح ذلك الخليفة العباسى نفسه عندما أرسل
 رسله الى هولاءكو كى يثنيه عن عزمه فتح مدينة بغداد باعتبارها مدينة خالدة ،
 وحتى يخيفه ذكر له أن جميع من تصدوا لها اندثروا وأصيبوا بلعنة من السماء .
 فلما سقطت بغداد فى أيدي المغول أصبحت مجرد مدينة تابعة لامبراطورية

(٣٨) كليات شيخ سعدى : مرجع سابق ، ص ٤٨٨ - ٤٨٩ .
 (٣٩) الكازرونى : مقامة فى قواعد بغداد فى الدولة العباسية ، نشر
 كوركيس عواد وميخائيل عواد ، بغداد سنة ١٩٦٢م .

المغول (٤٠) . وانتقل مركز بغداد السياسى والروحى الى القاهرة التى تصدرت العالم الاسلامى وتزعمت المقاومة الاسلامية نتيجة احياء الخلافة العباسية فى القاهرة سنة ٦٥٨ هجرية بعد مرور سنتين على قتل آخر خليفة عباسى فى بغداد وتمكن سلاطين المماليك حكام مصر من هزيمة المغول . وان كانت الخلافة العباسية فى مصر لم تزدد عن كونها روحا بغير جسد ، حيث وضع الخليفة العباسى فى قصر السلطان أشبه بالسجين يمنح البركات لمن يطلبها ، ولا يأبه به أحد حين ارتقاء عرش السلطنة سلطان جديد ، وعند ذلك يخرج الخليفة من مكمنه كى يعطى تقليد السلطنة ويعود الى مكانه مرة أخرى ، وبذلك يكسب السلطان الجديد صفة الشرعية أمام الرعية وأمام الأمراء المتنافسين (٤١) .

كذلك انتقل النشاط السياسى المغولى الى مدن الشمال فى آذربيجان فى مراغة وتبريز وخوى . وأخذت تلك المدن تلعب دور العواصم ، يقول رينسمان : « أخذت بغداد تستعيد رويدا رويدا نظافتها ، وتعود الى سابق عهدها من النظام والترتيب ، على أنها لم تغد بعد أربعين سنة سوى مدينة اقليمية ووفرة الرخاء لا تتجاوز عشر حجمها السابق » (٤٢) .

٣ - الناحية الاجتماعية : كانت غالبية الشعب الأيرانى يتبعون مذهب أهل السنة والجماعة ، وكانت الحكومات التركية تجارب التشيع ، رتناصر الخليفة العباسى السنى . وبالقضاء على الخلافة العباسية انتشر التشيع فى المشرق الاسلامى نتيجة نفوذ رجال من الشيعة كانوا يتبؤون مراكز هامة عند المغول ، كنصير الدين الطوسى الذى كان مستشارا لهولاكو ومؤيد الدين بن الحلقى الذى أسند اليه حكم بغداد بعد سقوطها ، وكان قبل ذلك وزيرا بها عند آخر خليفة عباسى . والشيعة بصفة عامة عاونوا المغول

(٤٠) مصطفى طه بدر : مخنة الاسلام الكبرى ، القاهرة سنة ١٩٤٧م ، ص ١٨٢ .
(٤١) الذهبى : دول الاسلام ، ج ٢ ، ص ١٢٥ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٧ ، ص ٦٤ .
(٤٢) رينسمان : تاريخ الحروب الصليبية (الترجمة العربية) ، ج ٣ ، ص ٥٢٢ .

وتقربوا الى هولاء ، فحظوا عندهم بالتقرب والمناصب سواء في عهد هولاء أو في عهد ايلخانات فارس . وفي عهد السلطان محمود غازان خان ازداد نفوذ الشيعة وقرب اليه أهل البيت وقام بببناء تكايا عرفت باسم « دار السادة » خصصها لأحفاد الامام على بن أبي طالب ، أما أخوه « أولجايغو محمد خدابنده » فانه اعتنق التشيع وحاول فرضه بالقوة على المغول وغيرهم ولم يقرب اليه أحدا من رجال المذاهب الأخرى ، لذلك اشتهر بين العامة باسم « خربنده » (أي عبد الحمار) . وفي الوقت نفسه عاش أهل السنة وهم الغالبية العظمى من الشعب الايراني تحت الحكم المغولي أسوأ حياة ، وتحملوا من أساليب العنف والاضطهاد ما تنوء به الجبال .

أما المسيحيون الذين ساعدوا هولاء في فتح بغداد فانهم لا قوا من ايلخانات فارس كثيرا من العنف والاضطهاد ، وفقدوا ما كان لهم من حقوق وامتيازات التي كانت لهم أيام الخلافة العباسية وأيام هولاء . كما فقدوا الود والصداقة التي كانت قائمة بينهم وبين كافة طبقات الشعب الاسلامي ، وبلغ من سوء حالهم أن البطريق النسطوري اضطر الى نقل مقره الديني من بغداد الى اربل ليتفادي ما كان ينزل به من اضطهاد وعسف . كما أن جميع مسيحي بغداد اضطروا أيام السلطان محمود غازان خان الى التزام منازلهم عندما قوى الشعور ضدهم ، حتى صارت نساؤهم يذهبن الى الحرائيت للبيع والشراء بدلا منهم لانهن كن يلبسن ثياب المسلمين فلا يمكن تمييزهن .

٤ - **الناحية العلمية :** كانت بغداد مركزا هاما للعلوم والفنون والآداب . يهرع اليها العلماء وطلاب العلم حيث كانت غنية بمدارسها ومكتباتها وبعلمائها وأدبائها وشعرائها وفلاسفتها وفنانيها ، وكان كل هؤلاء بمثابة أساتذة وموجهين وملهمين لرجال العلم والأدب في مختلف عواصم الشرق الاسلامي ، فما حلت النكبة ببغداد على أيدي المغول قتل آلاف من العلماء والأدباء والشعراء والفنانين ، وأحرقت المكتبات واتلفت الكتب وخربت المدارس والمعاهد العلمية وقضى على الآثار الاسلامية التي كانت تتميز بها بغداد .

ان النكبة التي حلت ببغداد أضاعت الكثير من التراث العربي الإسلامي

لا سيما وأن المغول عبثوا عمدا بالكتب لافتقارهم الى الحضارة والثقافة وعدم معرفتهم قيمة الكتاب أو قيمة ما في الكتاب من علم أو أدب أو غيره من الفنون ، وقيل أنهم بنوا بالكتب العربية الاصطبلات للخيول والمعالف (٤٣) . كما قيل أيضا أنهم بنوا بها جسرا مع الطين والماء بدلا من الآجر (٤٤) ، وذكر المؤرخون أيضا أن المجاعة التي حلت ببغداد في ذلك الوقت دفعت كثيرا من الناس لبيع ما سلم من كتبهم . ونتج عن ذلك أن انتشرت كتب مكتبات بغداد في عدة مدن (٤٥) .

كذلك كان أهم أثر علمي نتج تلقائيا عن نكبة بغداد أن فقدت اللغة العربية المكانة الممتازة التي كانت تتمتع بها قبل الغزو المغولي في ميادين الثقافة والعلوم والآداب ، ومهدت الظروف الجديدة تحت ظل الحكم الجديد تفوق اللغة الفارسية على اللغة العربية في الاقاليم الفارسية . يقول المستشرق الانجليزى ادوارد براون في هذا المعنى : « ان تحطيم بغداد كعاصمة للمسلمين وانزالها الى مرتبة المدن الاقليمية ، قد أصاب رباط الوحدة بين الأمم والشعوب الاسلامية بلطمة شديدة ، كما أصاب مكانة اللغة العربية في ايران بضربة قاصمة ، فاقترصر استعمالها بعد ذلك على العلوم الفقهية والفلسفية ، فاذا وصلنا الى نهاية القرن الثالث عشر الميلادى (السابع الهجرى) لم نعد نصادف الا القليل النادر من الكتب العربية التي تم تأليفها في ايران » (٤٦) .

(٤٣) كتاب مختصر أخبار الخلفاء - مجهول المؤلف وينسب خطأ لابن الساعى ، بولاق ١٣٠٩ هـ صفحة ١٢٧ .

(٤٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٥١ .

(٤٥) الحوادث الجامعة - مجهول المؤلف ، حوادث سنة ٦٥٦ هـ . (١٢٥٨ م) .

(٤٦) ادوارد براون : تاريخ الأدب في ايران - من الفردوسى الى السعدى ، ترجمة الدكتور ابراهيم أمين الشواربى ، القاهرة سنة ١٩٥٤م ، ص ٥٦٤ .

الفصل السادس

حملة هولاكو على الشام

وما أن تم لهولاكو فتح بغداد وتحطيم الخلافة العباسية حتى رنا بصره صوب الغرب حيث بلاد الشام ومصر ، وكان أول شيء أقدم عليه أن كلف أحد قواده ويدعى « أرقيو نويان » بالسير الى اربل ، وكان يعيش بها آنئذ خليط من الناس ما بين عرب وإيرانيين ، وكان العنصر الكردي هو السائد . وتمكن أرقيو بوقا من فتح مدينة اربل وبذلك أصبح المغول يشرفون على حدود الشام.

حالة البلاد الشامية قبيل الغزو المغولي :

كانت بلاد الشام في ذلك الوقت في يد ثلاث سلطات متنازعة بل وفي خصومة شديدة تتمثل في سلطة الأوروبيين والصليبيين وسلطة الأرمن المسيحيين وسلطة الحكام المسلمين الذين كانوا يتمثلون في البيت الأيوبي . وكان هؤلاء الأيوبيون يحكمون مدن ميفارقين وماردين وحصن كيفا والكرك ودمشق وحماة وحمص . ومن المؤسف حقا أن هؤلاء الأمراء وهم من أسرة واحدة وينتسبون الى البطل صلاح الدين الأيوبي كانوا في نزاع دائم وخلافات مستمرة وتطاحن على السلطة والسلطان . ورغم الخطر الذي بدأ يلوح في الأفق وظهر مدمرا مخيفا ، الا أن أمراء البيت الأيوبي لم يقدروا الموقف وداهمهم هولاكو وهم على خلافاتهم فاصطادهم الواحد تلو الآخر وقضى عليهم جميعا . أما مصر فكانت تحت سيطرة أمراء المماليك البحرية وهم الذين حلوا محل الدولة الأيوبية وبين الفريقين نزاع وخصام . ورأى سلاطين مصر ومماليكها وهم من الجركس وأتراك القبچاق أن يضعفوا شوكة المغول ويقفوا في وجههم انتقاما منهم لما حل بالاسلام من خطوب ومحن على أيديهم وحفاظا على سلطتهم في مصر .

الحرب بين الأيوبيين والمغول :

كان الملك الناصر يوسف الأيوبي صاحب حلب ودمشق (٦٤٠-٦٥٩هـ) أكثر الأمراء الأيوبيين قدرة واقتدارا ، لكنه أعلن خضوعه لهولاكو بعد سقوط بغداد مباشرة ، وأرسل ابنه العزيز - وكان صغيرا - الى هولاكو يحمل اليه الهدايا والتحف ويقدم صك العبودية ، وطلب الناصر يوسف الأيوبي من ابنه أن ينقل الى الخان المغولي على لسان أبيه امداده بنجدة تساعده في الاستيلاء على مصر وتخليصها من المماليك الذين انتزعوها من بيته (١) .

تكن هولاكو رأى أن الوعد الذي أرسله الملك الناصر يوسف الأيوبي اليه لا يناسب مقامه ، فأرسل اليه رسالة يأمره فيها بضرورة المجيء اليه وتقديم الخضوع والتبعية دون قيد أو شرط (٢) ، وقال له فيها : « اذا وقفت على كتابي هذا فسارع بزجالك وأموالك وفرسانك الى طاعة سلطان الأرض تأمن شره وتقل خيره ، وقد بلغنا أن تجار الشام وغيرهم انهزموا بأموالهم وحریمهم الى « كروان كسرى » (أى مصر بلغة المغول) فان كانوا في الجبال نسفناها ، وان كانوا في الأرض خسفناها » (٣) . وانزعج السلطان الناصر يوسف الأيوبي صاحب دمشق انزعاجا شديدا واضطربت أحواله وفقد رباطة جأشه مع اشتهاؤه بالشجاعة والاقدام وأيقن أنه هالك لا محالة ، فبعث بأسرته وأمواله الى مصر وحاول في غمرة يأسه الوقوف في وجه المغول .

وفي شهر رمضان سنة ٦٥٧ هجرية (١٢٥٩ م) توجه هولاكو مع حلفائه من أمراء جورجيا وأرمينيا من عاصمة ملكة « مراغة » في آذربيجان قاصدا سورية ومعه جيش يزيد عدده على مائة وخمسين ألف جندي ، واستولى جيش مغولي على مدينة ميفارقين عاصمة ديار بكر وكانت تحت سيطرة « الملك الكامل محمد الأيوبي » الذى أظهر هو وشعبه ضروبا من الشجاعة والفساد منقطعة النظير ، ولم تسقط المدينة الا بعد أن عم القحط وانتشرت الأوبئة ، وقتل المؤمن حتى اضطر الناس أن يأكل بعضهم بعضا وهلك أكثر السكان . ولما تأكد الملك الكامل محمد أن المقاومة أصبحت عديمة الجدوى وأنه لا فائدة

(١) المقریزی : السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ١ ، قسم ٢ ، ص ٤١١ .

(٢) ابن العبری : تاریخ مختصر الدول ، ص ٢٧٨ .

(٣) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٨ ، ص ٦٠ .

في الصمود استسلم للمغول فقتلوه شر قتلة . وفي شأن تلك الواقعة يقول محمد كرد علي ما يلي (٤) « واستولى القطار على ميافارقين (٦٥٨) بعد أن حاصروها سنتين حتى فنيت أزوادهم وفنى أهلها بالوباء والقتل فقتلوا صاحبها الكامل محمد بن المظفر بن العادل أبي بكر بن أيوب وحملوا رأسه على رمح وطافوا به في الأرجاء ، فمروا بحلب وحماة ودمشق بالمغانى والطبول وعلقوه في شبكة بسور باب الفراديس الى أن عادت دمشق الى المسلمين » .

وما أن تم للمغول فتح ميافارقين حتى تقدموا نحو ماردين . وكانت في قبضة الملك السعيد فوقف في وجه المغول أيضا ، وحاصر المغول المدينة ثمانية أشهر دون أن ينجحوا في اقتحامها . وأخيرا حاول أحد أبناء الملك السعيد أن يثني أباه عن عزمه ، ويحمله على التسليم للمغول ، فلما لم يفلح ، لم ير الابن بدا من قتل أبيه ، حقنا لدماء المسلمين ، فتخلص منه وسلم القلعة للمغول فكافأه هولاكو على إخلاصه ونصبه واليا على ماردين بدلا من أبيه .

وفي أثناء حصار كل من ميافارقين وماردين كان هولاكو يغزو الامارات الاسلامية الواحدة بعد الأخرى في سورية ، فاستولى على نصيبين واستسلمت له حران والرها ، ثم تقدم على رأس جيش كبير يعاونه حلفاء الفرنج والأرمن لبحصار حلب ، وكان واليها « الملك المعظم تورانشاه » ، وجريا على عادة المغول أرسل اليه هولاكو رسالة يطلب فيها أن يسلمه المدينة وأن يلقى سلاحه ويهدم اسوار القلعة وتحصنات المدينة ، ووعده بأنه سوف يؤمنه على حياته ويؤمن أتباعه . فلم يجبه توران شاه الى طلبه وصمم على محاربته والوقوف في وجه المغول مهما كانت الظروف والنتائج .

وكانت مدينة حلب البائسة أول مدينة شامية واجهت العاصفة المغولية ، باعتبارها مفتاح البلاد الشامية ، وكانت أخبار سقوط بغداد وما ارتكبه المغول فيها من فظائع قد أثارت موجة من الرعب والفرع ، واتحد شعب المدينة مع حاكمهم الأيوبي وتحصنوا خلف أسوارها المنيعه ، ونشب قتال

(٤) محمد كرد علي : خطط الشام ، ج ٢ ، ص ١٠٧ .

شديد بين الطرفين ، وفشل المغول في اقتحام أسوار حلب أول الأمر على الرغم من فتكهم بجانب كبير من حاميتها ، واضطروا الى رفع الحصار والرحيل عنها . ولم يلبث هولاء أن أعاد الكرة مرة أخرى وشدد الحصار على منافذ المدينة ، وأرسل الى حاكمها الملك المعظم تورانشاه للمرة الثانية يدعوه الى تسليم القلعة ونزع سلاح جنوده ، لكن الأخير رفض انذار هولاء الذي قال فيه : « انكم تضعفون عن لقاء المغول ونحن قصدنا الناصر والعساكر ، فأجعلوا لنا عندكم بحلب شحنة وبالقلعة شحنة ، ونتوجه نحن الى العسكر ، فان كانت الكسرة على الاسلام كانت البلاد لنا ، وتكونون قد حققتم دماء المسلمين ، وان كانت الكسرة علينا كنتم مخيرين في الشحنتين ، ان شئتم طردتموهما وان شئتم قتلتموهما » ، فلم يجب المعظم الى ذلك وقال : ليس لكم عندنا الا السيف . فتعجب هولاء من هذا الجواب وتألم ، لما علم من هلاك أهل حلب بسبب ذلك « (٥) » .

وزحف المغول صوب مدينة حلب وأحكموا حصارها ، ويكمل الحافظ الذهبي ما فعله المغول بعد ذلك بقوله : « وحفر المغول خندقا عمق قامة وعرض أربعة أذرع وبنو حائطا بارتفاع خمسة أذرع ، ونصبوا عشرين منجنيقا ، وألحوا بالرمل وشرعوا في نقب السور . وفي تاسع صفر ركبوا الأسوار » (٦) . وبذلك اقتحم المغول أسوار مدينة حلب المنيعية واضطرت الى التسليم ، واستباحها هولاء لجنوده سبعة أيام قتلوا خلالها خلقا كثيرا ، وسبوا النساء والأطفال ، ونهبوا الدور والمتاجر ونشروا في أرجاء المدينة الخراب والدمار وقتل أن يغادر المغول المدينة تركوها شعلة من اللهب والدخان . يقول محمد كرد علي في شأن ما فعله المغول في حلب : « وأحاط القتر بحلب وقتلوا مقتلة عظيمة حتى لم يسلم من أهلها الا من التجأ الى دار شهاب الدين بن عمرون ودار نجم الدين أخى مردكين ودار البازيار ودار علم الدين قيصر وبخانقاه زين الدين الصوفي وكنيسة اليهود وذلك لفرمانات كانت بأيديهم . وقيل انه سلم بهذه الأماكن ما يزيد على خمسين ألف نفس . ونازل القتر القلعة وحاصروها وبها المعظم ومن التجأ اليها من العسكر ، واستمر الحصار

(٥) محمد كرد علي : خطط الشام ، ج ٢ ، ص ١٠٥ .
(٦) الحافظ الذهبي : العبر في خبر من غير ، ج ٥ ، ص ٢٤١ .

عليها ومضايقة التتقر لها نحو شهر ثم سلمت بالأمان ، وأمر هولأكو أن يمضى كل من سلم الى داره وأن لا يعارض ، وجعل النائب بحلب عماد الدين القزويني « (٧) » وكان ابن العبري المؤرخ صاحب كتاب « تاريخ مختصر الدول » في ذلك الوقت يشغل منصب رئيس أساقفة حلب فسارع الى المغول وقدم طاعته وولاءه الى هولأكو خان . واستغل « هيثوم » ملك أرمينية وحليف المغول وشريكهم في فتح حلب الفرصة فأحرق الجامع الكبير انتقاما من المسلمين . كما قام هولأكو خان باعطاء حليفه ملك الأرمن جزءا من الأنفال ، وأعاد اليه الأقاليم والقصور التي كان قد استولى عليها مسلمو حلب . كما رد هولأكو أيضا الى « بوهمند » ملك كيليكية الصليبي جميع الأراضي التي كان المسلمون قد اقتطعوها منه . وقبل أن يغادر هولأكو خان المنطقة حمل من الأسرى مائة ألف من النساء والشباب وأمر بقتل بقية السكان وتدمير مدينه حلب .

وجاء دور دمشق اثر حلب حيث قام حاكمها الملك الناصر يوسف بحشد كل ما استطاع جمعه من قوات عند « برزة » لصد المغول والوقوف في وجههم ، وانضم اليه كثير من المتطوعين من المدن الشامية وكذلك البدو الذين تواغفوا على دمشق لمساندتها في محنتها حتى بلغ جيشه مائة ألف مقاتل . ولكن ما أن بلغ نبا اقتراب المغول الى مسامح هؤلاء حتى انفضوا ، وفر كل واحد منهم لا يلوى على شيء بعد أن أيقنوا أنهم أعجز من أن يققوا في وجه هذا السيل العرم ، وتركوا مواقعهم المخصصة لهم في ميدان القتال والحراسات ، وفروا صوب الجنوب . كذلك فعل الملك الناصر يوسف الأيوبي ، فقد انسحب من دمشق هو الآخر وفي صحبتته أمير حماة وعدد ضخم من الحاشية والأتباع وما جمعه من أموال وممتلكات واتجه الى غزة بفلسطين ، وتركوا المدينة وشعبها لمصيرها التعس المحتوم .

وقرر سكان دمشق أن يستسلموا للمغول بعد فرار ملكهم وهروب المدافعين من حصونها وقرر وفد من أعيان المدينة التوجه الى معسكر المغول والاتصال بهولأكو ليطلبوا منه الأمان لأنفسهم ويعرضون تسليم مدينتهم .

(٧) محمد كرد على : خطط الشام ، ج ٢ ، ص ١٠٥ .

وفي هذه الفترة التاريخية العصبية حدث حادث اضطر هولاكو خان الى مغادرة البلاد الشامية والعودة الى العاصمة المغولية عند سماعه خبر وفاة أخيه الخاقان « منكو » وعهد بمهمة مواصلة فتوحاته في الشام ومصر ومطاردة الملك الناصر يوسف الأيوبي الى أحد قواده ويدعى « كيتوبوقا » ، وكان يعتبر من كبار قادة المغول العسكريين وهو الذي تمكن من احتلال دمشق ودخولها دخول الظافرين في سنة ٦٥٨ هجرية (أول مارس ١٢٦٠ م) دون مقاومة . وهكذا سقطت مدينة دمشق حاضرة الأمويين ودرة الشام صريعة تحت أقدام انغزاة المغول ، كما سقطت من قبل بغداد درة العراق وحاضرة الخلافة العباسية . أما قلعة المدينة ، فإنها امتنعت على المغول ، فحاصروها ونصبوا المجانيق التي قام بتشبيدها مهندسون صينيون ، وبدأ المغول يقذفون اندفاعين بوابل من نيرانهم وسهامهم وحجارتهم الى أن استسلمت لهم ، وقتلوا من كان بها من أهالي وجنود على السواء . وما فعلوه بحلب كرروه في دمشق فنهبوا جميع دورها ومتاجرها وهدموا جميع جوامعها ، وأشعلوا فيها النيران فأنت عليها .

وأجمع المؤرخون المسلمون على أنه اثر فتح المغول مدينة دمشق انتظم المسيحيون في مواكب عامة اظهارا لفرحتهم بانكسار المسلمين ، وتأبيدهم للمغول والترحيب بهم ، واعتبروا ذلك عنوانا للتشفي والانتقام من المسلمين . وكانوا ينشدون الأناشيد ويحملون الصلابان ، ويجبرون المسلمين على الوقوف لهم احتراماً ، ومن امتنع من المسلمين كان يتعرض للسب والاهانة . وبلغ بهم التحدي مداه ، فقد كانوا يدقون نواقيس الكنائس ويشربون الخمر جهاراً في شهر رمضان ، وكانوا يرشونها على ثياب المسلمين وهم يسيرون في انطراقات ، كما صبوه على أبواب المساجد ، ولم يستثنوا من ذلك حتى الجامع الأموي . فضجر المسلمون من تلك الأفعال ، ورفعوا شكواهم الى قائد المغول « كيتوبوقا » ، فلم يحفل بهم ، بل زجرهم وأهانهم وضرب بعضهم ، وأخذته موجة من التقوى ، فجعل يزور الكنائس ويعظم رجالها على اختلاف مذاهبهم (٨) .

(٨) انظر : الذهبي : دول الاسلام ج ٢ ص ١٢٥ ، المقرئزي : السلوك ج ١ ق ٢ ص ٤٢٥ ، ابن تغري بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٨٠ .

أما الملك الناصر يوسف فانه بعد أو وصله أنباء سقوط دمشق وتدميرها . انفض رجاله من حوله ، وفر هائما على وجهه لا يلوى على شيء ، الى أنلقى كيتو بوقا القبض عليه في جهات الأردن ، فأرسله الى هولاکو خان في تبريز بعد أن وعده باسناد حكومة الشام اليه عندما يستولى على مصر (٩) ، وفي تبريز قتل هولاکو خان بنفسه . يقول محمد كرد علي في كتابه « خطط الشام » تكملة لما ذكرناه ما يلي : « وظل التتر ينتقلون في الشام حتى فتحوه الى غزة ، واستقرت شحائنهم فيه لأن الناصر صاحب دمشق لما بلغه أخذ حلب رحل من دمشق في عسكره الى الديار المصرية ، وفي صحبته المنصور صاحب حماة ، فلما رأى كبراء حماة تخلي ملكهم عنهم توجهوا الى حلب ومعهم مفاتيح بلدهم وحملوها الى هولاکو وطلبوا منه الامان لأجل حماة وشحنة تكون عندهم ، فأمنهم هولاکو خان وأرسل الى حماة شحنة رجلا أعجميا اسمه خسرو شاه ، فقدم حماة وأمن الرعية . واستولى التتر (٦٥٨ هـ) على ميفارقين » (١٠) .

وعلى هذا النحو خضعت بلاد الشام للمغول بعد أن فتحوها بحد السيف وأرغموا أهلها على الخضوع لهم وهولاکو بعيدا عنها ، وبقي اتمام الخطوة التالية وهي فتح فلسطين ومصر . لقائده « كيتو بوقا » ومع عشرة آلاف جندي مغولي يعاونه في ذلك حلفاء المغول من المسيحيين وعلى رأسهم « عيتوم » ملك أرمينية الذي كان يطمح في استرداد بيت المقدس من أيدي المسلمين .

هزيمة المغول على أيدي المماليك :

قبر للمماليك حكام مصر قهر المغول في الصدام الرابع بين المغول والمسلمين وايقاف زحفهم مبددين خرافة الجيش المغولي القهار . وكان يحكم مصر في ذلك الوقت « الملك المظفر سيف الدين قطز » الذي أيقن بخاسته العسكرية منذ البداية أن اندفاع المغول غربا بعد أن احتلوا إيران والعراق

(٩) رشيد الدين فضل الله : جامع التواريخ ، الترجمة العربية ، ص ٣٠٨ .

(١٠) محمد كرد علي : خطط الشام ، ج ٢ ، ص ١٠٧ .

سيكون هدفه مصر وميدانه أرضها ، فهي أقوى وأغنى أقاليم العالم الاسلامى قاطبة وأكثرها رخاء . وتمكن قطز بقوة شخصيته وصلابة عزمته من جمع الممالك حوله فقررروا اسناد الحكم اليه عام ٦٥٧ هجرية (١٢٥٩ م) حتى يواجه الخطر المغولى الذى بات يهددهم :

وكان هولاءكو خان وهو فى بلاد الشام قبل عودته الى عاصمته بآذربيجان لرغبته فى الاشتراك فى انتخاب خلف لأخيه « منكوقا آن » الذى قضى نحبه سنة ٦٥٨ هجرية (١٢٥٧ م) ، قد أرسل خطابا الى السلطان قطز - جريا على عادته - مع أربعة من رسله كله تهديد ووعد لحمله على الخضرع والتسليم ، قال فيها : « من ملك الملوك شرقا وغربا ، القائد الأعظم ، يعلم الملك المظفر وسائر أمراء دولته وأهل مملكته بالديار المصرية أنا نحن جند الله فى أرضه ، سلطانا على من حل به غضبه ، فلکم بجميع البلاد معتبر ، وعننا مزجر ، ليس لكم من سيوفنا خلاص ، ولا من مهابتنا مناص ، فخيولنا سوابق وسهامنا خوارق وسيوفنا صواعق وقلوبنا كالجبال وعدنا كالرمال ، فمن طلب حربنا ندم ، ومن قصد أماننا سلم » (١١) .

جمع السلطان قطز الأمراء وكبار رجال الجيش والدولة واستشارهم فيما يجب عمله ، ولم يكن قادته فى أول الأمر يشاركونه منازلة المغول . ووقف قطز وجماعة من الأمراء وأعلنوا استعدادهم لمواجهة المغول والتضحية فى سبيل الاسلام . ومع أنه خاطب أولئك المتخاذلين يحثهم على التضحية الا أنهم كانوا بين نارين ، مواجهة المغول وهم قوة اشتهرت فى العالم بقسوتها وانتصاراتها أو فنائهم مؤثرين الاستسلام . وما أن رأى السلطان قطز ذبذبة بعض قاداته أظهر امتعاضه منهم فى مؤتمر عقده لتلك الغاية بعد أن غادر القاعة صائحا بأعلى صوته « سأقاتل بمفردى . . . » ، فاضطر القادة المماليك ازاء ذلك المشاركة فى الحرب والوقوف فى وجه المغول وتصافوا فيما بينهم وأنهوا مشاكلهم وتوجهوا الى عدوهم بقلب واحد ، واستدعى قطز رسل هولاءكو خان الأربعة واستقبلهم استقبالا جافا ، وأمر بالقبض عليهم وترك صبيا كان برفقتهم واستبقاه فى خدمته ، وضرب عنق كل منهم أمام باب من أبواب

(١١) القلقشندى : صبح الاعشى ، ج ٨ ، ص ٦٣ .

القاهرة ، ثم علق رؤوسهم الأربعة على باب زويلة . فكان الاجراء الذى أقدم عليه السلطان قطز بمثابة اعلان الحرب ، وكانت تلك الرؤوس أول ما علق على باب زويلة من رؤوس المغول (١٢) .

تحركت طلائع الجيوش المصرية نحو فلسطين فى ٢٦ يوليئ ١٢٦٠ م بقيادة الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى (الملك الظاهر بيبرس فيما بعد) ليتجسس أخبار المغول ويستطلع تجمعاتهم ويمهد الطريق للقوات الرئيسية المصرية الزاحفة نحو فلسطين بالقضاء على أية مقاومة تصادفها وكان من ضمن ما قام به الأمير ركن الدين بيبرس أن هيا طريقا لعبور الجيوش المصرية عبر الاراضى الصليبية حيث رحب زعماء مملكة عكا ببيبرس وتعاطفوا معه وعرضوا تقديم المساعدة فى الحرب التى سيخوضها الجيش المصرى ضد المغول لما لحقهم من أذى وخوفهم من مستقبل مجهول على يد المغول الذين نهبوا صور وبيروت ولم يفرقوا بين مسلمين ومسيحيين . ثم خرج السلطان قطز على رأس الجيش المصرى من قلعة الجبل تتقدمه الطبول وتنفخ أمامه الابواق وتشيعه قلوب الشعب نحو الصالحية فى طريقه الى فلسطين فى مظاهرة وطنية سلمية اشترك فيها جميع أفراد القاهرة ومن وفدوا اليها وامتزج حب الوطن والتضحية فى سبيله بالتعصب الدينى الاسلامى الذى نتج مما فعله المغول بالاسلام والمسلمين ، وذكر المؤرخون المسلمون الذين شاركوا فى هذا العمل الوطنى أن العيون انهمرت بالدموع من الفرحه وأن القلوب خفقت تدعو الله سبحانه وتعالى بنصر جنده وتبديد شمل عدوه . وفى الناحية المقابلة كان كل فرد من أفراد القوات المصرية راكدا أو راجلا قد نسى نفسه فى غمرة هذا اللهيب الوطنى الدينى ولا هم له سوى التضحية والفداء .

وفى صباح يوم الجمعة ٢٨ رمضان سنة ٦٥٨ هجرية (٦ سبتمبر ١٢٦٠ م) بدأت المعركة بهجوم عنيف من فرسان المغول على صفوف المصريين فى عين جالوت قرب الناصرة بين بيسان ونابلس وحمل قطز بنفسه على المغول

(١٢) المقرئزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ٤ ، ص ٤٢٨ - ٤٢٩ .

(م ١٠ - تاريخ الدولة المغولية)

في تلك الموقعة ، وكاد أن يفقد فيها حياته غدا ، إذ سدد إليه ذلك الصبي المغولي رقيق وفد هولاكو والذي استبقاه في خدمته سهما من الخلف ، فوقع السلطان قطز على الأرض ، وأسعفه الفرسان وفتكوا بالصبي . وانزل الجيش المملوكي المصري بالمغول هزيمة منكرة نتيجة الخطة المحكمة التي وضعها قطز بنفسه فشلت قواهم وبيد شملهم ووقع القائد المغولي « كيتوبوقا » (١٣) أسيرا واقتيد إلى السلطان قطز . وجرت محاورة قصيرة بين الطرفين ، قال قطز لكيتوبوقا : أترى كيف أصبحت مأسورا بعد أن كنت أسرا ؟ فأجاب كيتوبوقا : ان أمرت بقتلي فهي إرادة الله وليست بإرادتك ، والويل لكم ان سمع هولاكو بقتلي يا سفاكي دماء أسياكم . فأمر السلطان قطز بقطع رأسه فضربه الأمير المملوكي جمال الدين أقبوس الشمسي بسيفه ، ويذكر الذهبي « أنه كان عظيما عند التتار معتمدا عليه لشجاعته ورأيه ، وكان هولاكو يتبعه برأيه ويحترمه وكان شيخا مسنا كافرا يميل إلى النصراني » (١٤) .

وأعمل الجنود المصريون السيف في الرقاب ، وذبخوا كل مغولي كان على أرض المعركة في الفترة ما بين الصباح حتى الظهر . ووجد المغول أنفسهم للمرة الأولى قد جردوا من مقدرتهم على القتال حيث كانوا يفرضون على أعدائهم ميدان المعركة نفسها وطريقة القتال التي تحلو لهم فتكون لهم الغلبة والنصر . ومن أهم أسباب انكسارهم فقدهم القدرة على المناورة بالخييل كما هي عادتهم عندما ينازلون أعداء لهم ، ولم يغنهم مهارتهم في ركوب الخيل والضرب بالقوس في لحراز النصر وكسب المعركة . وقتل في معركة « عين جالوت » معظم قادة المغول وجزء كبير من مقاتليهم ونجت قلة قليلة تمكنت من الهروب حيث تفرقوا شراذم قليلة في كل اتجاه بحيث أنه ما أن جاء العصر حتى كانت أرض المعركة خالية تماما من المغول ، واستولى المماليك على غنائم هائلة لا تعد ولا تحصى .

ولم يكتف السلطان قطز بما أحرزه من نصر ، فأمر فرقة من الفرسان

(١٣) ، تكتبه المصادر العربية ولا سيما المصرية منها « كتبغا » .

(١٤) الذهبي : العبر ، ج ٥ ، ص ٢٤٧ .

بمقابلة المغول الفارين والإجهاز عليهم قادها الأمير بيبرس البندقدارى فأتى عليهم ، ومن استطاع النجاة من حراب المصريين وسيوفهم ، لم ينبج من أهل البلاد الشامية الموتورين ، واستمر الأمير بيبرس يقتبح فلول المغول ويجهز عليها حتى تطهرت منهم كل أراضى الشام وفلسطين .

وعندما وصلت أنباء هذا النصر الى دمشق ثار أهلها على جيش الاحتلال المغولى وفتكوا بالمغول المقيمين بالمدينة ، وكذلك اليهود والنصارى الذين انضموا الى الغزاة ضد المسلمين ، فأعملوا فيهم السيف ومزقوهم شر ممزق . ويذكر محمد كرد على ما قاله الذهبى في هذه الواقعة وهى متممة لحديثنا ، يقول الذهبى : « ان نصارى دمشق شتمت أثناء مجيء هولاء الى البلاد ، ورفعوا الصليب فى البلد وألزموا الناس بالقيام له ونقضوا العهد ، وصاحوا ظهر الدين الصحيح ، دين المسيح ، فلما انتصر المسلمون على هولاء فى عين جالوت بين بيسان ونابلس وقتل مقدمهم كتبغا جاء الخبر الى دمشق ، فوقع النهب والقتل فى النصارى وأحرقت كنائسهم العظمى . وقال أبو الفداء : ان النصارى استطالوا بدمشق على المسلمين بدق الفواقيس وإدخال الخمر الى الجامع . قال فى الذيل : ان النصارى بدمشق قد شمخوا بسبب دولة القتر وتردد كبار المغول وقادتهم الى كنائسهم ، وذهب بعضهم الى هولاء وجاء من عنده بفرمان لهم اعتناء منهم وتوجه فى حقهم ، ودخلوا به البلد من باب توما وصلبانهم مرتفعة وهم ينادون حولها بارتقاء دينهم دون دين الاسلام ، ويرشون الخمر على الناس بأبواب المساجد ، فركب (المسلمون) من ذلك هم عظيم ، فلما هرب القتر من دمشق أصبح الناس الى دور النصارى ينهبونها ويخربون ما استطاعوا فيها وخربوا كنيسة اليعاقبة واخربوا كنيسة مريم حتى بقيت كوما ، والحيطان حولها تعمل النار فى أخشابها ، وقتل منهم جماعة واختفى الباقون وجرى عليهم أمر عظيم اشتفى به بعض الاشتقاء صدور المسلمين ، ثم هموا بنهب اليهود فذهب قليل منهم ، ثم كفوا عنهم لأنهم لم يصدر منهم ما صدر من النصارى » (١٥) .

(١٥) محمد كرد على : خطط الشام ، ج ٢ ، ص ١٠٧ - ١٠٨ .

أما السلطان قطز فقد غدا عقب معركة عين جالوت سيد الموقف في بلاد الشام حيث لم تستطع بقايا البيت الأيوبي في بلاد الشام مقاومته أو الوقوف في وجهه ، فدخل دمشق دخول الظافرين وقال أبو شامة : ومن العجائب أن القتر كسروا وأهلكوا بأبناء جنسهم من الترك وقيل في ذلك :

غلب القطار على البلاد فجاءهم من مصر تركي يجود بنفسه بالشام أهلكهم وبدد شملهم ولكل شيء آفة من جنسه (١٦)

وبعد أن أطمأن السلطان قطز إلى تطهير بلاد الشام من بقايا المغول ، أعاد أمراء بلاد الشام من أيوبين وغير أيوبين إلى مناصبهم بشرط اعترافهم له بالتبعية . وبذلك استطاع أن يمد سيادة الدولة المملوكية على جميع بلاد الشام وفلسطين ما عدا إمارة الكرك الصليبية . أما في مصر فقد حملت إلى القاهرة رأس « كيتوبوقا » قائد المغول ، وطوف بها في أهم شوارعها وتدافع الناس إلى المساجد يشكرون الله على انتصار جيشهم ودحر أعدائهم . إن معركة عين جالوت تعتبر من المعارك الحاسمة بالنسبة لمصر ، إذ أنقذت البلاد المصرية من خطر الدمار ، ولم يجرؤ المغول بعد ذلك على التقدم نحو مصر . ومن ناحية أخرى عملت على رفع المعنويات الإسلامية وبددت خرافة الجيش المغولي القهار .

أما هولاكو خان غانه لم يستطع أن يتقدم نحو الغرب لانشغاله في حرب مع منافسيه من نفس البيت الچنكيزي ، وكان على رأسهم «بركه خان» ابن جوجي وخان القبيلة الذهبية « آلتون أوردو » الذي شعر بالخطر يهدده من جانب هولاكو خان بعد أن ثبت كفاءة ومقدرة في قيادة الجيوش المغولية انتهى قدمت من منغوليا وفتحت قلاع الاسماعيلية وحطمت الخلافة العباسية . وأراد بركه خان أن يستخلص لنفسه البلاد التي فتحها هولاكو خان ويوسع مملكة « الآلتون أوردو » ، فاستمرت الحرب بينهما فترة طويلة انتصر فيها هولاكو .

(١٦) شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل الشهير بأبي شامة : نيل الروضتين ، حوادث سنة ٦٥٨ هـ ، طبع القاهرة سنة ١٣٦٦ هـ ١٩٤٧ م ، ص ١٨٠ .

وراسل هولاكو خان الخاقان « قوبيلاى قا آن » وأخبره بما حل بالمغول من هزيمة على يد سلطان مصر ، ويستفاد من الرسالة التى أرسلها هولاكو لـ خاقان أن المغول أصيبوا بصدمة قوية حلت بهم لعظم خسائهم فى الرجال والعتاد ، وأبلغه أنه مصمم على الثأر والانتقام ومهاجمة الممالك والقضاء عليهم ، فما كان من « قوبيلاى قا آن » إلا أن أصدر مرسوما يقضى بأن يتولى هولاكو خان وذريته البلاد الواقعة بين شط نهر جيحون حتى بلاد الشام ومصر ، وقام هولاكو خان بعد صدور الرسوم (يرلخ) بتقسيم مملكته على النحو التالى :

- ١ - العراق وخراسان ومازندران الى ابنه الأكبر « أباقا خان » .
- ٢ - أران وأذربيجان الى ابنه « يشموت » .
- ٣ - بلاد الروم (آسيا الصغرى) الى معين الدين سليمان پروانه ، الذى كان وزيرا لسلاجقة الروم ودخل فى طاعة المغول .

وبدا هولاكو خان يستعد لحرب المماليك المصريين لكن الموت عاجله سنة ٦٦٣ هجرية (١٢٧٥ م) حيث توفى فى ١٩ ربيع الآخر سنة ٦٦٣ هجرية وله من العمر ٤٨ سنة بعد أن حكم إيران وغرب آسيا مدة ١٢ سنة . ويذكر الحافظ الذهبى وصفا لهولاكو يقول فيه : « طوى الممالك وأخذ حصون الاسماءيلية وأذربيجان والروم والعراق والجزيرة والشام . وكان ذا سطوة ومهابة وعقل وغور وحزم ودهاء ، وخبرة بالحروب وشجاعة ظاهرة وكرم مفرط ومحبة لعلوم الأوائل من غير أن يفهمها . مات على كفره فى هذه السنة (٦٦٤) نبعلة الصرع ، فانه اعتراه منذ قتل الشهيد صاحب ميافارقين الملك محمد بن غازى ، حتى كان يصرع فى اليوم مرة ومرتين . وقيل مات فى ربيع الآخر من العام الماضى بمراغه ، ونقلوه الى قلعة تلابنو عليه قبة . وخلف سبعة عشر ابنا . تملك عليهم ابنه أبغا . وكان القان قد استناب هولاوو لا رحمة له ، على خراسان وأذربيجان وما يفتحه » (١) .

والى جانب اللفظائح التى ارتكبتها هولاكو كقائد مغولى فى حق الاسلام والمسلمين ، وأصبح فى نظرهم وفى صفحة التاريخ الاسلامى شخصية منفرة

تربية ، الا أنه كان يميل الى البناء والعمران وترك آثارا عديدة في مدينة
 مراغة . وكان هو لاكم يميل الى العلوم وتعلمها ، وله عشق زائد بالحكمة
 والنجوم وعلاقة بالكيمياء . وكان بوذى المذهب وان مال الى المسيحية فنتيجة
 علاقته بزوجته « دوقوز خاتون المسيحية » وكان من مستشاريه أرمنى يدعى
 « وارطان » فازداد في عهده نفوذ الارمن والمسيحيين حتى أنهم بدلوا المساجد
 الى كنائس وتناولوا على المسلمين أيما تناول .

الباب الثالث

الفصل السابع

أيلخان فارس من عهد أباقا حتى بايدو (العصر الوثني)

أباقا خان (٦٦٣ - ٦٨٠ هـ = ١٢٦٥ - ١٢٨٢ م) :

تولى أباقا خان العرش الأيلخاني بعد وفاة والده هولاكو خان سنة ٦٦٣ هجرية ، وكانت الدولة المغولية في إيران والتي أرسى قواعدها والده هولاكو تشمل جميع الأراضي الممتدة بين نهر جيحون إلى المحيط الهندي ومن السند إلى الفرات مع جزء كبير من الأناضول وبعض أقاليم القفقاز . وقد اجتمع ممثلو الأسرة الجنكيزية المتواجدون في غرب آسيا وشكوا قوريلتايًا مصغرا أشبه بذلك الذي يشكل في منغوليا والصين وانتخبوا أباقا إيلخانا على إيران وقوابعها . وقد أسهمت والدته « دوقوز خاتون » أرملة هولاكو المسيحية في انتخابه بالتعاون مع مستشارها الأرمني « وارطان » ، وتم ذلك في الثالث من رمضان سنة ٦٦٣ هجرية . وبعد خمس سنوات أيد اختياره « قوبيلاي قاآن » الخان الأعظم للمغول في خانبالق (بيكين) .

ولد أباقا خان في منغوليا في شهر مارس سنة ١٢٣٤ م ، ووفد على إيران عام ١٢٥٦ م مع أبيه هولاكو ، واشترك في معظم الحروب التي تمت في عهد أبيه . ونلاحظ منذ تولية أباقا خان أن نفوذ المغول الأصليين في قراقورم وبيكين كان ينمحي بالتدريج حيث أن خلفاء هولاكو كانوا يسيرون على سنن سلاطين إيران المحليين منذ استقرارهم في إيران ، كما اتبعوا رسومهم وتقاليدهم بجوار السنن المغولية والياسا الجنكيزية حتى يمكن وضعهم في عداد طبقة من سلاطين إيران .

وكان حكام إيران من المغول يحملون لقب « إيلخان » للدلالة على أنهم تنافوا يتبعون الخاقان في بيكين ، ولذلك ظل هذا الاسم قائما حتى وفاة

قوبيلاي سنة ١٢٩٤م . وقد حلت تلك الرابطة الوثيقة الصلة بدخول حكام إيران المغول في الاسلام نهائيا سنة ١٢٩٥ م . ومنذ ذلك الوقت اختفى اسم الخاقان من السكة الايرانية وحل لقب « الخان » محل لقب « ايلخان » . ومع ذلك فقد جرت عادة المؤرخين على أن يطلقوا على حكام المغول في إيران حتى نهاية دولتهم في سنة ٧٥٦ هجرية (١٣٥٥ م) اسم « العصر الايلخاني » .

وكان أباقا بوزيا فساعد ذلك على انتشار الديانة البوذية بين مغول إيران ، ونشط الرهبان البوذيون في التبشير ، وهم المعروفون باسم « البخشوية » (بخشيلر) . وفي الوقت نفسه أظهرت الدولة الايلخانية إثارها للمسيحيين ، وخاصة النساطرة الذين كانت تنتمي اليهم زوجة هولكو الاثيرة « دوقوز خاتون » وأم أباقا ، وإن كانت قد توفيت في نفس العام الذي توفي فيه زوجها هولكو (أى سنة ١٢٦٥ م) . كذلك ناصب الايلخانيون في عهد أباقا خان المسلمين البغاء ، خاصة أهل السنة والجماعة الذين كان العباسيون والمالكيك منهم . وفي مقابل ذلك نجد المغول يتسامحون مع الشيعة . وكان لهذا التسامح آثار واضحة تظهر لنا في مركز الشيعة الاجتماعي ونشاطهم في نشر المذهب الشيعي والسماح لهم بالاشتراك في حكم الدولة .

وما أن خلف أباقا والده على العرش الايلخاني حتى بادر الى العمل على إعادة سمعة المغول الحربية الى سابق عهدها ، ومن ثم سار على سياسة أبيه في مناوأة المالكيك ومصادقة الصليبيين والمسيحيين عامة ، وقام بتنظيم شؤون الدولة داخليا فولى قائده الأمير « سونجاق » حكم فارس وبسلاد الجزيرة ، وهذا بدوره فوض حكومة العراق الى علاء الدين عطا ملك بن محمد الجويني في نفس المنصب الذي كان يتولاه على بغداد منذ عام ٦٦١ هجرية . كما رأس أخوه شمس الدين محمد بن محمد الجويني الادارة في فارس ، وكان يطلق عليه « صاحب الديوان » (أى وزير المالية) . واتخذ أباقا من تبريز عاصمة لدولته ، واحتلت في عهده مكانة ممتازة ساعدها على ذلك أنها لم تصب بأضرار جسيمة ابان العهد المغولي الأول . وإن كان يرجع السبب

الرئيسى فى ازدهارها الى الاخوين شمس الدين محمد الجوينى وعلاء الدين عطا ملك .

وكانت علاقة أباقا خان بالمسيحيين حسنة للغاية خصوصا وأنه سار على سياسة والدته «دوقوز خاتون» التى كانت تمنح الامتيازات للمسيحيين . ومع أنه كان بوذيا الا ان المسيحيين أصبحوا فى عهده أصحاب قدرة وسطة ذبيرة . كذلك تزوج أباقا بمريم ابنة امبراطور القسطنطينية والمعروفة فى التاريخ باسم «ديسبينا خاتون» . وكان والدها ميخائيل باليولوجوس قد زوجها لهولاكو فقدمت ايران على هذا الاساس ، الا أن هولاكو كان قد توفى قبل وصولها الى تبريز فتزوجها ابنه أباقا ، ولما كانت مريم مسيحية نانها اشترطت على زوجها أباقا أن يتنصر فوافقها على ذلك لكنه استمر على وثنيته ، ونتج عن هذه الزيجة أن ازداد نفوذ المسيحيين بصفة عامة والأرامنة منهم بصفة خاصة وسعى أولئك وهؤلاء الى الايقاع بالمسلمين والعمل على القضاء عليهم .

وكانت سياسة أباقا التى انتهجها خيال المسيحيين قد مكنت الدولة من الدخول فى علاقات دبلوماسية مع الغرب المسيحى ، تلك العلاقات التى بدأت بالفعل منذ عهد هولاكو ، لكنها أصبحت مشهودة وزانخة فى عهد أباقا ، فأدى ذلك الى قيام علاقات أوثق مع المقر البابوى فى عهد البابا كليمنت الرابع Clement IV وجريجورى العاشر Gregory X ونيقولا الثالث ، كذلك مع فرنسا فى عهد لويس التاسع (القديس لويس) ، وكان أباقا يأمل من توطيد علاقاته بالغرب المسيحى تنظيم حملة مشتركة ضد المماليك فى مصر وسورية ، وان كانت الآمال التى كان يرمى أباقا الى تحقيقها من وراء تحالفه مع المسيحيين لم تتحقق حيث كانت الروح الدينية والمعنوية عند الصليبيين قد ضعفت ، ومن ناحية أخرى ضعفت سلطة البابوات حتى أصبحوا أتباعا للأباطرة والملوك .

وفى سنة ٦٧٣ هجرية (١٢٧٤ م) أوفد أباقا خان وفدا مغوليا اشترك فى المؤتمر الدينى المسيحى الذى عقد فى مدينة ليون بفرنسا ، وهو المؤتمر الذى أمر بتشكيله ، ورأسه البابا جريجورى العاشر . وكان أباقا يأمل من

وراء اشتراكه في ذلك المؤتمر الكنسي الكبير أن يصل الى اتفاق مع الدول المسيحية للاشتراك في اتحاد ضد المسلمين ، لكن هذا الحلف لم يؤد الى نتائج حاسمة لعدم اطمئنان الأوروبيين من حليفهم الجديد لما اشتهر عن المغول من وحشية وتطرف وغدر . وهناك مكاتبات متبادلة في هذا الشأن أيضا مع كل من البابا جان الحادي والعشرين ونقولا الثالث ولكنها لم تصل الى حل نهائي نتيجة السمعة الرهيبة والخوف من خيانة المغول المحتملة وانفضاضهم من الحلف اذا ما وجدوه في غير صالحهم . وقد نتج عن اتصال أباقا بالمسيحيين وايثاره اياهم أن نفر المسلمون في كل من ايران والعراق من أباقا خان . وأخذوا ينظرون الى تصرفاته العدائية حيالهم بآلم وحسرة وهم لا يستطيعون مقاومتها أو إيقافها .

وكانت هناك أحداث هامة وقعت في عهد أباقا خان لها تأثير كبير على سياسة الدولة الايلخانية الخارجية والداخلية تتمثل في الحروب التي نشبت بين مغول ايران الايلخانيين ومغول القيقاق بقيادة « بركه خان بن جوجي » من ناحية ، ومغول التركستان بقيادة « براق خان » من ناحية أخرى . وفي الحرب الاولى التي شنّها أباقا خان على خان القبيلة الذهبية « بركه خان » تمكن من هزيمة أعدائه وقتل منهم عددا كبيرا ، وكان سبب الحرب بين الفئتين المغوليتين أن تمكن « فوقاي » قائد بركه خان من هزيمة يشموت ابن هولكو حاكم أران وأذربيجان فانتهر أباقا خان الفرصة التي واقتسه بموت « بركه خان » في سنة ٦٦٤ هجرية فهجم على أعدائه في الشرق وهزمهم .

أما المعركة الثانية فكانت في الرابع عشر من شهر ذي الحجة عام ٦٦٨ هـ (١٢٧٠ م) عندما نجحت جيوش أباقا خان نجاحا باهرا من إيقاع الهزيمة بجيش چغتائي كان يقوده براق خان بالقرب من مدينة هرات وعلى بعد ثلاثين كيلو متر منها . وكان أباقا خان يريد من وراء حملته تلك القضاء على الهجمات التي يشنها أبناء عمومته المغول على أراضي مملكته ، فافتهز فرصة نشوب القلاقل في بلاد ما وراء النهر وتوجه الى بخارى في شهر يناير عام ١٢٧٣ م وخربها تماما بحجة أنها الملجأ والقاعدة الجربية للجيوش المغيرة . ولا شك أن الخلاف الذي قام بين أفراد البيت المغولي قد ساعد على

ضعف وتشتت قواهم ولم يتمكنوا من الايقاع بالممالك حكام مصر والشام .

كذلك كان من أهم الأحداث التي وقعت في عهد أباخان حربه مع الممالك في بلاد الشام ، وإذا كان أباخان قد نجح في إيقاع الهزيمة بأعدائه من أمراء المغول القيقاق والتركستان إلا أنه لم يتمكن من الانتصار على أعدائه الممالك حكام مصر حيث كانت كفة الممالك راجحة على المغول والصليبيين في آن واحد .

حروب الممالك والمغول في بلاد الشام :

وقعت حروب ثلاثة بين المغول والممالك انتصر فيها الممالك انتصارا باهرا ، وثأروا لما وقع للمسلمين من قتل وتشريد واذلال في التركستان وإيران وخوارزم والسند والعراق ، فأوقفوا بذلك المغول عند حدهم ، وأثبتوا للعالم تجمع تفوقهم الحربي ، وأرهبوا الصليبيين وأجبروهم على الانصراف عن حربهم فلم يفكروا في شن حروب جديدة أو الاشتراك في معارك خاسرة ، وانصرفوا كلية عن حرب الممالك . وتوفي الملك المظفر سيف الدين قطز في عام ٦٥٨ هجرية ، وهي السنة التي انتصر فيها على المغول وقضى على توتهم في معركة عين جالوت ، وخلفه الملك الظاهر بيبرس البندقداري الذي وضع سياسته الحربية بحيث يمكنها الوقوف في وجه المغول وأعوانهم ، وجهاز جيشا قويا ذا استعداد سليم وقدرة قتالية فائقة ووضع خطته بحيث تكون الغلبة للجيش المصري باستمرار . وكان أول شيء فعله أن أراد معاقبة مملكة أرمينيا الصغرى وإمارة انطاكية / طرابلس لتحالفهما مع المغول ضد المسلمين ، فأرسل فرقة من جيشه بقيادة الأمير سيف الدين قسلاوون استولت على القليعات وحلباء وعرقه ، وهي المراكز الثلاثة التي كانت تكون شبه مثلث تحمي طرابلس من جهة الشمال والشمال الغربي ، فجاء الاستيلاء على تلك المدن مهددا لطرابلس ذاتها . وانتهاز الممالك فرصة انشغال أباخان بالحرب ضد مغول القيقاق المسلمين من جهة ، ومغول التركستان الإيفغانيين من جهة أخرى ، فانفردوا بملك أرمينية الصغرى « هيثوم الأول » حليف المغول ومستشار هولاء والمغول ومحرضهم الأكبر على قتال المسلمين ، وكان هيثوم الأول قد اتبع سياسة جديدة في حربه الممالك في مصر حيث فرض حصارا عليهم ، ومنع تصدير الأخشاب والحديد من آسيا الصغرى إلى

مصر . وزحف الجيش المملوكى فى صيف عام ١٢٦٦ م تحت قيادة الامير قلاوون (السلطان قلاوون فيما بعد) والملك المنصور الثانى الايوبى صاحب حماة لمهاجمة دولة أرمينية الصغرى . واستطاع الحلف الاسلامى ان يوقع الهزيمة بالأرمن وحلفائهم الصليبيين والمغول فى ٢٤ أغسطس سنة ١٢٦٦ م عند « دير بساك » قرب انطاكية ، وقتل فى المعركة أحد أبناء الملك هيثوم الأول وأسر ابن ثان له فى حين كان هيثوم نفسه متغيبا عن بلاده فى تبريز يستجدى مساعدة المغول (١) .

ولم يلبث الامير قلاوون أن أغار على المدن الأرمينية الرئيسية الثلاث فى قيليقية وهى المصيصة وأذنة وطرسوس ، فضلا عن ميناء ايباس . أما الملك المنصور الثانى الايوبى فقد اتجه الى سبى عاصمة دولة أرمينية الصغرى واستولى عليها وجعل عاليها سافلها ، ثم أشعل النار فيها فدمرتها . رأيت على كنيسيتها ومقابر ملوك أرمينية السابقين (٢) . وبعد أن قضى جيوش الحلف الاسلامى المشكل من المماليك أساسا وحلفائهم من أمراء البيت الايوبى بالشام التابعين لهم فى أرمينية عشرين يوما ، عادوا الى بلاد الشام ومعهم أربعون ألف أسير ، ومن الغنائم ما لا يعد ولا يحصى « حتى بيع رأس البقر بدرهمين ولم يوجد من يشتريه » (٣) .

وأخيرا عاد هيثوم الأول الى مملكته ومعه بعض المغول ، ولكن بعد أن وقعت الواقعة ودمرت دولته وتشتت شعبه ، وانتهت العملية العسكرية الانتقامية التى قام بها المماليك وحلفاؤهم فحاول هيثوم الأول أن يسترد ابنه الأسير من الامير قلاوون لكنه لم يتمكن من ذلك الا بعد أن تخلى المماليك عن عدة مراكز استراتيجية هامة تتحكم فى طريق المواصلات بين أرمينية والجزيرة حيث يقيم المغول حلفاء هيثوم الأول .

أما الحرب الثانية التى شنها المماليك على المغول ، فكانت بسبب

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٤٠ . وأيضا أبو الفداء : المختصر حوادث سنة ٦٦٤ هجرية .
(٢) مفضل بن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد ، ص ١٥٢ .
(٣) المتريزى : السلوك ، ج ١ ، ص ٥٥٢ .

دحاولة المغول تكوين حلف صليبي مشترك للوقوف في وجه المماليك أو إنقضاء عليهم ان أمكن . ذلك أن أباقا خان قام بإرسال مجموعة من الرسائل إلى بابا روما وإلى إدوارد الأول ملك إنجلترا. في أواخر عام ١٢٧٣ م ، وكان الأخير قد قدم إلى بلاد الشام على رأس حملة صليبية صغيرة عام ١٢٧١ م وعاد إلى بلده بخفي حنين دون الوصول إلى شيء يذكر ، وكان إدوارد الأول من أشد المتحمسين لسياسة التحالف مع المغول والاستعانة بهم في القضاء على قوة المماليك في مصر والشام . وعندما عقد مجمع ليون الكنسي في المدة ما بين شهري مايو ويوليو عام ١٢٧٤ م حضره مبعوثان من قبل أباقا خان عرضا على قادة الغرب من جديد مشروع تحالف صليبي مغولي . وبعد أن تم تعييد المبعوثين المغوليين على المذهب الكاثوليكي انصرفا دون أن يظفرا بوعده بتجهيز حملة صليبية جديدة تخرج من الغرب لحرب المسلمين على أن تتقابل مع جيش مغولي يأتي من الشرق لتطويق المماليك ، والواقع أن الحماسة الصليبية لحرب المسلمين كانت قد فترت في ذلك الوقت عند الغرب الأوروبي . وكان أباقا خان دائم الاتصال بملوك الغرب ويرسل السفارات بين الحين والحين لأنه جعل همه الشاغل إبادة المماليك لا أقل مهما كلفه من تضحيات وبأي تحالف أو قوى أخرى من أي جنس أو دين . وفي شهر مارس عام ١٢٧٧ م أرسل أباقا خان سفارة إلى البابا وملك إنجلترا لاستعجال مشروع الحملة الصليبية التي ستساعد المغول في حرب المماليك (٤) .

وكان السلطان الملك الظاهر بيبرس على علم بكل ما يحاك ضد دولته والمسلمين عامة من مؤامرات ودسائس ، فقرر مهاجمة أعدائه والأجهزة عليهم وتشيت جمعهم قبل أن يفاجئوه ويتمكنوا منه ، فجهز جيشا مملوكيا غزا به مملكة أرمينية الصغرى للمرة الثانية في شهر مارس ١٢٧٥ م وأغار على مدنها برا وبحرا ، ولم يجرؤ الملك « ليو الثالث » ملك أرمينية الصغرى ، والذي خلف والده « هيثوم الاول » على العرش الأرمني على الوقوف في وجهه (٥) وتمكن السلطان المملوكي من تجميد قوة ملك أرمينيا وابعادها كلية عن مسرح القتال و الاشتراك مع المغول في معارك قادمة . ثم

(٤) Grousset, R., L'Empire Mongol, III, Paris, 1945, P. 693.

(٥) المقریزی : السلوك ، ج ١ ، ص ٦١٧ - ٦١٨ .

أدار السلطان الملك الظاهر بيبرس وجهه للمغول للانتقام منهم لغزوهم بلاد الشام عام ١٢٧١ م بعد أن تمكنوا من دخول سوريا عن طريق الاناضول وتجاوزهم حلب الى معرة النعمان وعاثوا في البلاد فسادا لكنهم انصرفوا راجعين وانسحبوا خلف نهر الفرات بعد أن شعروا باستعداد المماليك وعدم وجود قوة معهم تكفى لمواجهة الجيش المملوكي ، فأغار السلطان الملك الظاهر بيبرس على بلاد سلاجقة الروم بالاناضول والتي كانت مشغولة بالحماية المغولية ، وتمكن سلطان المماليك من ايقاع هزيمة منكرة بالجيش المغولي بالاناضول عند صحراء « أبلستين » في ١٨ ابريل عام ١٢٧٧ دون أن يستطيع الملك السلجوقي كيخسرو الثالث - الذي كان صغيرا - أو وزيره معين الدين سليمان پروانه وقف ذلك الخطر (٦) . وبعد أن احتل السلطان الملك الظاهر بيبرس مدينة قيسارية في ٢٣ أبريل من نفس العام ، أعلن نفسه وريثا لسلطين سلاجقة الروم في حكم الاناضول ، وجلس على عرش آل سلجوق ، وخطب له على منابرهما . كما أعلن الوزير معين الدين سليمان پروانه خضوعه وولاءه لسلطان المماليك ، فأبقاه في منصبه ، واكتفى السلطان الملك الظاهر بيبرس بما فعله من دحر المغول وابعاد نفوذهم عن آسيا الصغرى ، وعاد الى بلاد الشام (٧) .

وما أن سمع أباخان بما وقع لجنوده في الاناضول حتى انتقل الى مدينة قيسارية في السنة ذاتها. (١٢٧٧ م) ليثأر لجيشه المهزوم وليعيد نفوذ المغول وحكمهم في الاناضول مرة ثانية . ولما دخل مدينة قيسارية صب على أهلها وابلا من العذاب وانقم من مسلميها شر الانتقام لمقابلتهم سلطان مصر بالترحاب ، ثم انتقل الى مكان المعركة في أبلستين . وزاد من غضبه أنه شاهد جنود المغول صرعى ولم يشاهد أحدا من عساكر الروم مقتولا ، فأمر بنهب بلاد الروم كلها وقتل كل من يصادفونه من المسلمين ، فقتل جنوده ما يزيد على مائتي ألف نفس (٨) ، كذلك قتل الوزير معين الدين

(٦) مفضل بن أبي الفضائل : النهج السديد ، ص ٢٥٩ وما بعدها .
 (٧) المقرئزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٦٣١ .
 (٨) الذهبي : العبر ، ج ٥ ، ص ٣٠٥ .

سليمان پروانه لما نسب إليه من تعاونه مع المماليك ومكاتبته إياهم (٩) .
ويروى المؤرخ الإيراني رشيد الدين فضل الله مؤرخ المغول أن أباقا خان
بكى عندما شاهد قتل المغول مكسين ، وحزن على رجاله حزنا شديدا (١٠) .
وأكد واقعة قتل المسلمين المؤرخ المصري المقریزی فذكر أن أباقا خان « قتل
من ببلاد الروم من المسلمين ، ويقال انه قتل من الفقهاء والقضاة والرعايا
ما يزيد على مائتي ألف نفس ، ولم يقتل أحد من النصاري » (١١) .

ووجد أباقا خان نفسه في وضغ لا يسمح له بقتال المماليك بمصر
والشام ، خاصة وأن قوة المماليك العسكرية وحماسهم الديني كان قويا
رهيبا ، فما كان منه الا أن أثار من جديد تشكيل حلف من المسيحيين والمغول
لنقوف في وجه المسلمين ، وبني سياسته على اعتبار أن المسيحيين حلفاء
طبيعيين له ولحولته . فكان أول من صادفه « ليو الثالث » ملك دولة أرمينية
الصغرى ، فعقدا حلفا مشتركا ، واتفقا على القيام بحملة كبرى على بلاد
الشام لطرد المماليك واستخلاص بيت المقدس للمسيحيين . كما اتفقا على
إرسال الرسل إلى المجر البابوي وملوك أوروبا لإطلاعهم على تحالفهما ، وطلب
منهم جميعا الانضمام إلى الحلف وإرسال حملة صليبية إلى بلاد الشام ،
لتساهم في القضاء على المماليك عدوهم المشترك (١٢) . لكن أباقا خان لم
يصله رد واف على اشتراك الأوروبيين في حملته ، وفي الوقت نفسه انشغل
باضطرابات نشبت في إيران مما صرف نظره مؤقتا عن فكرة مهاجمة
المماليك (١٣) .

ومع أن الجبهة المضرية المغولية كانت مادتة إلى حد ما ، إلا أن انتصار

-
- (٩) الذهبي : العبر ، ج ٥ ، ص ٣١٠ .
(١٠) رشيد الدين فضل الله : جامع التواريخ - المجلد الثاني من الجزء
الثاني ، ص ٦٢ - ٦٣ .
(١١) المقریزی : السلوك ج ١ ، ص ٦٣٣ ، أبو المحاسن : النجوم
ج ٧ ص ١٦٩ - ١٧٤ .
(١٢) Grousset; L'Empire Mongol, III, P. 695 - 696.
(١٣) رشيد الدين فضل الله : جامع التواريخ - المجلد الثاني من الجزء
الثاني ، ص ٦٣ - ٧٠ .
(م ١١ - تاريخ الدولة المغولية)

المماليك كان يؤرق أباقا خان ، وكان كل ما يستطيع عمله هو أن يصب جام غضبه على المسلمين في ايران الذين كانوا لا حول لهم ولا قوة . وقد شجعت الأحداث التي حدثت بالدولة المملوكية اثر وفاة السلطان الملك النظارهريبيرس سنة ١٢٧٧ م ايلخان المغول الحاقد على مصر والمماليك ، ونشوب الخلافات بين الامراء المماليك على السلطة في القاهرة ، واغتصاب الامير سنقر الاشقر حكومة الشام ، واعلانه سلطانا على بلاد الشام في شهر أبريل سنة ١٢٨٠ م على التدخل في بلاد الشام للنيل من أعدائه المماليك في مصر ، فأخذت جيوش المغول تجتاح الحدود السورية ثانية مرتكبة نفس الفظائع التي ارتكبوها منذ عشرين عاما ، ، وقد شجعهم على ذلك اتصال سنقر الاشقر بالمغول واتفاقه مع أباقا خان بأنه سيعمل على مؤازرته والوقوف معه في قتال سلطان المماليك في مصر . ويؤكد ذلك ما ذكره المقریزی من أن الامير « طرنتاي » لما أسر بعض أصحاب منكوتر ومن بينهم حامل محفظته عثر فيها على كتب من سنقر الاشقر وأتباعه من الامراء يحرضون فيها المغول على دخول الشام ويعدونهم المساعدة (١٤) . ولكن السلطان سيف الدين قلاوون الذي تمكن من تولي السلطة في مصر في شهر ديسمبر ١٢٧٩ م تمكن أيضا من ايقاع الهزيمة بالامير سنقر الاشقر في شهر يونيو سنة ١٢٨٠ م ، فلجأ الأخير الى المغول يستجدي مساعدتهم ، فانتهر أباقا خان وحليفه ليو الثالث الفرصة وأرسل قوة استطلاعية مغولية الى شمالي بلاد الشام استطاعت أن تحتل عيقتاب ودير بساك ، ودخلت حلب ونهبته « وأحرقوا الجامع والمساجد والمدارس المعتبرة ودار السلطنة ودور الامراء » (١٥) وانتهز أباقا خان الفرصة وأخذ يجيش الجيوش ويعيد العدة لحملة جديدة ضد المماليك .

وما أن علم أمراء المماليك بما فعله ايلخان المغول من اجتياحه البلاد السورية حتى اتحدوا فيما بينهم وتعاهدوا على مواجهة المغول صفا واحدا ونبذوا الخلافات التي كانت بينهم بسبب السلطة والتفوا حول الملك المنصور سيف الدين قلاوون الذي وجه همه الى صد غارات المغول ، وأرسل

(١٤) المقریزی : السلوك - الجزء الأول - القسم الثالث ، ص ٦٩٧ .

(١٥) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٢٩٩ .

جزءاً من الجيش المملوكى عسكر بالقرب من حماة . ومن ناحية أخرى راسل أمراء المماليك سنقر الاشقر وقالوا له : « وهذا العدو قد دهمنا وماسببه إلا الخلف بيننا ، وما ينبغى هلاك الاسلام ، وكان لذلك القول أثره في نفس سنقر الاشقر فمنع جنده من محاربة المصريين » (١٦) .

ويصف المقرئى ما حدث لبلاد الشام من جراء حملة أباخان بقوله : « ولما وصلت الأنباء بزحف المغول الى أطراف حلب أخلاها أهلها ومن كان معسكراً فيها من الجنود ونزحوا الى حماة وحمص ، ولم يمض على ذلك وقت طويل حتى هجمت طوائف المغول على أعمال حلب واستولوا على عينتاب ودريساك ، ودخلوا حلب نفسها فأحرقوا ما بها من الجوامع والمدارس ودور الأمراء ، كما ارتكبوا في هذه الولاية من صنوف الوحشية والعسف ما اضطرب الأهالى الى الفرار نحو الجنوب ، ثم رحلوا عنها عابدين الى بلادهم بما أخذوه من الأسلاب والغنائم ، أما أهالى دمشق فقد تملكهم الهلع والرعب ، وهاجر منهم خلق كثير الى مصر ليحتموا بها » (١٧) .

وقاد الحملة المغولية أباخان نفسه وقدم نحو الشام ومعه الجيش الرئيسى من اقليم الجزيرة في شهر سبتمبر عام ١٢٨١ ، كما قاد أخوه « منكوتر » جيشاً آخر وقدم الى الشام من كبادوكيا عن طريق عينتاب ، وانضم اليه جيش مسيحي بقيادة ليو الثالث ملك أرمينيا (١٨) . وكان جيش منكوتر يقدر بخمسين ألف مقاتل وانضم اليه قرابة ثلاثين ألفاً آخرين من حشود وجموع من أجناس مختلفة مثل الكرج والأرمن والعجم وغيرهم » (١٩) . ثم زحف الجيش المغولى بقضة وقضيضة عن طريق وادى نهر العاصى ، فوصل حمص استعداداً للقاء المماليك الذين كان جيشهم يربط بالمدينة تحت قيادة السلطان قلاوون نفسه . وفي موقعة حمص التى دارت بين الفريقين في ٣٠ أكتوبر سنة ١٢٨١م حلت الهزيمة بالمغول ، فلولوا

(١٦) المقرئى : السلوك - الجزء الاول - القسم الثالث ، ص ٦٧٩ .

(١٧) المرجع السابق ، ص ٦٨٠ .

(١٨) رشيد الدين فضل الله : جامع التواريخ - الجزء الثانى -

القسم الثانى ، ص ٨٣ .

(١٩) أبو الفداء : المختصر ، حوادث سنة ٦٠٨ هجرية .

مدبرين عبر الفرات بعد أن قتل منهم عدد كبير . أما ليو الثالث ملك دولة أرمينية الصغرى ، فإنه انسحب عائدا الى بلاده يجر أنيال القشل والخيبة والهزيمة . فتلقاه التركمان والأكراد في الطريق وقتلوه عن آخرهم . ولم يفلت من القتل أو الأسر الا دون العشرين » (٢٠) ، وفكر الفويرى وقعة حمص تلك على النحو التالى : « ونازل أباقا خان قلعة الرحبة ، وتقدم منكوتر ابن هولكو حتى وصل حماة ، وكان جيشه يضم عدة فرق من الأرمن والكرج وكذلك الفرنجة . وقد التقت هذه الطوائف بجيوش السلطان الملك المنصور قلاوون التى كانت تتكون من جنود مصر والشام وفريق كبير من الأكراد والتركمان ، ثم دار القتال بين الفريقين بالقرب من حمص ، حيث حمل جيش المماليك على المغول حملة صادقة انتهت بهزيمتهم وقتل كثير منهم » (٢١) كذلك أورد الحافظ الذهبى واقعة حمص فقال : « أن وقعة حمص كانت في يوم الخميس رابع عشر من رجب سنة ٦٨٠ هجرية ، وكان قائد جيوش المغول منكوتر بن هولكو ومعه مائة ألف ، والتقى به السلطان شمالي تربة خالد بن الوليد . وكانت معركة حاسمة انتصر فيها المسلمون نتيجة الحماس الدينى ، وطايب الموت في سبيل الله ، وانكسر المغول ، وأصيب منكوتر بطعنة وفر من أرض المعركة فاستحكمت هزيمتهم وركب المسلمون أقفيتهم ولما علم أباقا خان بانهزام أتباعه - وهو على الرحبة - رخل الى بغداد ، ولحق به من نجا من المغول وفيهم أخوه منكوتر الذى استاء منه أباقا لعجزه عن الحاق الهزيمة بجند المماليك ، وقال له : « لم لا مت أنت والجيش ولا انهزمت » (٢٢) . أما عن القائد منكوتر المهزوم فيذكر الحافظ الذهبى أنه توفي سنة ٦٨١ هجرية وأنه كان نصرانيا يوم المصاف على حمص ، وحصل له ألم وغم بالكسرة ، واعتراه فيما قيل صرع متدارك كما اعتري أباه هولكو . فهلك في أوائل المحرم بقرية تل الخنزير من جزيرة ابن عمر ، وله ثلاثون عاما ، وكان شجاعا جريئا مهيبا (٢٣)

-
- (٢٠) المقرئى : السلوك - الجزء الأول - القسم الثالث ، ص ٦٨٩ .
 (٢١) الفويرى : نهاية الأرب ، ج ٢٩ ، ص ٨ - ٩ .
 (٢٢) الحافظ الذهبى : العبر ، ج ٥ ، ص ٣٢٦ .
 (٢٣) المرجع السابق ، ص ٣٣٧ .

وهكذا هزم المماليك المصريون أباقا خان في ثلاثة حروب هي : بيره - أبلستين - حمص ، يضاف اليهم هزيمة « عين جالوت » التي وقعت في عهد هولاكو . وبذلك استقرت الحدود الفاصلة بين المغول والمماليك نهائيا بين سوريا وبلاد ما بين النهرين .

سياسة أباقا خان الداخلية :

وكانت سياسة أباقا خان الداخلية هادئة بصفة عامة ، اذ خفض الضرائب عن كاهل الايرانيين تخفيضا عظيما من أجل فقراء الريف . وتميز عصره بتألق شخصيتين ايرانيتين هما المؤرخ الايراني الكبير علاء الدين محمد الجويني وأخوه شمس الدين محمد بن محمد صاحب الديوان ، اللذان كانا السبب الرئيسى في ازدهار دولة أباقا خان ودفع الأذى المغولى عن الأهالى الايرانيين والأخذ بيدهم والوقوف مرة أخرى لمسايرة الحياة العامة التى توقفت تماما فترة الغزو المغولى الأول . وكان شمس الدين صاحب الديوان يجمع بين جباية الضرائب والدخل العام والشئون السياسية التى أدارها بحنق ومهارة ، أما أخوه علاء الدين عطا ملك الجويني فكان حاكما على العراق (ما بين النهرين) ويتمتع باستقلال تام في تصريف شئون العراق ، وقد بذل كل ما في وسعه لتعمير ما خربه المغول ، ونجح في ذلك نجاحا باهرا حتى قال عنه المؤرخون المعاصرون له «أن بغداد بلغت في عهده من الاتساع والعمران أكثر ما بلغته على يد الخلفاء» . كما شبه البعض أسرة الجويني في الدولة المغولية بأسرة البرامكة في الدولة العباسية حيث كانوا أصحاب فضل وأدب وأرباب جود وكرم ، وكانت مجالسهم مقرا للأدباء والكتاب والشعراء .

وفاة الإيلخانيان أباقا خان :

وكان أباقا خان - كمعظم أمراء المغول - مسرفا في الشراب ومات بسببه في أواخر سنة ٦٨٠ هجرية (أول أبريل سنة ١٢٨٢ م) بمرض هفيان السكرى (نوع من الحمى نتيجة السكر الشديد) بنواحي همدان في الفترة ما بين العيدين وله من العمر نحو خمسين سنة بعد أن تربع على العرش الإيلخاني مدة سبع عشرة سنة قضاها في حروب مستمرة مع جيرانه في

الشرق من أبناء عمومته المغول والغرب من أعداء المغول التقليديين المماليك
حكام مصر والشام .

السلطان أحمد تكودار (٦٨١ - ٦٨٣ هـ) :

كان أمراء البيت المالك المغولي في إيران وقادة الجيش في أواخر عهد
أباقا خان في خلاف دائم على السلطة . وانقسموا الى ثلاث مجموعات ،
مجموعة ترغب في تنصيب الأمير أرغون بن أباقا خان العرش الايلخاني ،
ومجموعة أخرى كانت تتعاطف مع تكودار وتؤيد سلطنته على أساس أحقيته
بالمالك طبقا لأحكام الياسا الچنكيزية . أما المجموعة الثالثة والأخيرة فكانت
تتزعّمها « أولجاي خاتون » زوجة أباقا خان . وكانت ترغب في تنصيب أخيه
« منكوتمر بن هولاکو » العرش الايلخاني ، وهو الذي قاد جيش المغول ببلاد
الشام وهزمه المماليك هزيمة منكرة في حمص سنة ١٢٨١م . ولكن الأمير
منكوتمر بن هولاکو توفي قبل موت أخيه أباقا خان وهو في سن الثلاثين من
عمره حزنا وكمدا على هزيمته ، فأنحازت أولجاي خاتون الى جانب أرغون
ضد تكودار . وعمل كل فريق منهم في الخفاء وفي سرية كاملة للوصول الى
هدفه وأغراضه . وكان أباقا خان نفسه يريد أن يخلفه على العرش الايلخاني
ابنه أرغون لكنه لم يستطع تنصيبه مكانه أو الحصول على موافقة الأمراء
وقادة الجيش على ذلك لأن هذا الإجراء يعد مخالفة صريحة لأحكام الياسا
الچنكيزية التي تنص على أن يتولى العرش أكبر الأمراء الأحياء سنا . وعلى
هذا فقد أجمع الأمراء وقادة الجيش على تولية تكودار بن هولاکو العرش
خلفا لأخيه أباقا خان في اجتماع القوريلتاي الذي عقد في « آلتاغ » في السادس
والعشرين من المحرم سنة ٦٨١ هجرية .

والايلخان الجديد هو الابن السابع لهولاکو خان ، وكان في الصين اثنا
حملة أبيه على إيران والشام . وقد رأى الخاقان « قوبيلاي قاآن » أن
يرسله الى إيران في عهد سلطنة أخيه أباقا خان لمساعدته والوقوف بجانبه اثر
الاضطرابات التي نشبت في الشرق والتي كان يذكيها وينميها حكام الدولة
الچغتائية في التركستان ودولة القبيلة الذهبية (آتون أوردو) في حوض نهر
الفرات ، وأيضا تفوق المماليك المصريين في الغرب وهزيمتهم للجيوش المغولية
المرّة تلو الأخرى . وقد تنصر تكودار في طفولته وتعبد في صباه ، وتسمى

باسم « نيقولا » (٢٤) غير أن هواه كان مع المسلمين ولم يكذب يتولى العرش حتى أعلن تحوله للإسلام على مذهب أهل السنة والجماعة ، واتخذ اسم أحمد وتلقب بالسلطان . وبذل قصارى جهده في حمل المغول على الدخول في الإسلام ، وأسلم على يديه كثير منهم بفضل ما منحهم إياه من العطايا وألقاب الشرف (٢٥) .

وكان لإسلام تكودار رنة فرح بين المسلمين ، وبخاصة الإيرانيين منهم ، واستهل عهده بإظهار إخلاصه وتمسكه بالدين الإسلامي والدفاع عنه ، وأرسل كتباً إلى فقهاء بغداد وإلى السلطان قلاوون سلطان المماليك في مصر والشام ، أعلن فيها رغبته في حماية الإسلام والخود عنه والعمل على إعلائه شأنه ، كما أظهر في خطابه للسلطان قلاوون رغبته في أن يظل في سلام ومودة مع جيرانه المسلمين . وقد اعتبره علماء بغداد في ردهم عليه بأنه حامى الإسلام والمسلمين ونعتوه بفاشر دين الله المبين . أما بقية الشعب الإسلامي الواقع تحت نير المغول فقد تجدد الأمل عندهم خاصة الإيرانيين منهم بعد أن غلبوا على أمرهم وملأت الحسرة قلوبهم نتيجة ما اقترفه المغول من فظائع ومصائب ، فتعاطفوا معه وتوطدت علاقة السلطان المغولي بعلماء الدين الإسلامي وعظماء المسلمين ، واتخذهم أصفياء له وأعوانا .

السلطان أحمد تكودار يواجه عداء كبار المغول نتيجة إسلامه :

كان لارتقاء تكودار العرش الإيلخاني واشهاره الإسلام واتخاذ من عظماء المسلمين وعلمائهم أصفياء له دون غيرهم من رجال الديانات الأخرى أن فتح باب الصراع على السلطة والوجود المغولي على مصراعيه ، ووجد منافسوه الفرصة مناسبة فأعلنوا العداء للسافر وجأهروا بمعاداته ومحاربتة . ورغم موجة العداء التي أظهرها أمراء المغول وقادتهم لتكودار نتيجة إسلامه ، إلا أنه عمل على استمالة كافة الأمراء ، فبسط يده بالبذل والعطاء لكافة رجال الدولة ، ووهب الجزء الأعظم من خزائنه إلى اخوته وأقربائه وقادة الجيش المغولي ، ولم يستثن من ذلك منافسه على العرش الإيلخاني « أرغون » ابن

(٢٤) ستيفن رنسيما : تاريخ الحروب الصليبية ، الجزء الثالث ،

الترجمة العربية ، ص ٦٧٢ .

D'Hosson; Histoire des Mongols, Vol. III, P. 553. (٢٥)

أبقا ، بل عامله معاملة طيبة للغاية على أساس أنه ابن أخيه وأقرب الأمراء إليه . لكن أرغون كان يحقد على عمه ويطمح في تولي السلطة ، فاتفق مع أحد أعمامه وكان يسمى « قونغرقاي » على الوقوف في وجه تكودار والعمل على انتزاع العرش منه . كذلك تمكن أرغون من استمالة الوزير « مجد الملك اليزدى » وكان صاحب نفوذ كبير في الدولة الايلخانية والمنافس الخطر للأخوين شمس الدين محمد بن محمد الجويني صاحب الديوان وعلاء الدين عطا ملك بن محمد الجويني ، ولوحا له بالوزارة ان انضم اليهما ووافاهما بأسرار البلاط وتحركات الايلخان . وقد انكشفت المؤامرة ، فأمر السلطان أحمد تكودار بالقبض على الوزير مجد الملك اليزدى ومصادرة أمواله ، وبعد ثبوت التهمة عليه قتل في ٨ جمادى الأولى سنة ٦٨١ هجرية وأرسلت رأسه وأطرافه الأربعة الى أقاليم خمسة من أقاليم الدولة للتشهير به لعدم وفائه وخيانتة وليكون عبرة لغيره . وقد أثارت تلك الفتنة الكثير من المغول لجرأة الوزير على الايلخان . وطبقا لعادات المغول القبلية وقانونهم اللباسا أعدوا جسده للشواء وأكلوه في وليمة رسمية ، وانتهى بذلك مجد الملك اليزدى كما انتهت معه المؤامرة التي دبرها أرغون وعمه . ثم أقدم المغول على الفتك بجميع أفراد عائلته فمضى عليهم جميعا . فكان حادث مجد الملك اليزدى درسا لغيره وسيفا مسلطا على كل من يعمل مع المغول ويخونهم . أما عطا ملك الجويني والذي ناصبه مجد الملك اليزدى العداء ، فإنه استمر في منصبه وبرى من التهم التي تقول بها مجد الملك والتي شملت أكاذيب واقتراءات لا حصر لها ، ونال احترام الايلخانيان الى أن توفي في الرابع من ذي الحجة عام ٦٨٢ هجرية . واکراما له وتعظيما لقدره واعترافا باخلاصه وخدماته للدولة المغولية فقد أمر السلطان أحمد تكودار بتنصيب ابن أخيه هارون بن شمس الدين محمد صاحب الديوان مكانه .

وانشغل السلطان أحمد تكودار بنشر الاسلام واعادة الطمأنينة للمسلمين واصلاح ما خربه المغول ، فكان اسلامه عاملا هاما في استقرار الأمور ، وبخاصة للايرانيين الذين أحاطوه بكل تقدير واکبار ، ثم ان اسلامه كان عاملا هاما في تهذيب طباعه وتقويم خلقه ، فلم يعد ذلك المغولي الذي كان كل همه سفك الدماء وتخريب الجبال وصب البلاء . ومع ذلك فإن تصرفاته مع

المسيحيين واليهود كانت متشددة وقاسية ، حيث أقدم على هدم كثير من الكنائس والمعابد ، وأبقى على بعضها وحولها الى مساجد . وقد أجمع المؤرخون على ذلك ، إلا أن ابن العبري شذ عنهم وذكر أن تكودار كان متسامحا مع جميع الأديان وخاصة مع المسيحية ، حيث ذكر : « أنه لما جلس على كرسي المملكة يوم الحادي والعشرين من حزيران لتلك السنة ، سنة احدى وثمانين وستمئة وعنده الكفاية والحراية والكرم أخرج من الخزائن والأموال شيئا كثيرا ، وقسم على الأولاد والأمراء والعساكر وأظهر الاحسان والشفقة الى جميع المغول والى الأمم الباقية وخصوصا الى أكابر المسيحيين » (٢٦) .

علاقة السلطان أحمد تكودار بالماليك حكام مصر :

أظهر السلطان أحمد تكودار نتيجة اسلامه رغبته في أن يظل في سلام ومودة مع جيرانه المسلمين ونبذ الخصام والشقاق بين الاخوة المسلمين ، فأقدم على خطوة جريئة نحو تخفيف حدة التوتر مع مصر ، وبعث بنبا اسلامه الى الملك المنصور قلاوون سلطان الممالك في مصر في كتاب مؤرخ في شهر جمادى الأولى سنة ٦٨١ هجرية (أغسطس سنة ١٢٨٢ م) مع رسولين هما قطب الدين الشيرازي والأتابك بهلوان (٢٧) ، وذكر في رسالته « أنه أمر ببناء المساجد والمدارس والأوقاف ، وأمر بتجهيز الحجاج وسأل اجتماع الكلمة وإخماد الفتنة والحرب » (٢٨) . فرد عليه السلطان الملك المنصور قلاوون ردا جميلا وهناه باسلامه ، وطلب أن يكون التحالف بين الممالك والمغول ضد العدو المشترك ، وهم الصليبيين (٢٩) . فكان هذا الأمر سببا في شكوى قادة المغول من تكودار للخاقان « قوبيلاي قاآن » ، واعتبروا مراسلته لسلطان الممالك وجهوده في وقف العداء بين الدولتين المغولية

(٢٦) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٨٩ .

(٢٧) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٨ ، ص ٥٥ - ٦٨ .

المؤلف : والاتابك بهلوان هو أتابك السلطان مسعود ، سلطان سلاجقة الروم .

(٢٨) المقرئزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ١ ، ص ٧٧

وما بعدها ، وأيضا :

D'Hosson; Histoire des Mongols, Vol. III, P. 653 - 580

(٢٩) المقرئزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٧٧ .

والمصرية خروجا على أحكام الياسا ، وقلبا للسياسة المغولية رأسا على عقب ، بوضعه حدا للحروب بين مغول فارس والماليك ، وهم الذين سفكوا دماء المغول أنهارا في حروب الشام وآسيا الصغرى .

الصراع على السلطة ونهاية السلطان أحمد تكودار :

وبسبب سياسة السلطان أحمد تكودار الداخلية والخارجية الممثلة في تعاطفه مع المسلمين واحلال القرآن الكريم وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم محل أحكام الياسا والعرف القبلى المغولى ، ومهادنته أعداء المغول الممثلين في ماليك مصر ، فقد قوبل تكودار بعداء شديد وسافر من كثير من أمراء البيت الچنكيزى أمثال : طغاجار - كيخاتو - قونغرقاي وبايديو ، وكانوا رؤوس البيت المالك فانحازوا علنا الى جانب الأمير أرغون الذى وجد الفرصة سانحة أمامه لقتال عمه تكودار وانتزاع السلطة منه .

وبدأ أرغون يهيىء نفسه للقتال ويستعد لمواجهة تكودار ، فطلب من السلطان حكومة العراق وفارس بجانب حكومة خراسان ، لكن السلطان تكودار رد عليه بأنه لا يمكنه التصرف في مثل تلك الأمور ، وأن هذا الاجراء من حق القوريلتاي وحده ، وهو الذى يبت في مثل تلك الحالة . ولما كان أرغون يعلم مسبقا أن القوريلتاي سيكون في غير صالحه فإنه أعلن الثورة ضد عمه السلطان تكودار وهو في خراسان التى اتخذها مقرا لقيادته ومعسكرا لتعبئة جنوده واستقبال أنصاره ومناوئى عمه السلطان ، وأيده في اجرائه ذلك الخاقان « قوبيلاي قا آن » . وما أن استكمل عدته وعتاده تقدم لقتال عمه ونشبت بين الفريقين معركة طاحنة في ٣ صفر سنة ٦٨٣ هجرية (سنة ١٢٨٤ م) وقد تمكنت الجيوش الكرجية التى كانت في خدمة السلطان أحمد تكودار بقيادة « أوليناق » من ايقاع الهزيمة بجيوش أرغون عند قزوين ، ففر الأخير بعد تشتت جيشه الى نواحى بسطام وتحصن في قلعة « كلات » ، لكن أوليناق أرغفه على التسليم وخمله الى معسكر عمه السلطان أحمد تكودار .

ونظر أمراء البيت الچنكيزى وقادة المغول الى الاضطرابات والأحداث التى نشبت بين تكودار وابن أخيه أرغون ، فقرروا احتواء الفتنة الناشبة وخلق تكودار وتخليص أرغون من الحبس ، وتنصيب « هولاجو » وهو ابن

هولاكو خان وأخ تكودار وابن أخيه أرغون ايلخانا ، وتمت الخطة ، وتمكن الأمير « بوقا » من اطلاق سراح الأمير أرغون من أسره في ١٨ ربيع الثاني سنة ٦٨٣ هجرية ، بعد نشوب معركة سريعة بين قوات تكودار والمتآمرين عليه قتل فيها كثير من الأمراء الموالين لتكودار ، ومن بينهم قائده « أوليناك » ، وفر السلطان أحمد تكودار من خراسان الى آذربيجان لعله يتمكن من جمع قوات يواجه بها أعداءه .

وبخلاف ما قرره المتآمرون ، أعلن تنصيب « أرغون » ايلخانا ، فتابع سيره لقتال عمه لكن قبل أن يصل الى آذربيجان قام جماعة من أتباع تكودار بعد أن رأوا رجحان كفة أرغون بالقبض على السلطان أحمد تكودار وأحضروه الى ايلخان الجديد الذي أمر بقتله ، وأعدم في ٢٦ جمادى الأولى سنة ٦٨٣ هجرية (١٠ أغسطس ١٢٨٤ م) ، فكان بذلك أول ايلخان مغولي يعدم ودفع حياته ثمنا لاعتناقه الاسلام حيث اعتبر المغول أن اسلامه نشازا بالنسبة لتراث چنكيز خان وخلافا للتقاليد المغولية وأحكام الياسا . وبموته فقد المسلمون عوناً لهم وتبددت آمالهم وحلت للمرة الثانية أحكام الياسا الچنكيزية والآداب المغولية بدلا من القرآن الكريم والآداب الاسلامية .

أرغون خان (٦٨٣ - ٦٩٠ هـ = ١٢٨٤ - ١٢٩١ م) :

هو رابع ملوك ايران الايلخانيين ، استولى على العرش بعد قتل عمه الذي حكم ثلاث سنوات انتهت بفاجعة أسره وقتله على يد ابن أخيه أرغون هذا ، فما كان منه الا أن اعتلى العرش الايلخاني في اليوم التالي (٣٠) ، وكان ذلك في ١٨ ربيع الآخر سنة ٦٨٣ هجرية . وحتى يكون توليه العرش شرعيا اجتمع أمراء المغول وقادتهم ونصبوه ايلخانا عليهم في ٧ جمادى الآخرة سنة ٦٨٣ هجرية ، وذلك في القوريلتاي الذي عقد قرب « آب شور » من نواحي « عشتروده » بآذربيجان ، ثم ثبته الخاقان قوبيلاي قا آن في ربيع عام ١٢٨٦ م .

ولد أرغون ما بين عامي ١٢٥٠ و ١٢٥٥ ميلادية ، وأسند اليه والده أباقا خان ولاية خراسان ، وكان والده أباقا خان يعده ليخلفه على العرش ،

لكن القدر عجل بوفاته ، فدعى لبلاط أبيه في ربيع عام ١٢٨٢م أثناء اشتداد المرض عليه ، لكنه أبلغ بوفاته قبل أن يصل إلى العاصمة تبريز ، فاضطر إلى تقديم فروض الطاعة لعمه تكودار وهو في آذربيجان ، ثم قفل راجعا إلى خراسان في ربيع العام التالي . ومنذ ذلك التاريخ أخذ أرغون يعمل على الإطاحة بعمه مستغلا الوضع الجديد الذي نشأ نتيجة إسلامه ومهادنته المماليك المصريين أعداء المغول التقليديين . ونشب القتال بين تكودار الإيلخان الشرعي وابن أخيه أرغون الذي تزعم المناوئين لتكودار حيث هزم الأخير وحمل إلى معسكر عمه . بيد أن الأمير بوقا أطلق سراحه ، وكونا حلفا ضد تكودار وعلا على الإطاحة به . والظاهر أن الخاقان قوبيلاي قا آن المتربع على العرش المغولي في بيكين (خانبالغ) كان يؤيدهما ، وشاع بين المغول ما أذيع من تأييد قوبيلاي قا آن ، فانضمت معظم جنود تكودار إلى صف أرغون وبوقا . واضطر السلطان أحمد تكودار إلى تسليم نفسه لابن أخيه فقتله في ٢٦ جمادى الأولى عام ٦٨٣ هجرية (١٠ أغسطس سنة ١٢٨٤م) (٣١) .

وسرعان ما اتبع أرغون سياسة تختلف عن سياسة سلفه تكودار التي كانت تعتمد أساسا على تأييد الإسلام ونشره والتقرب من المسلمين والرفع من شأنهم . فكانت سياسة أرغون تفيض بحماسة وقوة لخدمة المسيحية والمسيحيين ، رغم أنه كان بوذيا ومقيما على بوذيته في قوة واندفاع ، وأسند المناصب العليا في الدولة إلى أعوانه وأتباعه الذين وقفوا بجانبه ضد عمه السلطان أحمد تكودار ، ومن بينهم الأمير بوقا الذي أسند إليه أرغون إدارة شئون المملكة ، وأطلق يده في تصريف شئون الدولة . وقد أنعم عليه الإيلخان الجديد أرغون لقب « أمير الأمراء » تعظيما لشأنه واعترافا بفضله وجعله في منزلة أقرب ما تكون إلى الشريك منها إلى التابع . ومن هذا المنطلق بدأ الأمير بوقا يدير دفة شئون الدولة ، وكان يساعده في إدارة شئون المملكة « خواجه فخر الدين محمد المستوفي للقزويني » ، كذلك نصب ابنه غازان واليا على خراسان ، وعين الأمير نوروز الذي كان حاكما على إيران قبل مجيئه هولاكو نائباً له .

(٣١) رشيد الدين فضل الله الهمداني : جامع التواريخ ، ص ١٢٠ - ١٢١

وبمجرد تولي أرغون العرش الايلخاني اختفى « خواجه شمس الدين محمد بن محمد الجويني صاحب الديوان » وزير السلطان أحمد تكودار بعد الهزيمة التي منى بها سيده ، وتؤكد أنه هالك لا محالة ، وأن الايلخان الجديد سوف يقتصر منه لسابق موقفه في عهد تكودار ، وفكر هتو في مخبئه في الهروب الى الهند لعله يجد فيها الأمن والأمان واللجوء الى أصدقائه ومعارفه في شبه القارة الهندية ، لكنه أفلح عن هذه الفكرة في النهاية خشية على حياة أفراد عائلته وأصدقائه ومن كان يشملهم برعايته . وتقدم شمس الدين محمد صاحب الديوان الى أرغون بنفسه وحاول أن يستعطفه فلم يفلح . ولعل الايلخان تأثر بموقف كل من الأمير أرغون وخواجه فخر الدين محمد المستوفي القزويني تجاه شمس الدين محمد صاحب الديوان والذي كان موثقا عدائيا . وحرص كلاهما أرغون خان على قتله . وتم ذلك في الرابع من شعبان سنة ٦٨٣ هجرية قرب « أهر » بأذربيجان ، كما قتل جميع أبنائه وأخوته وأحفاده ، وكل من كان متصلا به . وبهذه الطريقة المفجعة قضى على أسرة الجويني التي حمت المسلمين من طغيان المغول واستبدادهم (٣٢) .

وبعد قتل خواجه شمس الدين محمد بن محمد الجويني صاحب الديوان ، خلى الجو للأمر بوقا وانفرد بالسلطة ووصل نفوذه الى درجة كبيرة ، وقال ثقة أرغون خان فأطلق يده في شئون الدولة ، حتى أنه أصدر قرارا يقضى بأنه لو ارتكب الأمير بوقا أكبر الجرائم ، فليس لأحد الحق في محاكمته سوى الايلخان نفسه . ولا شك أن تلك السلطة المطلقة والنفوذ الكبير قد جعلت الأمير بوقا يطغى الى حد كبير ، وأصبح المهيمن على جميع شئون الدولة حتى أنه لم يبق للايلخان سوى الاسم فقط ، وسلك طريق الاستبداد والبطش بالمسلمين وغيرهم حتى المغول أنفسهم ، فكان ذلك سببا في عدم رضا أمراء المغول وقادتهم ، خاصة أنه لم تكن لديه رؤية كاملة بشئون الدولة المالية والإدارية مما سبب ارتباكا شديدا لأجهزة الحكومة المغولية في إيران واضطرابا وقلقا لكافة الطبقات المحكومة . ووصل الأمر الى أن الدولة لم تتمكن من جمع الضرائب المقررة على الأهالي نتيجة ما وصلوا

(٣٢) خواندمير (غياث الدين بن همام الدين) : دستور الوزراء ، -

تحقيق سعيد نفيسي ، ص ٢٨٨ - ٢٩٠ .

إليه من فقر وجوع ، ومع ذلك وقع على كاهل المسلمين الإيرانيين العبء الأكبر من الاضطرابات الدموية والفوضى الناشئة من عبث الأمير بوقا وأعوانه المفسدين . فقام الأمراء يناوئونه لأنهم لم يتعودوا الخضوع لمشيئة فرد واحد ، وانتقدوا تصرفاته ، وكان على رأس تلك الجماعة الشاكية الأمير طوغان الذي كان يشغل وظيفة « شجنجى » (٣٣) ، وانضم إليه طبيب يهودى من أهل أبهر يعمل فى بلاط أرغون قدر له أن يشغل منصب الوزارة فيما بعد . هو « سعد الدولة » الذى طمع فى الوزارة ، واستغل الخلافات الناشئة بين الأمراء ، كما استفاد من الظروف التى تمر بها إيران فى عهد بوقا وأرغون ، وأخيرا كراهية الايلخان نفسه للإسلام والمسلمين . وكان أرغون خان قد شرع فى اضطهاد المسلمين والقوهين من شأنهم ، وصرفهم عن كافة المناصب الكبرى وحرّم عليهم الظهور فى بلاطه .

ورسم سعد الدولة لليهودى خطته مبتدئا باحداث ثغرة فى العلاقات بين أرغون والأمير بوقا ، حيث أيقن أنه لا يمكنه الوصول الى هدفه فى وجود الأمير بوقا . وبدأ يطلق الاشاعات ويسعى للايقاع بأمر الأمراء فى مجالس أرغون خان ، وشهر بأخيه ، وكان يدعى « آروق » واتهمه باختلاس أموال الدولة المحببة من العراق . ولما كان أرغون خان مضطربا على مساوىء الأمير بوقا وتصله أخباره أولا بأول ، وفى نفس الوقت وجد أن الأمراء من أهل بيته وعصبيته المغول وكذلك قادة الجيش المغولى غير راضين عن مسلكه وطريقة إدارته لشئون المملكة ، خاصة وأن بوقا كان دائم الحديث عن مساندته لأرغون فى كفاحه ضد عمه تكودار ، وأنه - بفضل مساندته وتأييده - وصل الى العرش . ووصل به الأمر فى الحديث عن الايلخان أن كان يصرح بأنه شريك له فى الحكم .

وما أن شعر الأمير بوقا بتغير الايلخان نحوه ، وعدم رضا أمراء المغول عليه أقدم على خطوة أودت بحياته ، ذلك أنه حاول الاطاحة بأرغون والتخلص منه تماما واحلال أمير آخر مكانه ، ووجد ضالته فى أمير من بيت هولاكو ومن حفدته يدعى « جوشكاب » غاغراه بالملك ومناه بالمساعدة لكن

(٣٣) الشحنة وظيفة تعادل رئيس الشرطة فى العصر الحالى .

جوشكباب لم يوافق على خطته ، وأسرع بابلاغ أرغون بما تم من وزيره الأول ، فأمر الايلخان بالقبض على الأمير بوقا . وفي ٢٥ ذى الحجة سنة ٦٨٧ هجرية أمر أرغون خان أن يقوم الأمير جوشكباب بقتل الأمير بوقا بيده ويفصل رأسه عن جسده . ثم تلى ذلك القبض على أخيه « آروق » المتهم بسرقة أموال الدولة فقتل أيضا . أما الأمير جوشكباب ، فإن أرغون نظر اليه على أنه منافس له في الحكم وخشيته ، ولم يكافئه نظير أمانته والابلاغ عن خيانة بوقا وأعوانه . وبعد عام من واقعة بوقا قبض أرغون على الأمير جوشكباب بتهمة الخيانة أيضا وقتل .

وزارة سعد الدولة اليهودى :

شغل الطبيب سعد الدولة اليهودى منصب الوزارة بعد مقتل الأمير بوقا ، وكان رجلا يمتاز بالذكاء والمكر ، ويعرف كيف يتحين الفرص ، وعرف عنه أنه كان صاحب شخصية غريبة ، فكان يكره الاختلاط بالناس ولا أحد يعرف أسرارهم ، وفي الوقت نفسه كان له معارف كثيرون ، وكان يجيد عدة لغات ، وعلى علم تام بأحوال الموظفين والصيارفة في بغداد التي عاش فيها . وكانت مهنة الطب في ذلك الوقت تكاد تكون قاصرة على اليهود دون سواهم من أبناء الديانات الأخرى ، وهؤلاء كانوا يسعون دائما للمحافظة على كياناتهم والوصول الى الطبقات العالية عن طريق مهنتهم ، فلا غرو أننا نرى الأطباء اليهود في البلاط الايلخاني يشيرون على أرغون بتعيين سعد الدولة طبيبا في البلاط ، فوافق أرغون خان على ذلك ، وتصادف أن اعتلت صحته ذات مرة فعالجه سعد الدولة وشفى على يديه ، فعظم قدره عند الايلخان . ولما اطمأن سعد الدولة الى جانب أرغون ولمس حبه له ، اغتتم الفرصة وأخبر الايلخان بكل ما يعلمه عن اسراف بوقا وأخيه « آروق » وعماله ، وأنهم يجمعون أموال الدولة لأنفسهم ، فكلفه الايلخان بضبط حسابات بغداد سنة ٦٨٦ هجرية ، فقام سعد الدولة بالمهمة على أتم وجه في مدة وجيزة وجمع كل الأموال المتأخرة ، فكافأه الايلخان على ذلك وولاه منصب الوزارة . واستمر سعد الدولة على وشاياته لتحقيق غاياته حتى قبض أرغون خان على الأمير بوقا وأخيه آروق بتهمة التآمر على الايلخان وسرقة أموال الدولة ، وقتلهم سنة ٦٨٧ هجرية على النحو الذى ذكرناه .

وكان من الطبيعى أن يتألق نجم سعد الدولة بعد قتل الأمير بوقا

وتشتيت أنصاره وأعوانه ، وشرع يستجيب لرغبة أرغون خان في إقصاء المسلمين عن المناصب التي كانوا يشغلونها ، وأوعز إلى الإيلخان الاكتفاء بتولية اليهود والمسيحيين فقط في مناصب الدولة ، فاستجاب أرغون خان إلى ذلك بحماس زائد واندفاع عجيب . فما كان من سعد الدولة اليهودي إلا أن أعطى أقرباءه والمقربين إليه المناصب الهامة والمؤثرة في الدولة الإيلخانية . وحاول إرضاء الإيلخان بشتى الطرق والوسائل فوجد أن أرغون خان يحب جمع الثروات ، فعمل على جمع الأموال باسم الإيلخان بالقوة والتهدية من الأهالي ليقدّمها له . وفي الوقت الذي كان سعد الدولة يؤذى المسلمين ويسلب أموالهم ، كان أرغون يعمل هو الآخر من جانبه لاضطهاد المسلمين وصرفهم عن كافة المناصب التي كانوا يشغلونها في القضاء والمالية وحرم عليهم الظهور في بلاطه . وكان أرغون خان يجد لذة ومتعة في ذلك ، وتزداد ثقته بوزيره سعد الدولة ، ولم يكن يعلم أن وزيره الأول كان يقوم بتقديم جزء مما يجمعه ويقتطع الباقي لنفسه .

وما أن استتب الأمر لسعد الدولة وتأكد أن المسلمين وصلوا إلى درجة كبيرة من الضعف والفقر والمهانة حتى تظاهر بأنه يعمل لصالحهم . وحاول أن يستميل قلوبهم إليه ، فمنع كل المضايقات التي كانوا يتعرضون لها في الماضي وأغدق على كبارهم العطايا والهدايا وسمح لهم بالجلوس معه فصدقهم المسلمون وهم لا يعرفون نيته . وكان لتصرفه وسلوكه مع المسلمين أثره الحسن في نفوسهم وأقبل شعراء العرب والعجم يمدحونه ، هؤلاء بالعربية وأولئك بالفارسية . لكنه بمجرد أن اطمأن إلى ثبات مركزه في الدولة وعلو مركزه عند أرغون خان حتى بدأ يكيّد للإسلام كعقيدة والمسلمين كشعب في أبشع الصور وأشنعها ، وصار يبذل كل ما في وسعه لتقويض دعائم الإسلام مثل هدم الكعبة المشرفة وإحلال معبد بوذي (بت خانة) محلها ، ويعمل على إيذاء المسلمين سواء في شعورهم أو أموالهم وغير ذلك من الموضوعات المسببة للمضايقات وكسر شوكة المسلمين ، ثم يفتقل إلى الإيلخان أرغون خان وينقل إليه كل ما يستطيع أن يتحدث فيه عن المسلمين وعدائهم له حتى أن أرغون خان اعتبر المسلمين حلفاء طبيعيين لأعدائه ، وأنهم ساعدوا تكودار في حربه معه . قال الوزير سعد الدولة اليهودي لأرغون خان ذات يوم : « إن النبوة وصلت إلى الإيلخان بالوراثة عن طريق چنكيز خان ، فأرغون نبي الله . ولما كان

كل دين يتوقف على جهاد المخالفين له واستئصال شأفتهم ، فانه يجب أن يصدر الايخان أمره بقتل كل شخص يتخلف عن قبول ديانته ، ولا يقبل أن يحشر في زمرة أتباع الملة الجديدة» (٣٤) . ولما كان أرغون خان بطبيعته يكره المسلمين ولا يميل اليهم ، فقد صادف هذا الادعاء هوى في نفسه ، فكان ذلك عاملا جديدا من عوامل اضطهاده للمسلمين والفتك بهم . ولم يقف في وجه سعد الدولة اليهودى سوى أمراء المغول وقادتهم ، فخالفوا مسلكه وساعتهم تصرفاته ، وعادوه . وفي اليوم الأخير من شهر صفر سنة ٦٩٠ هجرية ، وعندما كان أرغون خان يحتضر أقامه خصومه والحاقدون عليه ، ثم قبض أمراء المغول عليه وقتلوه في منزل عدوه اللدود « طغاجار » .

وكان لخبر مقتل سعد الدولة اليهودى رنة فرح بين المسلمين الذين تحملوا الكثير من الصعاب والتشرد والفتك على يديه ، فقاموا على اليهود في مدن ايران المختلفة يتتبعونهم قتلا وايداء ، حتى أن عددا كبيرا من اليهود قتل في تلك المذابح التى شنّها المسلمون عليهم . ولم يسلم من الغارة سوى يهود شيراز حيث كان على ادارتها شخص يهودى يدعى « شمس الدولة » نائبا عن سعد الدولة ، كان يسلك مع الأهالى طريق الرغق واللين ، ويدفع عنهم عدايات المعتدين ، وحاز ثقة الأهالى ، فسلم يهود شيراز من القتل والاغارة على دورهم ومتاجرهم (٣٥) .

سياسة أرغون خان الخارجية :

كان حقد أرغون خان على الاسلام والمسلمين ، والهزائم المتكررة التى منى بها المغول في عصر والده أباقا خان على يد المماليك حكام مصر والشام مدعاة للتحالف مع القوى المعادية للمسلمين والتعامل مع أى جهة تتعاطف معه . فوجد ضالته في المسيحيين ، فعرض عليهم صداقته وتحالفه ، بل وتعاطفه وميله للمسيحية وتقريبه المسيحيين من رعاياه ، حتى يعد عصره بحق عصر

(٣٤) عباس اقبال : تاريخ مغول ، ص ٢٢١ - ٢٢٦ .

(٣٥) حبيب لوى : تاريخ يهود ايران ، المجلد الثالث ، ص ٨٦ - ٩٨ .

وأیضا خواندمیر : دستور الوزراء ، تحقيق سعيد نفیسی ،

ص ٢٩٦ - ٣٠٥ .

(م ١٢ - تاريخ الدولة المغولية)

الصداقة والتحالف المغولي مع البابا في روما وملوك أوروبا . وحتى يظهر أمام الغرب المسيحي بعدائه للماليك حكام مصر والشام والمسلمين عامة كانت سياسته الخارجية تفيض حماسة واندفاعا لخدمة المسيحية والمسيحيين . وكان أول اتفاق وقعه ، ذلك الذي تم مع ملك دولة أرمينيا الصغرى ويتضمن استرداد الأراضي المقدسة من أيدي المسلمين . وأرسل أربع سفارات الى المقر البابوي في السنوات ١٢٨٥ و ١٢٨٧ و ١٢٨٩ و ١٢٩٠ ميلادية يقترح فيها جميعا استعداده للقيام بحملة مشتركة مع المقر البابوي لحرب الماليك ، على أن يقوم الغرب المسيحي بغزو مصر في الوقت الذي يقوم هو فيه بغزو الشام (٣٦) . كما كان يردد دائما أنه لن يفعل ذلك إلا اذا بذل له الملوك المسيحيون في الغرب المساعدة والتعاون العسكري (٣٧) .

سفارة ربان سوما الى البابا سنة ١٢٨٧ م :

وفي سنة ١٢٨٥ م كتب أرغون خان رسالة الى البابا « هورنيوس الرابع » اقترح فيها القيام بشن حملة مشتركة ضد المسلمين بمصر والشام وتدمير قوتهم العسكرية ، غير أنه لم يتلق ردا على ذلك (٣٨) ، ثم قرر بعد سنتين إعادة الكرة وايفاد سفارة الى الغرب ، فاختار سفيراً له هو القس « ربان سوما » ، وهو من أصل تركي وكان صديقاً للجاثليق « ماريابها لا » الجالس على كرسي البابوية في العراق للمسيحيين النساطرة ، وهو تركي الأصل أيضاً وكان قد قدم من الصين مع زميله القس ربان سوما واتجهما نحو الغرب يراودهما الامل في تأدية فريضة الحج الى بيت المقدس . ثم تقرر انتخابه جاثليقا بالعراق سنة ١٢٨١ م ، وكان له دوره المؤثر في السياسة الايرانية في عصر أرغون خان . وقد بدأ السفير ربان سوما رحلته في أوائل سنة ١٢٨٧ م ، فأبحر من طرابيزون الى القسطنطينية ، ولقى استقبالا

Runicman; A History of the Crusades, Vol. III, (٣٦)
Cambridge, 1959, P. 398 - 402.

Budge; The Monks of Kublai khan, introduction, (٣٧)
P. 42 - 61 & 72 - 75.

Chabut; "Relations du roi : انظر رسالة أرغون خان في (٣٨)
Argoun avec l'Occident", dans la Revue de l'Orient
Latin, Vol. II, P. 571.

وديا حافلا من الامبراطور البيزنطي « اندرونكوس » . وكان الامبراطور البيزنطي على علاقات طيبة مع المغول ، وكان مستعدا لأن يبذل لهم من المساعدة ما تسمح به موارده الضئيلة ، ثم توجه سوما عن القسطنطينية الى نابولي . فبلغها في شهر يونيو من نفس العام ، ثم واصل سيره الى روما . وكان البابا « هورنيوس الرابع » قد توفي قبل قدومه ، فاستقبله الكرادلة المقيمون بروما . ويذكر السفير ربان سوما في تقاريره الى الايلخان ارغون خان أن معلومات الكرادلة والمقر البابوي بصفة عامة عن المغول ضعيفة ، اذ لم يكونوا يعلمون شيئا عن انتشار المسيحية بين المغول ، وفي نفس الوقت صدمهم ربان سوما حيث كان يختم سيدها وثنيا . ثم ترك ربان سوما روما بعد أن فشل في مهمته ، بل ووصل الامر الى أنه لم يتمكن من التفاهم مع الكرادلة ، من ذلك أنه عندما كان يناقشهم في الامور السياسية كانوا يستجوبونه حول ايمانه وعقيده . ثم انتقل السفير المغولي الى جنوة في احتفال كبير ، اذ كان التحالف مع حكامها أمرا بالغ الأهمية عندهم .

وفي نهاية شهر أغسطس من نفس العام (١٢٨٧ م) عبر « ربان سوما » الى فرنسا ، فبلغ باريس في شهر سبتمبر ، ولقى استقبالا حافلا من الملك فيليب الرابع المعروف باسم فيليب الجميل Philippe Le Bel وأنهى مباحثاته بأن وعده ملك فرنسا بأنه سوف يتولى بنفسه قيادة جيش صليبي لتخليص بيت المقدس . ولما أزمع السفير المغولي مغادرة باريس عين الملك فيليب الجميل سفيرا من قبله اسمه « جوبرت هيلفيل » ليصحب ربان سوما في عودته الى بلاط الايلخان ، وليعد معه تفاصيل التحالف مع المغول . ثم قابل السفير المغولي « أدوارد » ملك إنجلترا في اقليم بورجو حيث أملاكه الفرنسية . وكان ملك إنجلترا مؤمنا بمبدأ تحالف الغرب المسيحي والمغول الوثنيين ضد المسلمين والقضاء على دولة المماليك . وعقبا أراد السفير المغولي وضع جدول زمني للحرب ضد المسلمين راوغه ملك إنجلترا حيث لم يكن مستعدا للقيام بالحملة الصليبية .

وفي شهر فبراير سنة ١٢٨٨ م تم اختيار « نيقولا الرابع » بابا . وكان من أول أعماله أن استقبل السفير المغولي ، وقامت بينهما أحسن العلاقات الشخصية . وأخيرا غادر السفير ربان سوما مدينة روما وبصحبه

السفير الفرنسي « جوبيرت هيلفيل » في ربيع سنة ١٢٨٨ م . يحمل من البابا الهدايا وكثيرا من المخطافات الدينية القيمة للايلخان والجاثليق « ماريا بهالا » ورسائل اليهما ، والى أميرتين مغوليتين مسيحيتين والى أسقف اليعاقبة في تبريز ، غير أن تلك الرسائل كانت تنقسم بالغموض ، من ذلك أن البابا نيقولا الرابع لم يعد باتخاذ اجراء محدد في زمن معين (٣٩) .

وعقب عيد القيامة في سنة ١٢٨٩ م أرسل أرغون خان رسولا جنوى الأصل أقام في الشرق زمنا طويلا يدعى « بوسكارد حيرولف » ، برسائل الى البابا وملكى فرنسا وانجلترا . ولازالت رسالة أرغون خان الى فيليب الجميل باقية حتى الآن ، وقد كتبت باللغة المغولية وبحروف أويغورية . وتبدأ الرسالة باسم الخان الكبير « قوبيلاي قا آن » وفيها أنهى أرغون خان الى ملك فرنسا أنه سوف يتوجه الى سوريا في الشهر الاخير من فصل الشتاء من سنة الفهد ، أى في يناير سنة ١٢٩١ م ، وأنه سوف يصل الى دمشق حوالى منتصف أول شهور الربيع ، أى فبراير ومارس سنة ١٢٩١م ، فاذا أرسل الملك - فيليب - قوات اضافية واستولى المغول على بيت المقدس ، فسوف يجعلها له . أما اذا لم يتعاون ملك فرنسا في تعزيز وتمويل الحملة ضد المسلمين فسوف تتبدد الحملة . وأضاف « بوسكارد » الى الرسالة حاشية كتبها باللغة الفرنسية ، تنطوى على تحيات لبقة موجهة الى الملك الفرنسي ، ويضيف « بوسكارد » أن الايلخان أرغون خان سوف يصحب معه الكين المسيحيين ببلاد الكرج ونحو عشرين أو ثلاثين ألفا من الفرسان ، وسوف يتكفل بما يكفى رجال الغرب من مؤن طوال فترة الحرب .

وعلى الرغم من أن « بوسكارد » عاد أدراجه باجابات لا تبشر بتعاون مثمر وفعال ، فان أرغون خان أرسله مرة أخرى مع اثنين من المغول المسيحيين وهما اندرياس زلكان وسهادين ، فتوجهوا ثلاثتهم أول الامر الى روما حيث استقبلهم البابا نيقولا الرابع ، ثم مضوا لزيارة ملك انجلترا ، غير أن

(٣٩) ستيفن رنسيومان : تاريخ الحروب الصليبية ، الجزء الثالث ، الترجمة العربية للدكتور السيد الباز العرينى ، بيروت سنة ١٩٦٩ م ، ص ٦٧٣ - ٦٧٦ ، وأيضا Budge; The Monks of Kublai, P. 164 - 197.

الملك أدوارد كان منغمسا في مشاكل داخلية باسكتلندا • وعاد الرسل الثلاثة الى روما مرة ثانية في طريق عودتهم الى بلدهم وقد اشتد الضيق بهم ، فمكثوا بها فصل الصيف حتى بلغهم فيها نبأ وفاة سيدهم الايلخان أرغون خان (٤٠) •

وهكذا لم يقع أى قتال في عهد أرغون مع المماليك ، ولم يتحقق أى تحالف مغولى مع الغرب ، ربما كان ذلك راجعا الى اشتغال جنوده في ميادين أخرى ، وانصراف غرب أوربا الى المخاصمات والعداوات ، فلم يجد أرغون خان استجابة من الغرب أو حماسا ، سواء من البابا أو من غيره من الملوك ، ولم يتعد الاهتمام بخطاباته أكثر من قراءتها • ومن الواضح أن السفارة الأخيرة التى أرسلها أرغون خان الى غرب أوربا جاءت في الوقت الذى سقطت فيه عكا - آخر البقايا الصليبية الكبرى بالشام - في أيدي المماليك (٤١) • أما النتائج التى نتجت عن اتصال أرغون خان بالغرب المسيحى فانها كانت بنفع المسيحية في ايران ونشرها بين المغول •

وتوفى أرغون خان في اليوم السادس من ربيع الاول سنة ٦٩٠ هجرية (١٠ مارس ١٢٩١ م) اثر تناوله بعض العقاقير التى كان يتعاطاها لاطالة عمره بعد أن حكم سبع سنوات • يقول الحافظ الذهبى في أحداث سنة ٦٩٠ هجرية ما يلى : « توفى أرغون صاحب العراق وخراسان وأذربيجان ، كان شهما مقداما كافر النفس شديد البأس ، سفاكا للدماء عظيم الجبروت ، ويقال انه سم فاتهمت المغول وزيره سعد الدولة اليهودى بقتله ، فمالوا على اليهود قتلا ونهباً وسبياً » (٤٢) • أما شرف خان البدييسى فانه ذكر في كتابه « شرف نامه » أن أرغون خان توفى في اليوم الخامس من شهر ربيع الاول سنة ٦٩٠ هجرية في قراباغ أران (٤٣) •

(٤٠) ستيفن رنسيومان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ٦٧٧ - ٦٧٩ •

(٤١) Grousset; L'Empire Mongol, Vol. III, P. 727.

(٤٢) الحافظ الذهبى : العبر في خبر من غير ، ج ٥ ، ص ٣٦٦ •

(٤٣) شرف خان البدييسى : شرفنامه ، الترجمة العربية لمحمد على

عونى ، الجزء الثانى ، القاهرة سنة ١٩٦٢ ، ص ١١ •

٥ - كيخاتو خان (٦٩٠ - ٦٩٣ هـ) :

توفي أرغون خان بعد أن حكم سبع سنوات ، فأرسل جماعة من الأمراء الى أخيه « كيخاتو » الذي كان حاكماً على بلاد الروم ، يبلغونه نبأ وفاة أخيه الايلخان ويستدعونه للحضور الى آذربيجان على الفور لتنصيبه ايلخانا . وفي نفس الوقت راسل بعض الأمراء وقادة الجيش الامير بايدو بن طوغان حفيد هولاكو ، وكان قائماً على حكومة بغداد لشغل نفس المنصب . وبذلك انقسم أمراء المغول الى جماعتين ، أكثرية تؤيد تنصيب كيخاتو وأقلية تساند بايدو . وطبقاً لأحكام الياسا الچنكيزية والعرف المغولي فقد كانت كفة كيخاتو هي الراجحة ، لانه كان أكبر الامراء الاحياء سناً . فقدم من بلاد الروم وزافقه عدد كبير من أمراء المغول ، وهذا يعنى طبقاً للعرف القبلي المغولي ترشيحه لمنصب الايلخان ، واعتلى العرش في يوم الاحد ٢٣ رجب سنة ٦٩٠ هجرية .

وواجه كيخاتو خان في أوائل عهده عدة ثورات تميزت بالعنف والدمار . وظهرت عدم التماسك بين أمراء المغول الذين كان يضرب بهم المثل في الوحدة والطاعة والتماسك ، فقامت ثورة بخراسان ترأسها وقادها حاكم خراسان « أنبارجى بن منكوتر » ، وأرسل كيخاتو خان نائبه « سنكتوريان نويان » الى خراسان لمواجهة الفتنة فتمكن من اخمادها . كذلك اندلعت ثورة أخرى قام بها التركمان واليونانيون في بلاد الروم ، فتوجه اليهم كيخاتو بنفسه وعزمهم بعد قتال عنيف استمر عشرة أشهر . وكان الايلخان قد ترك حكم البلاد لنائبه سنكتوريان ، وكانت تعوزه الكفاءة والحزم والمقدرة على مواجهة المشاكل الادارية والمالية ، وزاد الطين بلة أن ابتليت البلاد الايرانية بقحط عام نتيجة عدم سقوط الأمطار ، فاختلفت أوضاع البلاد ، واضطربت أمورها . لكن كيخاتو خان تمكن من ضبط الامور بعد جهد كبير فعادت البلاد الى سابق عهدها من الاستقرار والانتعاش . وأجرى تغييراً في المناصب الكبرى بالدولة ، كان أهمها على الاطلاق عزل نائبه وأمير الأمراء « سنكتوريان » وتنصيب الامير آق بوقا ، وأسند الوزارة الى خواجه صدر الدين أحمد الخالدي الزنجاني الملقب بصدر جهان الذي كان في الأصل من سلالة قضاة زنجان . كما نصب كيخاتو أخاه الآخر خواجه قطب الدين أحمد الخالدي المعروف باسم قطب جهان منصب قاضي القضاة وولاه في نفس

الوقت ادارة أوقاف المسلمين في ايران كلها ، فعمل كلاهما بكفاءة وإخلاص وأدارا دفعة الحكم بدقة واحكام . يقول المؤرخ الايراني شرف خان البدليسي في كتابه ما يلي « . . . أسند كيخاتو منصب أمير الامراء لأقبوقا بهادر ، وأسند الوزارة للخواجه صدر الدين أحمد الخالدي الزنجاني الذي كان في الأصل من سلالة قضاة زنجان ولقبه بصدر جهان . كما أنه نصب أخاه الآخر وهو الخواجه قطب الدين أحمد قاضيا للقضاة وولاه نظارة أوقاف الممالك المحروسة كلها » (٤٤) .

وكان كيخاتو خان رجلا مسرفا يقضى أوقاته في الشراب واللهو والمجون ، فأنفق الأموال التي كانت بخزائن الدولة ، تلك التي جمعها أرغون خان . على ملذاته ، واحتقر التعامل بالذهب والفضة ، واعتبرهما لا يصلحان إلا لزينة النساء والرجال . ولم يمض قليل وقت حتى أصبحت خزائن الدولة خالية تماما ، وارتبكت المالية عامة ، ولم يجد البلاط الايلخاني نقودا للصرف منها على الضروريات الأساسية من غذاء وخلافه . وقد زاد الأزمة تفاقمًا أن الوزير خواجه صدر الدين أحمد الخالدي الزنجاني كان بدوره ينفق أموال الدولة في استمالة قلوب الناس اليه خاصة طبقتي الزهاد والعباد . وزاد الطين بلة انتشار الأمراض والأوبئة وقحط عام استمر عدة سنوات حتى ضج الناس بالشكوى من الايلخان نفسه ومن وزارة صدر جهان وتحركت عندهم روح الثورة (٤٥) .

الچاو كعملة متداولة في عهد كيخاتو خان :

وفي تلك الأثناء التي كانت فيها الدولة في وضع غير سليم نتيجة الاضطراب المالي وتذمر الشعب الايراني من الاوضاع السائدة في عهد الايلخان ، قدم شخص يدعى « عز الدين محمد بن مظفر بن عميد » من الصين ، وكانت لديه معرفة كاملة بأحوال الصين والسياسة المالية للخاقان

(٤٤) شرف خان البدليسي : شرفنامه ، الترجمة العربية أحمد علي عوني ، الجزء الثاني ص ١١ .
(٤٥) خواندمير : دستور الوزراء ، ص ٣٠٥ - ٣١٢ ، وأيضا كتاب نسائم الاسحار من لطائف الاخبار در تاريخ وزرا ، تأليف ناصر الدين منشي الكرمانى ، ص ١٠٩ - ١١٠ .

في الصين ومنغوليا . فعرض عز الدين محمد هذا على الوزير صدر جهان استبدال العملة الذهبية والفضية المقداولة الى عملة ورقية حتى تتحسن الاوضاع المالية في البلاد . واقتنع الوزير صدر جهان بما قدمه الخبير المالي القادم من الصين ، وعرضا الفكرة على الايلخان ، وكان يؤيدهما ويشجعهما على ذلك كبار أمراء البلاط . ثم استشار كيخاتو خان سفير الخاقان في بلاطه وكان صينيا يدعى « يولاد جينك سانك » في أمر تغيير العملة ، فاستحسن رأيه . وأصدر كيخاتو أمرا بتداول العملة الورقية وسحبت العملات الذهبية والفضية ، وأمر بأن تقام في كل مدينة ادارة للعملة تسمى « چاوخانه » تقوم بصك الجاو ، أي العملة الورقية .

وكان الجاو في البداية يسمى « چاو مبارك » ويتكون من قطعة ورقية مستطيلة الشكل مدون على أطرافها الاربعة بخط « خطائي » . وفي أسفل الورقة نقش الشهادتان على طرفين من الورقة . وفي أسفل الشهادتين بمسافة قليلة وفي الوسط كلمة « ايرنجين دورجي » وهو اللقب المغولي لكيخاتو الذي لقبه به الخاقان الخطائي ، ومنقوش عليها في الوسط عدة سطور مضمونها أنه بتاريخ ثلاث وتسعين وستمئة أجرى الايلخان تداول هذه العملة المباركة المسماة بالجاو في جميع البلاد ، فمن أقدم على تغييرها أو تبديلها يعرض نفسه وأهله من النساء والاولاد والاقرباء لعقوبة شديدة . وكانت قيمة الجاو مدونة داخل دائرة في وسط العملة وتختلف من نصف درهم الى عشرة دنانير .

وانتشرت الجاو لأول مرة في تبريز في ١٩ شوال سنة ٦٩٣ هجرية ، لكن الاهالي لم يكن عندهم استعداد بالمرة للتعامل بالعملة الورقية بدلا من التعامل بالذهب والفضة ، بل ولم يكن هذا النوع من التعامل مألوفا لديهم ، وانصرفوا عن التعامل بالجاو وامتنعوا عن التعامل به ، لكنهم - وكانوا يخشون عمال المغول - أجبروا على التعامل به ، فكانت النتيجة أن اضطربت أحوالهم وكسد سوق التجارة والمال وقل البيع والشراء . وعندما أجبر عمال كيخاتو الاهالي على التعامل بالعملة الورقية هاجر جماعة كبيرة الى بلاد أخرى لا تتعامل بالجاو ، كما استعد عدد آخر منهم للثورة ضد الحكومة . وقد حدث مثل ذلك في شيراز ، وعصى الأهالي تنفيذ تعليمات الايلخان ولأول

مرة يقف الاهالى المسلمون موقفا من الحكومة . وذكر صاحب كتاب «الحوادث الجامعة» فى هذا الشأن ما يلى : « ٠٠٠ كان الرجل منهم يضع الدراهم تحت الجاوى ويعطى الخباز والقصاب وغيرهما ويأخذ حاجته خوفا من أعوان السلطان » (٤٦) . كذلك لدينا وصف دقيق لما حدث فى مدينة تبريز ذكره شرف خان البدليسى عن تداول الجاوى وصدى ذلك على شعب المدينة ، يقول : « نفذت عملة الجاوى فى يوم من أيام ذى القعدة من السنة المذكورة (٦٩٣ هـ) بمدينة تبريز واضطر أهل السوق بضعة أيام للتعامل بها فى البيع والشراء . ثم نفذ صبر طائفة من أهالى تبريز على تحمل هذا الضرر اللاحق بهم ، فآثرت الرحيل على الإقامة . وطائفة أخرى ولو أنها كانت تفتح دكاكينها خوفا من سطوة الحكومة ورجالها ، إلا أنها كانت تخفى السلع والامتعة ولا تظهرها . فضج الناس من الحالة وقلقوا أشد القلق واجتمعوا يوم الجمعة ونادوا بالنويل والثبور وجهروا بالشكوى والتذمر صائحين بالسخط واللعن على عز الدين مظفر الذى تسبب فى هذه المصيبة العامة ، وقد أراد الدهماء والأوباش البطش به . وفى رواية أنهم فتكوا به فعلا » (٤٧) .

وعندما شعر كل من كيخاتو خان والوزير صدر جهان أن الجاوى زاد الحالة سوءا واضطرابا ، وأن الايرانيين قد يثورون جميعا ضد قانون العملة الجاوية مما يعجل بالاطاحة بالملك والوزارة فأوحى الوزير صدر جهان الى الايلخان الغاء الجاوى والعودة الى التعامل بالذهب والفضة فأصدر كيخاتو خان أمرا بذلك وتغير اسم العملة من « جاوى مبارك » الى « جاوى مبارك » أى « العملة المشئومة » . وأصبحت فى ذمة التاريخ ولم يبق منها فى المعجم الفارسى سوى كلمة « جاوبان » وهو اللقب الذى أطلقه الأهالى على الوزير صدر جهان . وعمل كيخاتو خان على استرجاع الاهالى الذين جلوا عن أوطانهم ، فعاد الناس الى تبريز ، وأخذوا يباشرون أعمالهم كما كانوا وكان شيئا لم يحدث . وعلى هذا النحو تمكن الايلخان ووزيره من السيطرة على الاهالى التأثيرين فعادت الحياة الى الاقتصاد المنهار والسوق الراكدة .

(٤٦) الحوادث الجامعة ، حوادث سنة ٦٩٣ هجرية .

(٤٧) شرف خان البدليسى : شرفنامه ، مرجع سابق ، ص ١٤ .

الانشقاق في بيت هولاكو وقتل كيخاتو :

ونال كيخاتو خان في أواخر أيامه غضب أمراء المغول وقادتهم بسبب افراطه في الشراب وقضائه معظم أوقاته في اللهو والفسق والفجور . كما أنه كان مصابا بالشذوذ الجنسي واللواط حتى أنه كان يفسق بصبيان المغول ، فكرمه الأمراء لهذا السبب وعابوا عليه شذوذه ، وبدأوا يثورون في وجهه ويعلمون على أقصائه . وكان يتزعم هؤلاء الأمير بايدو أحد حفدة هولاكو الذي لم يرقه أن يكون على العرش المغولي شخص سيء الخلق عديم الشرف مثل كيخاتو . وقد حدث في إحدى المناسبات أن أهان كيخاتو خان الأمير بايدو ، واتهمه بأنه على رأس مخالفه ، والمثير للفتن والفساد وهـدده كيخاتو خان بالقتل إن تمادى في طريقه ومسلكه . فعاد بايدو إلى مقر حكومته غاضبا . وشعر كيخاتو بما قد يدبره بايدو ضده ، فقبض على عدد من الأمراء المنحازين له واكتفى بحبسهم حتى يتضح الموقف الذي سوف يتخذه زعيمهم .

أما بايدو فانه ما أن وصل إلى مقر حكومته حتى عبأ الجند لحرب كيخاتو . وكذلك فعل الأخير واستعد لقمع مناوئيه ، وجهز جيشا كبيرا وضع على تبادته كل من الأمير آق بوقا والأمير طغاجار ووقعت معركة بين الفريقين ، كان النصر حليف جيش كيخاتو في البداية ، ثم تغيرت لصالح بايدو عندما انشق الأمير طغاجار على كيخاتو وانضم إلى بايدو ، فهزم آق بوقا وانكسر جيش كيخاتو ففر من تبريز إلى مغان ، لكن بعض الأمراء اللئالئين قبضوا عليه وساموه لبایدو ، فاحتجزه حتى قضى على أعوانه ثم أعدمه خنقا في السادس من جمادى الأولى سنة ٦٩٤ هجرية (٢١ أبريل ١٢٩٥ م) (٤٨) .

٦ - بايـدوخان (١٦ جمادى الأولى ٦٩٤ - ٢٣ ذى الحجة ٦٩٤ هـ)
(١٢٩٥ / ١٢٩٦ م) :

هو الأمير بايدو بن طوغان بن هولاكو بن تولى بن چنكيز خان ، اعتلى العرش في ١٦ جمادى الأولى سنة ٦٩٤ هجرية ، أي بعد عشرة أيام من اعدام

(٤٨) حبيب الله شاموئي : تاريخ ايران ، ص ٥٠٦ - ٥٠٨ .
وأيضا : مير خواند : روضة الصفا ، المجلد الخامس ، ص ٣٦٣ - ٣٧٤ .

خصمه كيخاتو خان وذلك بعد اجتماع القوريلتاي في مكان بالقرب من مدينة همدان برئاسة الامير طغاجار ، وقرروا بالاجماع تنصيب بايدو العرش الايلخاني . وقد برر الامراء قتل الايلخان كيخاتو في اجتماعهم بأنه عاش عيشة لا تليق بمقام الجالس على العرش ، وأنه كثيرا ما خالف أحكام الياسا ، لذا فقد استحق الحرمان من الحقوق التي كان يستمتع بها .

وكان بايدو في تلك الفترة صغير السن قليل الخبرة خامل الذكر ، لكن كيخاتو بتصرفاته الشاذة والغريبة جعل منه شخصية يلتفت حولها بعد ان أهانه ذات مرة أمام من عم أدنى منه درجة ، وهذا ما لا تقره أحكام الياسا الچنكيزية التي تنص صراحة على أن أمراء البيت الچنكيزي لا تهدر كرامتهم أمام غيرهم ، وان أجرم أحدهم فيجتمع القوريلتاي الذي من حقه وحده تشكيل محكمة لبحث مشكلته ، هذه المحكمة التي يحق لها ادانته ومجازاته . وأن من يفعل غير ذاك يعاقب عقابا صارما . لذلك فقد دعى الامراء والمشترون في القوريلتاي الامير بايدو الى تولي العرش . وعلى أثر توليته تخلص من أتباع سلفه كيخاتو ، وقرر إعادة الوظائف والحقوق الى أصحابها ، وأغفى الاوقاف الاسلامية من الضرائب ، وعهد بأمور الجيش وامرة الامراء الى الامير طغاجار ، كما اختار جمال دستجرداني للوزارة خلفا لصدر جهان وزير كيخاتو ، فاختار لقب الوزير بدلا من لقب « صاحب الديوان » . وسلك الامير طغاجار مسلك أباخان خان اذ جعل ادارة كل ولاية من ولايات الدولة في يد أمير من الامراء (٤٩) .

ولم يكد بايدو خان يقولى العرش الايلخاني ويستقرب لم الأمر حتى نازعه فيه الامير شازان بن أرغون - وكان واليا على خراسان من قبل والده حتى ذلك الوقت - والذي عظم فيه ما حدث لعمه كيخاتو ، وأيده في ذلك الامير نوروز أحد أمراء المغول الذين أسلموا وخلص اسلامهم ، وقاد جند غازان في حربه ضد بايدو . ورأى الامير نوروز الايلخان الجالس على العرش صاحب شخصية ضعيفة وآلة في يد الأمراء وأنه أسند أمور البلاد الى طغاجار ، وبرر مخالفته بقتله كيخاتو خان طبقا لاحكام الياسا الچنكيزية التي تنص

(٤٩) مير خواند : روضة الصفا ، المجلد الخامس ، ص ٣٧٦ .

صراحة على أن قاتل أمراء الاسرة الملكية مهما كانت شخصيته يلزم القصاص منه ، لذلك فيجب على غازان القصاص من بايدو . لاهداره دم كيخاتو .

وتوجه غازان ومعه الامير نوروز من خراسان الى آذربيجان لقتال بايدو ، وفي نفس الوقت أرسل رسله الى بايدو ينكر عليه قتل عمه بيد جماعة ليسوا من طبقته الأمر الذي يخالف أحكام الياسا ، وطالبه باجراء تحقيق عاجل ليلقى القتلة جزاءهم . واستعد كل فريق للآخر وانقسم المغول فريقين ، والتقى الجيشان المتصارعان في اليوم الخامس من رجب سنة ٦٩٤ هجرية في مكان يعرف باسم « قرجان شيره » بالقرب من قرية « شير كيران » من ولاية مراغة ، فهزم بايدو وانسحب من ميدان القتال ، وحاول أبرام صلح مع غازان ، وأرسل له رسلا من قبله ، لكن غازان لم يقبل الصلح . وكان هذا الأمر على هوى الامير نوروز قائد جيش غازان الذي شرف بدخول الاسلام بينما كان بايدو قد اعتنق المسيحية ، وصار كل منهما داعية لدينه ، فكما اختلفت ديانتهم اختلفت مشاربهما وأهدافهما .

ووقع بايدو فريسة لخيانة قائده وأمير أمرائه طغاجار ، الذي وجد أن الأمر قد خرج من يده سيده ، وأن دولته زائلة لا محالة . فأوعز الى بايدو إعادة الكرة مرة أخرى ، وما أن اقترب الجيشان حتى انحاز طغاجار بجيشه الى جانب غازان وترك الايلخان وحده ومعه حرسه الخاص الذي لا يكفي لدخول المعركة ، فهرب بايدو بدوره الى مرند ومنها الى بلاد الكرج فتعقبه الامير نوروز وقبض عليه قرب مدينة نخجوان ، واقتاده الى غازان فاصدر أمرا بقتله ، وتم ذلك في ٢٣ ذى الحجة عام ٦٩٤ هجرية بعد أن جلس على العرش الايلخاني مدة سبعة أشهر فقط (٥٠) . وهكذا لقي نفس المصير الذي لاقاه كيخاتو وشرب من نفس الكأس الذي شرب منها سلفه . على حد قول خواندمير صاحب كتاب « حبيب السير » .

ان السبب الأساسي في هزيمة بايدو ، ضعف شخصيته وقلة خبرته واتقياده للامير طغاجار الذي خانته ، كما خان سلفه من قبل ، واطلاقه الحرية

الامراء فأساءوا استعمالها ، ولم يستطع أن يميز المخلصين منهم من الانتهازيين الذين يخدمون مآربهم الشخصية ، الى جانب خيانتة بعض أمرائه مثل طغاجار . ولم يكن بايدو خان لاهيا ولا فاسقا كسلفه كيخاتو ، بل كان متزنا عاقلا متحمسا للمسيحية مقبلا عليها فعمل على احياء الدين المسيحى ، غير أنه فى الوقت نفسه لم يكن يضمّر عداً ظاهراً للإسلام ، حتى أنه كان له ولد مال الى الاسلام واعتنقه ، فكان بايدو يحثه على أداء الصلاة جماعة مع المسلمين ، غير أن حبه الشديد للمسيحيين ورهبانهم أسخط عليه المسلمين (٥١) .

الفصل الثامن

المغول في إيران من عهد غازان الى نهاية الدولة الايلخانية

(العصر الاسلامى)

غازان خان (٦٩٤ - ٧٠٣ هـ) :

تولى غازان خان بن أرغون العرش الايلخانى بعد قتل بايدو خان .
ولد غازان سنة ٦٧٠ هـ (٢٤ ديسمبر سنة ١٢٧١ م وتربى في قصر جده
أباقان خان ، وكان يصحبه منذ نعومة أظفاره في رحلات الصيد ، وعندما بلغ
العاشرة من عمره عينه أبوه أرغون حاكما على خراسان تحت وصاية الأمير
نوروز بيك بن أرغون أقا ، أحد كبار أمراء المغول وابن الحاكم المغولى الذى
حكم الاقاليم الايرانية منذ عهد چنكيز الى هولاكو مدة تسع وثلاثين سنة .
والى الأمير نوروز يرجع الفضل في اسلام غازان خان ، فأحدث بذلك تغييرا
كبيرا في شكل الدولة المغولية في إيران . ان اسلام غازان خان يعد ملحمة
كبيرة لانقصار الاسلام على الديانات الاخرى ، خاصة اذا علمنا أن غازان كان
في بداية أمره بوذيا ، وفي الوقت نفسه كان يميل الى المسيحية نتيجة تربيته
وتنشئته عند « دسپينا خاتون » زوجة جده أباقا خان .

وما أن انتصر غازان على خصمه بايدو ، حتى أسرع ودخل تبريز في
العاشر من شهر ذى الحجة عام ٦٩٤ هجرية ، ودخلها دخول الظافرين ،
خاصة وأنه كان قد أشهر اسلامه ولبس عمامة المسلمين ، فاستقبله خارج
المدينة كبار رجالها وساداتها وعلمائها وقضاتها المسلمون ، يتقدمهم الوزير
« خواجه صدر الدين أحمد الخالدي الزنجاني » الذى ما لبث أن نال ثقة
الايلخان ، وأطلق يده في حكم البلاد . ثم أعلن غازان الايلخانا في اليوم الأخير
من شهر ذى الحجة سنة ٦٩٤ هجرية وكان ذلك اليوم مصادفا ليوم الفوروز .
اسلام غازان خان :

كان غازان خان بوذيا في بداية أمره ، وكانت للديانة البوذية سيطرتها

وسطوتها في ايران منذ قدمت مع المغول ، ونشط كهنتها في نشر دينهم معتمدين في ذلك على قوة معتنقيها من المغول والترك ومن قدم معهم عن شرق آسيا من اجناس بشرية مختلفة أهمها الصينيون . وانتشرت معابدهم في ايران على حساب مساجد المسلمين . وكان كهنة بوذا يرسمون خططهم في نشر ديانتهم بطريقة « نثاء » وتخطيط دقيق للغاية ، من ذلك أنهم كانوا يحكمون حصارهم حول الأمراء الايلخانيين ليكونوا سنداً لهم وعونا على استمرار نشر تعاليمهم في سهولة ويسر .

كما عرف غازان شيئاً عن المسيحية بفضل اقامته في طفولته مع « دسپينا خاتون » المسيحية النسطورية زوجة جده أباقا خان . وكانت تلك السيدة تطمع في ادخال الامير المغولي الدين المسيحي منتبهة فرصة حبه لها ، وكادت تنجح في خطتها لولا أن أباه أرغون خان ولاء امرة خراسان وهو في العاشرة من عمره ، فاضطر الى ترك « دسپينا خاتون » والتوجه مع وصيه ومربيه الامير نوروز بيك . وكان نوروز هذا مسلماً تربى في أحضان الاسلام والثقافة الاسلامية ، وعاش عمره في خراسان ودرس على علمائها وغقهاؤها الدين الحنيف . وكان يعد من أوائل من حفظ كتاب الله العظيم من المغول . وتعصب غازان للدين الاسلامي رغم العداء الشديد بين المسلمين والمغول . فحبب الامير نوروز بيك الى غازان الدين الاسلامي الحنيف فطلب منه الامير الصغير أن يعلمه أصول الديانة الاسلامية ، فمال غازان الى الاسلام وكنتم اعلاناً الى أن أسر اليه الامير نوروز بيك أنه اذا أراد الانتصار على بايدو الذي يقف خلفه المغول ، فإنه يمكنه الاستعانة بالمسلمين اذا دخل في الاسلام وشاركهم العقيدة ، وأنه سيجدهم جميعاً يؤيدونه وينضمون اليه في صراعه مع بايدو . فوافقه غازان ووعدته بالدخول في الدين الاسلامي اذا وهب الله له النصر على خصمه .

وما أن تم لغازان النصر على الايلخان بايدو حتى بر بوعدته ، فأسلم في الرابع من شهر شعبان سنة ٦٩٤ هـ (١٩ يوليو عام ١٢٩٤ م) . وكان اسلام غازان حدثاً كبيراً ، كما كان يوم نطقه بالشهادتين يوماً مشهوداً . وقد تم كل ذلك بناحية « لار » في دماوند ، حيث بدأ بدخول الحمام والاعتسال تطهيراً لنفسه وبخفه من رجس الشرك وفعل الشيطان ، ثم لبس

رداء اسلاميا جديدا ، ونطق بالشهادتين على يدي الشيخ صدر الدين ابراهيم ابن العارف الشهير الشيخ سعد الدين محمد بن حموية الجويني ، وذلك في مجلس كبير ، وشهد شهادة الحق في الملاء العام (١) . وتبعه في نطق الشهادة قرابة مائة ألف نفر من المغول ، فدخلوا في الدين الاسلامي الحنيف . وانتخب غازان اسما اسلاميا صاحبه بلقب اسلامي أيضا ، فتسمى بمعز الدين محمود كما تلقب بالسلطان مع الاحتفاظ باللقب المغولي « خان » ، فعرف في التاريخ باسم « السلطان محمود غازان خان » .

وكان أول « يرليخ » (٢) أصدره السلطان محمود غازان خان هو الزام جميع المغول في المملكة الدخول في الدين الاسلامي ، وأن يتبعوا في سلوكهم تعاليم الاسلام وآدابه . أما ثاني « يرليخ » فكان تحطيم جميع الكنائس المسيحية ومعابد اليهود والبوذيين وبيوت النار الزردشتية في كافة أنحاء المملكة ، وأن يحل محلها المساجد لاقامة شعائر الدين الاسلامي . وصار السلطان محمود غازان خان ينفق بسخاء على الزهاد والعباد والسادات الذين وجدوا في بلاطه ترحيبا . كما أمر بتشديد دور العبادة وترميم مقابر الشيوخ والأئمة المتهدمة نتيجة الغزو المغولي الاول . وكان يقوم بنفسه بالدعوة للإسلام في المناسبات الدينية ، تلك التي احتفل بها لأول مرة منذ توقفها في عهد هولاكو . وكانت اجادته للغة الفارسية ، والتي كان يتكلمها بطلاقة مع خواصه ، وفهمه لأكثر ما يقال باللغة العربية سببا في أن يتمكن من نقل الديانة الاسلامية الى المغول بلغتهم ، حتى أنه كان يقف لهم موقف الواعظ والمرشد والمعلم يخاطبهم بالمغولية ويشرح لهم كتاب الله وسنة رسوله والآداب الاسلامية حتى هداهم الله على يديه . وتبع اسلام غازان وتحول دولته من الوثنية الى الاسلام أن قطع صلته بالخاقان المغولي الجالس على العرش الچنكيزي في خانبالق (يكنى) بالصين ، بعد أن كان حكام ايران ابتداء من هولاكو حتى عصره يعدون أنفسهم نوابا للخاقان . أما السلطان محمود غازان خان فانه قطع كل صلة له مع مغول منغوليا والصين ، حتى أنه

(١) ابن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة .

ج ٣ ، ص ٢١٢ .

(٢) يرليخ كلمة مغولية تعني الامر والفرمان .

منح ما كان يحمل اليهم من أموال ، وأفرد نفسه بالذكر والخطبة ، وضرب السكة باسمه وطرده نائبيهم من بلاد الروم (٣) .

وتمشيا مع الروح الاسلامية التي سادت عصره ، فان السلطان محمود غازان خان أصدر يرليغا يحتم على المسيحيين واليهود الذين ساعدوا المغول في ايذاء المسلمين ارتداء أزياء مميزة ليعرفوا بها خارج دورهم ، وطردهم من الوظائف العامة وجعلها قاصرة على المسلمين . فلاقوا على يد المسلمين مثل ملاقاه المسلمون على أيديهم من قبل .

ان هناك حادثة ذكرها ابن حجر العسقلاني في كتّابه الدرر الكامنة وتبعه فيها عدد من المؤرخين مثل الشوكاني في كتابه « البحر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع » وغيره ، تحيرنا في اسلام غازان خان ، ولو في بداية أمره بالاسلام ، ذلك أنه عندما أسلم قيل له أن الدين الاسلامي يحرم نكاح نساء الآباء . وكان غازان خان قد أضاف الى نسائه نساء أبيه طبقا لعادات المغول وتقاليدهم التي تحتم انتقال نساء الأب الى الابن ما عدا أمه . وكان أحبهن الى قلبه « بلغان خاتون » أكبر نساء أبيه ، فهم أن يرتد عن الاسلام . فقال له بعض خواصه من المسلمين بأن أباك كان كافرا ولم تكن « بلغان خاتون » معه في عقد صحيح ، انما كان مسافحا لها ، فاعقد أنت عليها فانها تحل لك ، ففعل ، ولولا ذلك لارتد عن الاسلام ، واستحسن ذلك من الذي أفتاه به لهذه المصلحة (٤) .

ونظر كثير من أمراء المغول وأشرافهم ، بل وعامتهم ، الى تحول غازان عن عقائد أجداده الى الاسلام نظرة سخط وكراهية ، خاصة وأنهم وجدوا الدولة قد تغيرت لغير صالحهم ، فأدى ذلك الى قيام الثورات والاضطرابات وتفشت الدسائس والفتن فيما بينهم ، وما ذلك الا أن عدم اسلامهم حال دون تبوئهم المناصب العليا في الدولة ، وحتى في حالة اسلامهم فقد نافسهم

(٣) ابن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة ، ج ٣ ، ص ٢١٣ .

(٤) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

المسلمون في تلك المناصب ، ووصلوا الى البلاط وقربهم السلطان اليه ، واعتبرهم خاصته والمدافعين عنه . وأيضا لم يقلل اعتناق غازان خان للإسلام كمغولي من كراهيته للمصريين ، ودخل معهم في صراع رهيب وحروب طاحنة أودت بحياته في نهاية الأمر .

سياسة غازان خان الداخلية :

ما أن تولى غازان خان الحكم المغولي في إيران وجلوسه على العرش الايلخاني حتى نصب قائد جيوشه الأمير نوروزبيك امرة الأمراء ، وأسند اليه ادارة شئون البلاد أو بمعنى أصح فوض اليه نيابة حكم المملكة ، كما عين أخاه خدابنده واليا على خراسان ، وعين خواجه صدر الدين أحمد الخالدي الزنجاني وزيرا . ثم شرع يتعقب مناوئيه من أمراء بايدو ومخالفيه في اعتناقه الدين الاسلامي الحنيف . وتمكن من القضاء عليهم دون رحمة وشفقة ، فقتل الأمير طغاجار ، وكان أقوى الأمراء سطوة ويخشى منه القيام بثورة تطيح بالسلطان لتمرسه في مثل هذه الأعمال ، فتحايل عليه غازان خان حتى قبض عليه وأعدمه . ثم تخلص من أعوانه ومؤيديه من الأمراء والقادة ، فقتل جماعة منهم حتى قيل أنه قتل في شهر واحد ما لا يقل عن خمسة من أمراء المغول وسبعة وثلاثين من حكامهم المنتشرين في الأقاليم الايرانية المختلفة . كما تمكن السلطان غازان خان من احباط ثورتين قام بهما كل من الأمير « أافرناك » الابن الأكبر لكيخاتو خان ، والأمير « توكان » الابن الأكبر لبايدو خان ، وكانا قد حاولا الاستيلاء على العرش بالقوة والاطاحة بغازان خان والعودة بالدولة الى سابق عهدها مغولية چنكيزية تحكمها الياسا والعرف المغولي .

وفي تلك الأثناء انتهز مغول ما وراء النهر فرصة عدم وجود قوات ايلخانية كافية في خراسان حتى أغاروا عليها بقيادة « أوجاي بن براق خان » ودمروا المنطقة تماما ، فأعادوا للأذهان حملة چنكيز خان وما تركته من دمار وتشرد وسفك للدماء في البلاد بحيث قيل أن ما تركه جحافل المغول الأول آتت عليه حملة « أوجاي » . ووصلت تلك القسوات المتوحشة حتى اقليم مازندران ، واقتربوا من العاصمة تبريز . وتصدى لهم الأمير نوروز وتمكن من محاصرتهم وقطع الممدد عنهم وحاصرهم في منطقة اختارها لتكون ميدان

معركته ، وتمكن من انزال هزيمة ساحقة بالمغول (٥) ، وأجبرهم على الفرار الى بلاد ما وراء النهر لا يلوون على شيء .

واستغل الأمير نوروز هذا الانتصار لصالحه ، وبدأ يستبد بالأمور ويصدر القرارات دون الرجوع الى السلطان محمود غازان خان ، وأتى بتصرفات لم يوافق عليها الوزير خواجه صدر جهان ، فما كان من نوروز الا أن أعفاه من منصبه وأسندته الى أحد أعوانه وهو « خواجه جمال الدين دستجرداني » وتلى ذلك تنحية الكثير من أعوان الوزير خواجه صدر جهان واعادة توزيع وظائف الدولة العليا ، واختصها لأقربائه والمقربين اليه . وعلى هذا النحو قبض الأمير نوروز على الشئون العسكرية والأمور الادارية وأصبحت الدولة كلها في يده ولم يترك للسلطان شيئاً .

ولم يرق جماعة من الأمراء استبداد الأمير نوروز وانفراده بالحكم ، فاتخذ جماعة منهم ووقفوا في وجهه ، وتزعمهم « سوكاى » وهو ابن يشموت ابن هولاكو ، و « برلا » و « أرسلان أوغول » من حفدة جوجى بن چنكيز خان ، ورفضوا راية الثورة وتعصبوا للمذهب البوذى ، وحاولوا جمع المغول الذين لم يسلموا بعد ليقفوا في صفهم ، كما اتصلوا بمن أسلم من المغول يثنونهم عن دينه الجديد . وطبقا لما كانت لدى الأمير نوروز من سلطات مطلقة وحرية في العمل تصرف بمفرده مع الثائرين ، وأعدم جماعة من الأمراء بتهمة المؤامرة على ملك الاسلام « السلطان محمود غازان خان » . وأشرك معهم الوزير السابق صدر جهان في المؤامرة ، وأراد اعدامه ، لكن أحد الأمراء المقربين من غازان خان يدعى « هرقداق » تمكن من تبرئته من التهمة الموجهة اليه ، وثبت أن الوزير خواجه جمال الدين دستجرداني كان وراء التهمة ، فأمر السلطان محمود غازان خان بقتله بعد ثبوت تهمة استغلاله السلطة والاستيلاء على أموال الدولة ، فتم اعدامه في ٦ ذى الحجة سنة ٦٩٢ هجرية ، واعاد صدر جهان الى الوزير مرة أخرى .

(٥) يطلق على مغول التركستان الذين يرأسهم خانات من أسرة چغتاي بن چنكيز خان بالمغول التورانيين .

نهاية الأمير نوروز :

أراد السلطان محمود غازان خان أن يعيد الأمور إلى نصابها بعد الفوضى والتسيب الناتجين عن استبداد الأمير نوروز ، فأقدم على تعيين صدرجهان وزيرا حتى يشعر نوروز أن عصر نفوذه قد ولى ، وذلك لما بين الوزير والأمير نوروز من عداوة وتشاحن . وواقع الأمر أن الوزير صدرجهان كان يسعى بكل الوسائل للايقاع بالأمير نوروز والقضاء عليه . وحتى يوقعه في التهلكة اصطنع رسائل كتبها بمساعدة أخيه « قطبجهان » على لسان الأمير نوروز ، منها رسالة موجهة إلى الملك المنصور محمد سلطان المماليك في مصر والشام . وكان الاتصال بالمماليك يعد أكبر الجرائم عند المغول للعداوة بينهما . وقال فيها : « ان غازان خان قد أسلم فعلا ، لكن أمراءه لا يزالون على دين أجدادهم وعلى ذلك فان حكومة ايران على رأسها كفرة » (٦) . وطلب في آخر الرسالة أن يهاجم ايران وذكر له أنه يقبض في يديه زمام الأمور ومناه بتسهيل مأموريته وفتح أبواب ايران لسلطان المماليك واعتلاء العرش الايلخاني .

وبهذه الطريقة مهد الأخوان صدرجهان وقطبجهان المؤامرة ضد الأمير نوروز ، وألصقا له تهمة التآمر سرا مع سلطان المماليك في مصر ، وأطلعا غازان خان على المؤامرة التي تحاك ضده . وكان غازان خان نفسه غير مرتاح لتصرف الأمير نوروز ، فاستمع إلى وشايتهم وأنصت إليها . فأمر بالقبض على الأمير نوروز دون تحري الدقة ، وأمر باعدامه هو وأخوته وأبنائه وجميع أفراد عائلته ، وضم إليهم عددا كبيرا من المقربين إليه . أما الأمير نوروز فانه ما أن بلغه قرار السلطان حتى فر إلى هراة ، واحتفى بحاكمها الملك فخر الدين كرت . فأصدر غازان خان أوامره إلى قائده « قتلغشاه » بالتوجه إلى هراة والقبض على نوروز . فجهز الأخير حملة عسكرية بلغ تعدادها ٧٠ ألف جندي مغولي ، وتوجه إلى هراة وحاصرها ، وطلب من ملكها تسليم الأمير نوروز ، فوجد الملك فخر الدين كرت أن الأمور قد تأزمت ، وأن حياته مهددة أكثر من ضيفه نوروز . وكان متزوجا من

(٦) رشيد الدين فضل الله الهمداني : تاريخ مبارك غازاني - داستان غازان خان ، تحقيق كارل يان ، انجلترا في ١٩٤٠م ، ص ١٠٧ - ١٠٨ .

ابنة أخيه - وخشى عاقبة الأمور ، فقبض على الأمير نوروز وسلمه الى أعدائه ، فقتله قتلغشاه في ٢٢ ذى القعدة سنة ٦٩٦ هجرية . وبهذه الطريقة المفجعة قضى غازان خان على الأمير نوروز الذى كان له الفضل فى ارتقائه العرش الايلخانى وتشرفه بدخول الاسلام وحشره فى زمرة المسلمين .

ونهاية خواجه صدرجهان أيضا :

ثم جاء دور الوزير خواجه صدر الدين أحمد الخالدى الزنجانى الذى كان سببا فى قتل الأمير نوروز بيك ، فلقى ما لاقاه عدوه بالأمس ، ذلك أنه اتهم باستغلال نفوذه واستيلائه على أموال الدولة ، وتوزيعه وظائف الدولة العليا على غير مستحقين . وكانت قد وصلت الى مسامع غازان خان الكثير من تصرفاته ، فأصدر أمرا بأن يقوم قتلغشاه بشطره نصفين . وتم اعدامه على هذا النحو فى ٢٢ رجب سنة ٦٩٧ هجرية ، ثم تبعه أخوه قطب الدين أحمد « قطبجهان » وكذلك أفراد عائلته وأقاربه والمحيطين به فقتلوا جميعا فى تبريز فى مذبحه رهيبه . وعلى هذا النحو انقرضت أسرة صدرجهان الوزير الأديب العالم السياسى الماهر والادارى الحازم . وان كان ما يؤخذ عليه سعائته للفتن والوقيعه بالآخرين وجبه المال . وخلفه فى منصب الوزارة خواجه رشيد الدين فضل الله الهمدانى الطبيب والمؤرخ المعروف صاحب كتاب « جامع التواريخ » وكتب أخرى .

وبتلك المذابح المتتالية التى شملت كبار رجال الدولة المغولية فى عهد السلطان محمود غازان خان قضى على معظم أمرائه ووزرائه وكبار الموظفين . وعلى حد قول السيد هنرى هوارث فى كتابه تاريخ المغول أنه من النادر ان ترى صفحة من كتاب رشيد الدين فضل الله من ملاحظة خاصة باعدام موظف (٧) .

علاقات غازان خان بالماليك حكام مصر والشام :

أمضى غازان خان شطرا كبيرا من حياته ، وهو متربع على العرش الايلخاني ، في محاربة الماليك حكام مصر والشام . وقد وصلت أنباء الى السلطان محمود غازان خان تفيد أنه سادت مصر حالة من الضعف والتفكك بسبب التطاحن على العرش والسلطة بين أمراء الماليك ، وبخاصة في الفترة التي اغتصب فيها كل من كتبغا ولاجين العرش من الملك الناصر محمد بن قلاوون ، مما شجع السلطان محمود غازان خان على التفكير في فتح بلاد الشام وضمها الى مملكته على أن تكون خطوة للوثوب على مصر وضمها الى أملاكه .

ان هناك عوامل ساعدت السلطان محمود غازان خان على مهاجمة سورية ، منها أن الملك الناصر محمد كان يحرض أمراء المسلمين على طرد المغول من ايران والعراق ، وأيضا مهاجمة جيش مصرى بلاد الأرمن . وهى دولة حليفة طبيعية للدولة المغولية في ايران ، بل كانت تعد تابعة للمغول الأمر الذى عده السلطان محمود غازان خان اعتداء على ممتلكاته . كذلك استقبال السلطان الملوكي كتبغا عصاة المغول الذين فروا من وجه غازان خان بعد انتصاره على بايدو واعتناقه الاسلام فقد هاجر عدد كبير من جند بايدو خان بعد تشتتهم وطلبوا الإقامة في مصر . ويعرف هؤلاء باسم « المغول العويراتية » . ويذكر أبو الفدا « أن عدد الفارين من وجه غازان زاد على عشرة آلاف بيت ، ولوا وجههم شطر مصر بزعامه « طرغيه » صهر « منكوتيمور بن هولكو » الذى ناصر بايدو خان على كيخاتو خان . وأنه لما دارت الأيام دورتها واستطاع غازان أن يعتلى العرش الايلخاني في ايران أراد أن يأخذ بثأر عمه من منكوتيمور ففر هو وجماعته يريدون مصر وأظهروا رغبتهم في اعتناق الاسلام لكى يسمح لهم بالدخول » (٨) . ولما وصل هؤلاء الى نهر الفرات كاتب نواب الشام كتبغا يخبرونه بأمر العويراتية . ويطلبون منه الاذن بدخولهم مصر . فجمع السلطان أمراء الدولة واستشارهم في هذا الامر ، فاتفق الرأى على انزال عامتهم بساحل بلاد الشام وحضور

(٨) أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ، ج ٤ ، ص ٣٤ .

رؤسائهم الى مصر . ويعلق على تلك الواقعة المؤرخ المصرى المقرئزى بقوله :
 « كان كتبغا مغولى الجنس ، فلا عجب اذا مال اليهم واحتضنهم وأهتتم
 بأمرهم اعتمادا أثار فى قلوب أمراء الدولة الاحن والأحقاد عليه ، وخصوصا
 عندما ظهر أنهم قد عدلوا عن الدخول فى الاسلام وتمسكوا بعقائدهم
 الوثنية (٩) . لكن كتبغا رفض أن يتعرض لهم بسوء ، اذ كان يرمى الى
 اتخاذهم عوناً له على البقاء فى كرسى السلطنة .

كانت كل هذه العوامل مشجعة على ازدياد هوة الخلاف بين المغول
 الايلخانيين والمماليك وظهر العداء سافرا ، وتوعد السلطان محمود غازان خان
 المماليك وصمم على ابادتهم والتمثيل بهم واستعد كل فريق للملاقاة الآخر .
 وما أن ضرب سيف الدين قيقق نائب السلطان فى دمشق مع جماعة من
 الأمراء فى خمسمائة من الجند الى ايران واجأوا الى السلطان محمود غازان
 خان - وقد أبلغ سيف الدين قيقق السلطان محمود غازان خان ما آلت اليه
 حالة سورية فى نهاية حكم لاجين - حتى تشجع السلطان المغولى وبدأ يفكر فى
 امتلاك بلاد الشام وتحقيق أطماع المغول فيها ثم مواصلة السير الى
 مصر (١٠) .

ويمكننا أن نتصور أهمية تلك الحادثة وما كان لها من أثر فى علاقات
 الملك الناصر محمد بن قلاوون بالسلطان محمود غازان خان ، والذي كان
 يتهيب المماليك بعد ما رآه من شجاعتهم وحسن خطتهم وانتصارهم على ملك
 أرمينية . فأدرك غازان خان أن أوضاع أعدائه سيئة للغاية ، وأن الخلافات
 بينهم وصلت الى طريق مسدود بحيث لا يمكنهم لم شملهم والدخول فى
 حرب ينتصرون فيها . وكانت رغبة غازان خان متجهة الى الاعتداء على دولة
 المماليك ، وظن أن أحوال مصر ونزاع أمرائها ستساعده على تحقيق مآمنه .
 وانتهاز فرصة ارسال الأمير « بلبان الطباخى » نائب حلب جيشا الى ماردین
 عاث فيها فسادا ، فاتخذ غازان ذلك جحة فى غزو الشام (١١) .

(٩) المقرئزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٢ .

(١٠) أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر ، ج ٢ ، ص ٢٢ .

(١١) مفضل بن أبى الفضائل : الفهج السعيد ، ص ٦٢٢ - ٦٢٣ .

وحتى تأخذ حروب غازان خان مع سلاطين مصر والشام الصبغة الشرعية ، استفتى رجال الدين والعلماء ، المذنبين أجمعوا على الجهاد ، فأخذت حملته الصبغة الشرعية وأظهر ذلك ما كان للمغول تجاه المماليك من أحقاد دفيئة . وشجعه على اقتحام سورية قتل الملك المنصور واعتلاء الملك الناصر محمد العرش المملوكي للمرة الثانية ، وما تبع ذلك من خلل في الأوضاع في كل من مصر وسورية ، فقام في خريف عام ٦٩٧ هجرية بتجهيز حملة قوامها ثلاث تومانات (التومان يساوي عشرة آلاف) من جنود مغول وإيرانيين ، وعهد إلى قائده قتلغ شاه قيادة الجيش ، وأمره بالتوجه إلى بلاد سلاجقة الروم في آسيا الصغرى ، وأن يسير بحذاء نهر الفرات ، وأخبره بأنه سوف يسير على رأس جيش آخر نحو ديار بكر . وقد انضمت إليهما قوات مغولية وفدت من مختلف النواحي حتى وصل تعداد الحملة المغولية ضد المماليك تسع تومانات (أى ٩٠ ألف مقاتل) .

ولما وصل إلى مسامح السلطان الناصر محمد بن قلاوون خبر الحملة المغولية وعبور غازان خان على رأس الجيش جهز جيشا لصد المغول . وفى بادئ الأمر لازم المصريين سوء الحظ ، ذلك أن العويراتية طلبوا من الملك الناصر إشراكهم فى القتال ، فوافق السلطان المملوكى على ذلك . لكنهم ما كادوا يصلون إلى غزة حتى دبروا مؤامرة لاغتيال الملك الناصر محمد وقواده ، وكانوا يرمون إلى إعادة كتيبغا المغولى الأصل إلى العرش المملوكى ، والأخذ بثأر إخوانهم الذين قتلوا فى عهد لاجين . فكان من أثر ذلك أن تأخر زحف الجيش المصرى ، وعمت الفوضى والاضطراب صفوف المماليك وفقد أثناء ذلك كثير من آلات الحرب . على أن قواد الجيش المملوكى أظهرُوا نشاطا وحكمة فى إحباط تلك المؤامرة ، وإعادة النظام إلى وحدات الجيش ، ولقى المتآمرون جزاء ما فعلوا ويقول المقرئى : « شفق منهم نحو الخمسين ونودى عليهم : هذا جزاء من يقصد إقامة الفتنة بين المسلمين ويتجاسر على الملوك ، (١٢) » .

موقعة الخازندار :

قاد السلطان الناصر محمد الجيش المملوكى واتجه به من القاهرة الى بلاد الشام ، فدخل عسقلان فى ٨ ربيع الاول سنة ٦٩٨ هجرية (١٢٩٨ م) . وما أن وصلت اليه الاخبار بكثرة عدد جنود العدو ووفرة عدته حتى وقع الرعب فى قلوب الجند المماليك ، وخاصة عندما رأوا أنواعا من الجراد محلقة فى الجو ، فاعتبروها نذيرا بالهزيمة ، فخارت قواهم ووهنت عزائمهم وضعت قلوبهم . والتقى الفريقان فى قرية تعرف باسم « مجمع المروج » فى وادى الخازندار بين حماة وحلب ، وذلك فى ٢٧ ربيع الاول سنة ٦٩٩ هجرية يقول المقرئى : « كان عدد المماليك عشرين ألفا ، وبلغ المغول خمسة أضعافهم » (١٣) . وكان جيش المماليك يجمع أكفأ الامراء والقواد ويضم بعض رجال الدين لبث روح الحماس والجهاد وحب النصر فى الجنود . أما السلطان محمود غازان خان فقد رتب جيشه بحيث تكون الخيل فى المقدمة ، وأقام من ورائها الفرسان راجلين بقصد حماية رجال جيشه من هجمات العدو ، ونم يمتط فرسان المغول خيولهم الا بعد أن حمى وطيس القتال .

وتقد أرخ صاحب المنهل الصافى المعركة التى دارت بين المغول والمصريين فى موقعة الخازندار ، يقول : « وعدى غازان والتتار (ويقصد المغول) . وخرج السلطان (ويقصد الناصر) لتلقى العدو ، وساق الى حمص ، وركب بكرة الاربعاء سابع عشرين الشهر وساق الى وادى الخازندار ، فكانت الواقعة ، والتحم القتال واشتد الحرب ، وثبت عسكر الاسلام الى العصر ولاح لهم النصر . ثم تكاثر عساكر التتار قريبا من مائة ألف ، فشرع المسلمون فى الهزيمة ، وأخذ الامراء السلطان وتخيروا به وجمعوا ظهورهم ، وساروا على درب بعلبك والبقاع ، وبعض العسكر عبر دمشق ، واستشهد فى المصاف جملة من الامراء » (١٤) .

وكان النصر حليف المغول فى معركة الخازندار . أما المماليك فانهم انهزموا هزيمة فاحشة رغم انتصارهم فى بداية المعارك وتفوقهم على المغول .

(١٣) المقرئى : كتاب السلوك لمعرفة الدول والملوك ، ج ١ ، ص

٩٢٨ - ٩٢٩ .

(١٤) أبو المحاسن : المنهل الصافى ، ج ٣ ، ص ٢٤٥ .

ويعطينا مفضل بن أبي الفضائل وصفا دقيقا عن كيفية انتهاء المعركة بقوله : « صارت الاخبار مضطربة ، وأخبر قوم أن التتار عزموا على الهروب ، وثنوا أعنتهم للرجوع ، فأشير على السلطان (الناصر) بسرعة المسير اليهم فركبت العساكر بعد أن قاموا على ظهور خيولهم ثلاثة أيام بعددعم وأساحتهم . ولما التقى الجمعان حملت الميسرة المنصورة على ميمنة العدو ، فكسرتهم وسأقت العساكر خلفتهم الى خلف أثقالهم ، وحملت ميسرة العدو على ميمنة العساكر المنصورة فكسرتها . والتقوا على السلطان والقلب وفوقوا نحوهم سهاما كدفة المطر أو كجرية النهر المنهمر . ثم حصل تخاذل أوقعه الله تعالى بمشيئته (في جيش الناصر) فهربت الميمنة ، وهرب من كان وراء السناجق السلطانية ، وانفل الجيش ، وانفصل الامر بعد العصر . وساق السلطان بطائفة يسيرة نحو بعلبك وبقيت الغنائم والاموال والعدد والاثقال ملقة ملو الارض ، ورمى الجند سائر عددهم ليخففوا عن خيولهم لينجوا بأنفسهم » (١٥) .

فتح دمشق :

زحف غازان خان بجيشه المغولي الفارسي بعد انتصاره على الجيش المملوكي في موقعة الخازندار الى حمص ، فنهب جند المغول ما كان فيها من خزائن السلطان والمؤن والخائز ، ثم رحلوا الى دمشق ، فوقع الرعب في قلوب سكانها ، وخرجت النساء سافرات ، وترك الناس حوانيتهم وأموالهم وازدحموا على أبواب المدينة يريدون الخروج منها ، ودفعوا الاجور الغالية لأصحاب الخيل والحمير لحمل من عجز منهم عن السير ، واعتصم بعضهم بالقرى ورؤوس الجبال ، وسار البعض الآخر الى مصر . وقد اتفق جماعة على اختيار وفد من كبارهم وعلمائهم لمقابلة السلطان محمود غازان خان والتماس الامان منه . ومن هؤلاء ابن جماعة وابن تيمية وغيرهما من القراء والفقهاء والاعيان ، ولما مثلوا بين يديه قبلوا الارض وسألوه الامان ، وقدموا له طعاما على سبيل الهدية فاعتذر عن قبوله ، وأخبرهم أنه أرسل الأمان لأهل دمشق مع أربعة من المغول (١٦) . فعادوا الى مدينتهم واجتمعوا

(١٥) مفضل بن أبي الفضائل : النهج السديد ، ص ٦٣٤ - ٦٣٥ .

(١٦) مفضل بن أبي الفضائل : النهج السديد ، ص ٦٣٦ - ٦٤٠ .

وأیضا : الذهبی العبر ، ج ٥ ، ص ٣٩١ - ٣٩٢ .

بالمسجد الأموي ، وتلا عليهم رجل من المغول صورة الأمان في ٥ ربيع الثاني سنة ٦٩٩ هجرية (١٢٩٩ م) ، وتضمن الكتاب تأمين الاهالي جميعهم على اختلاف أديانهم ومذاهبهم ، والعمل على ايجاد حكومة رشيدة تقرر العدل والنظام اذا ضمت مصر الى حوزة المغول . وقد ورد في هذا المنشور بعض عبارات تشير الى أن سلاطين مصر وحكامها قد حادوا عن جادة العدل والانصاف حتى اضطربت أحوال البلاد في عهدهم ، وأن الله سبحانه وتعالى قد أرسل المغول الى الشام ومصر لتخليصهم مما هم فيه . وفورده بعض ما جاء بذلك المنشور : « بقوة الله تعالى واقبال دولة السلطان محمود غازان ، ليعلم أمراء الطومان والالوف والمائة وعموم عساكرنا المنصورة ممن هو داخل تحت ربة طاعتنا . ان الله لما نور قلوبنا بنور الاسلام وهدانا الى ملة النبي عليه أفضل الصلاة والسلام ، أفمن شرح الله صدره للاسلام ، فهو على نور من ربه فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله ، أولئك في ضلال مبين . وما أن سمعنا أن حكام مصر والشام خارجون عن طريق الدين ، غير متمسكين بأحكام الاسلام ، ناقضون لعهودهم ، حالفون بالايمان الفاجرة ، ليس اديهم وفاء ولا ذمام ، ولا لامورهم التتأم ولا انتظام ، وكان أحدهم اذا تولى سعى في الارض ليفسد فيها ، ويهلك الحرث والنسل ، والله لا يحب الفساد . وشاع عن شعارهم الحيف على الرعية ، والتخطي عن جادة العدل والانصاف حملتنا الحمية الدينية والحفيظة الاسلامية ، على أن توجهنا الى تلك البلاد لازالة هذا العدوان ، واماطة هذا الطغيان مستصحبين الجرم الغنير من العساكر . وفخرنا عن أنفسنا ان وثقنا الله تعالى بفتح تلك البلاد أنزانا بالعدوان والفساد ، وبسطنا العدل والاحسان في كافة العباد ، ممثلا للأمر الالهي » ان الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون » (١٧) .

وعلى هذا النحو من الترغيب والترهيب دخل المغول دمشق ، واستولوا على بلاد سورية وفلسطين ودخلوا بيت المقدس وغزة . وكانت العهود التي تضمنها المنشور الذى أصدره السلطان محمود غازان خان يؤمن فيه الاهالي لم يكن الا سرايا وخدعة ، فما أن نزل السلطان بظاهر دمشق حتى عاثت

جندة فسادا في كافة البلاد ، واشتقوا في أعمال النهب والتخريب وبخاصة في بيت المقدس والكرك ، كما تعرضوا لأنفس الآثار فخرّبوا بعضها وأحرقوا بعضها الآخر ، ولم ينج من أيديهم الا قلعة دمشق اذ دعى التي اعتصم بها واليها ، وحال دون استيلاء المغيرين عليها .

ولما وقف حاكم القلعة المملوكي « أرجواش المنصوري » في وجه المغول وتأكدوا أنهم لن يتمكنوا من الاستيلاء عليها ، فوض السلطان محمود غازان خان الأمير تيجق وبعض الأمراء المماليك الذين التجأوا بغازان للتفاوض في استلام القلعة ، فأبى حاكمها ، وحدث حوار عنيف بين الوفد المملوكي الممثل لغازان وأرجواش المنصوري ، قالوا له : « دم المسلمين في عنقك ان لم تسلمها فأجابهم على ذلك بقوله : « دم المسلمين في أعناقكم أنتم الذين خرجتم من دمشق وتوجهتم الى غازان وحسنتم اليه المجيء الى دمشق وغيرها . ثم وبخهم وامتنع عن تسليمهم القلعة ، وظل متحصنا بها » (١٨) .

ومع ما افترقه المغول من عبث ونهب فقد كان يقل بكثير عما فعله أجدادهم عندما أغاروا على بلاد الشام ، بل لم نسمع أنهم آذوا الاهالي المسلمين ، ولم يقوموا بدك المدن وذبح الاهالي كعهد الناس بهم . وهذا في حد ذاته يدل على أن الاسلام قد هذب نفوسهم ، وأن اقامتهم في البلاد الايرانية قد صقلت حياتهم وحولتهم من البربرية المتوحشة الى أناس مستأنسين ، وأن ما فعلوه في بيت المقدس يدل على تعصبهم للاسلام ليس أكثر (١٩) .

عودة غازان خان الى ايران :

واضطر السلطان محمود غازان خان الى العودة الى ايران فترك دمشق في ٩ جمادى الاولى سنة ٧٠٠ هجرية (١٣٠٠ م) بعد أن علم أن مغول التركستان الچغتائيين هجموا على حدود بلاده الشرقية من ناحية خراسان . وعاثوا في شرقي المملكة الايلخانية الفساد والدمار مفتيزين فرصة تواجد

(١٨) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٨ ، ص ١٢٥ .
(١٩) ميرخواند : روضة الصفا ، ج ٥ ، ص ٤٠٣ - ٤١١ .

السلطان غازان خان ومعظم جيشه في سورية وخلو البلاد من جنود يدافعون عنها ، فقام بمحاربتهم وتمكن من السيطرة على الموقف وطرد المعتدين من بلاده ، ففروا لا يلوون على شيء ، ولم يكتف بذلك بل تعقبهم في ديارهم وبيد جمعهم .

هزيمة المغول وطردهم من سورية :

وقعت سورية برمتها في قبضة المغول ، الذين استبدلوا الادارة المملوكية بادارة مغولية تتبع الايلخان الجالس على العرش المغولي في تبريز ، وخلف السلطان محمود غازان خان نائبه « قتلغ شاه » لادارتها ومعه ستون ألفا من جند المغول . وقبل أن يغادر غازان خان دمشق في طريق عودته الى تبريز ، كتب الى سيف الدين قيقق عهدا بنياية الشام ، وقال فيه : « ٠٠٠ فلما اتصل بنا ما بمصر من المظالم ، ومن غيها من غاصب وظالم هاجرنا لنصرة الله تعالى ونصرة الدين وبادرنا لانقاذ من فيها من المسلمين ، وراسلناهم وأنذرناهم وكاتبناهم وزجرناهم ووعظناهم ، فلم تنفع فيهم العظة ، وأيقظناهم فلم يكن عندهم يقظة ، فلقيناهم بقوة الله تعالى فكسرناهم وقلعنا آثارهم وملكنا الله تعالى أرضهم وديارهم وتبعانهم الى الرمل ، وحطمناهم كما حطم سليمان وجنوده وادى النمل ، ولم ينج منهم الا الفريد ولا سلم الا البريد ، فلما استقر تملكنا للبلاد وجب علينا حسن النظر في العباد ، فأحضرنا الفكر فيمن نقله الأمور ، وأمعنا النظر فيمن نفوض اليه مصالح الجمهور ، فاخترنا لها من يحفظ نظامها المستقيم ويقيم ما اناد من قوامها القديم ٠٠٠ فرأينا أن الجناح العالي الأوحدي المؤيدي الكفيلي المشيرى المجاهدى الأميرى الهامى النظامى السيفى ملك الأمراء فى العالمين ظهر الملوك والسلطين قيقق هو المخصوص بهذه الصفات الجليلة ٠٠٠٠ فلذلك رسمنا أن نفوض اليه نياية السلطنة الشريفة ٠٠٠٠٠٠ » (٢٠) .

انفرد قيقق بحكومة دمشق ، وكان قتلغ شاه قد لحق بغازان خان بعد عشرة أيام من رحيل الايلخان ، فغدر قيقق بالمغول وقتلهم وتبعهم حتى

(٢٠) مفضل بن أبى الفضائل : النهج السديد ، ص ٦٤١ - ٦٥٠ .

ظهر البلاد منهم ، وأبلغ قيقق السلطان الناصر نبأ خروج غازان خان وقتلخ شاه من دمشق وعودة سورية الى حوزة المماليك (٢١) .

ان أحداث سورية واحتلال المغول لها وطردهم منها ترينا ما كانت عليه أحوال كل من مصر وإيران من اضطراب ، ففي مصر كان الخلاف بين الامراء ، وهم الذين شجعوا غازان خان على مهاجمتهم بعد أن أطلعه المنشقون منهم على نواحي الضعف وثغرات الوهن والخلل في الدولة المملوكية . كذلك كان على غازان خان أن يتوجه الى خراسان لدفع غارات المغول التورانيين (الچغتائيين) الذين هاجموا البلاد الايرانية من الناحية الشرقية ، وعاثوا في مدنها وقراها وحضرها ومدرها الفساد والدمار . كذلك كان انشقاق الامير سيف الدين قيقق نائب السلطان الناصر محمد بالشام وخيانتة أولا وعودته ثانيا لخيانة سيده الجديد غازان خان من أسباب اضطراب الأمور .

ومع ذلك فقد رحب السلطان المملوكي الناصر محمد برجوع الامير المنشق سيف الدين قيقق الى حظيرة المماليك مرة أخرى بعد أن خانهم وانضم الى عدوهم ، ليكون سنداً له ضد المغول ألد أعدائه في ذلك الوقت . أما الامير سيف الدين قيقق وتصرفاته الشاذة التي أودت بانسلاخ الشام عن مصر وهزيمة الجيش المملوكي وتدميره ، فانه من المرجح أنه قد أفاق لنفسه ، وأيقن أنه الخاسر لا محالة ، خاصة بعد أن وصلت أخباره عن الاستعدادات الحربية الهائلة التي كان يقوم بها السلطان الناصر محمد ، وتوقعه انتصار المماليك على المغول . فكان ذلك أحد العوامل الرئيسية التي أدت بالامير سيف الدين قيقق الى ترك المغول وانقلابه عليهم وعودته الى حظيرة المماليك مرة أخرى .

ووجد السلطان محمود غازان خان نفسه في موقف حرج للغاية ، وكان عليه استعادة سورية من أيديهم حتى يعيد للدولة الايلخانية هيبتها واحترامها . فجهز جيشاً سار به عبر الفرات واتجه الى انطاكية ، وكان ذلك في شتاء عام ٧٠٠ هجرية (١٣٠٠ م) غير أن قسوة البرودة حملته

على عدم مواصلة الزحف نحو الشام ، فرجع أدراجه بعد أن هاجم أنطاكية وجبل السماق وقام جنوده بنهب الاموال والفتك بالاهالي . كما قام بأسر عدد وغير من الرجال حتى بيع الواحد منهم بعشرة دراهم ، ولكن حالت البرودة الشديدة والامطار الغزيرة والثلوج الكثيفة دون دخول المغول دمشق . وكان غازان خان يأمل أن تساعد الدول الاوروبية في انتزاع سورية من قبضة المماليك ، فأرسل الى ملكي انجلترا وفرنسا عدة سفارات يطلب العون ضد المماليك فلم يلق طلبه قبولا (٢٢) .

ولما يئس السلطان محمود غازان خان من مناصرة ملوك أوروبا له ، عول على مهادنة المماليك فأرسل في شهر رمضان سنة ٧٠٠ هجرية (مايو سنة ١٣٠١ م) سفارة الى السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون ، كان على رأسها كل من « خواجه ناصر الدين علي وجمال الدين موسى بن يوسف القاضي يحملان رسالة يعيبه فيها لهجومه على أطراف بلادهم دون سبب ، وعرض مهادنته ثم توعده بالانتقام اذا لم يكف عن عدوانه أو اذا وصل الى مسامعه أن المماليك قد عولوا على الأخذ بثأرهم . وختمها مناشدته باسم الدين أن يعمل على تلافى ما قد يقع ببلاده من الخراب والدمار ، وما يحل بالبلاد من البلاء . كما أخبره في نفس الرسالة أن المغول قد عولوا على جمع الجيوش وشحذ الهمم وصنع المجانيق وآلات الحصار والمسير الى بلاده أن لم يمتثل الى المهادنة والسلام ، وطلب من الملك الناصر محمد بن قلاوون أن يعد له الهدايا والتحف ، وختمها غازان خان بقوله : « قد عذر من أنذر وأنصف من أنذر » .

ومع أن رسالة السلطان محمود غازان خان تحمل معنى المهادنة، الا أنها كانت تتضمن في طياتها في الوقت نفسه التهديد والوعيد . وكان أسلوب الرسالة حاسما . وكأنها صادرة من حاكم الى من هو دونه قوة وقدرة ، كما أنها شملت بعض الآيات القرآنية والمواعظ والحكم الاسلامية ، بجانب عبارات التهديد والوعيد . قال غازان خان في رسالته : « ... وهانحن الآن

مهتمون بجمع العساكر المنصورة ، ومشحذون غرار عزائمتنا المشهورة ،
ومشتغلون بصنع المجانق وآلات الحصار ، وعازمون بعد الانذار وما كنا
معذبين حتى نبعث رسولا « . وقد سيرنا حاملي هذا الكتاب وقد
حملناهما كلاما شافهناهما به ، فلتثقوا بما تقدمنا به اليهما ، فانهما من
الأعيان المعتمد عليهما في الديوان ، كما قال الله تعالى « فله الحجة البالغة
ولو شاء لهداكم أجمعين » . فلتعدوا لنا الهدايا والتحف فما بعد الانذار من
عاصر » (٢٣) .

ورد الملك الناصر محمد على تلك الرسالة برسالة أطول منها ، يفند فيها
أقوال غازان خان ، ويبرهن بالادلة على أن المغول هم الذين بدأوا بالشر
وبادروا إلى العدوان . ورفض السلطان المملوكي ما طلبه غازان خان من
الهدايا والتحف حتى يبدأ هو بارسالها اليه ، ووعده بأنه سوف يردها
مضاعفة كي لا يقوم ذلك دليلا على خذلانه . كما عاب على غازان خان آباءه
وأجداده الوثنيين ، وذكره بما فعلوه بالمسلمين . ثم أكد الناصر محمد بن
قلاوون لغازان خان أنه على أتم الاستعداد لقبول مصادقته اذا خفف من
غوائه وصرف الكفار الذين اتخذهم بطانة له . وأعاد الناصر محمد الرسولين
يحملان رغبته في الصلح وميله إلى المصافاة ، والعمل على ما يعود على البلدين
بالخير ، وأبلغهما أنه اذا تم ذلك فانه سوف يجنح إلى السلم ، ويصبح
الفريقان على حد قوله سبحانه وتعالى « واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم
أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا » .

وكانت رسالة الناصر محمد بن قلاوون أكثر قوة وأشد إيلاما حتى أنها
أوغرت صدر غازان خان الذي لم يجد بدا من مواصلة الصراع الدموي مع
المماليك، فأخذ يعد عدته ، وفي الوقت الذي عمل المماليك على جمع صفوفهم
وتقوية مركزهم لصد أي اعتداء جديد من جانب المغول .

موقعة مرج الصفر :

لم تؤت المراسلات المتبادلة بين الإيلخان المغولي والسلطان المملوكي
ثمرتها المرجوة ، واستعد الفريقان للمقتال ، واستؤنفت الحرب من جديد

(٢٣) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٨ ، ص ٦٩ - ٧١ .

بعد عام واحد من مغادرة الوفد المغولي القاهرة ، وتحرك المغول بجيوشهم الجرارة حتى نزلوا على ضفاف نهر الفرات ، ثم تقابلوا مع جيوش أمراء الشام بمكان يقال له « الكوم » بالقرب من عرض سنة ٧٠٢ هجرية ، حيث اشتبك الفريقان ، ودارت رحى الحرب بين الفريقين . وقاد جيوش المغول « قتلغ شاه » في مائة ألف من المغول وأعوانهم من الكرج والارمن . بينما عبر السلطان محمود غازان بنفسه نهر الفرات وزار كربلاء التي كان يقدها بسبب ميوله الشيعية ووزع الهدايا والعطايا وهو في ضريح الامام الحسين . ثم تقدم الى عانة . وبعد أن اطمأن الى جيشه عاد أدراجه الى أربيل وأقام هناك ينتظر النتيجة التي جاءت مخيبة لآماله .

وفي الجهة المقابلة خرج الملك الناصر محمد من مصر سنة ٧٠٢ هجرية (١٣٠٢ م) على رأس جيش كبير لملاقاة المغول في بلاد الشام . وقد سبق رحيله الى أرض المعركة ببلاد الشام ، اجتماعه بالامراء وقادة الجند وتشاوروا في الخروج لصد المغول وتعاهدوا على القتال ، وقد بلغ الحماس من الجند أشده ، كما سحب الخليفة العباسي في القاهرة جيش المماليك ، ورافقه من الامراء الكبار كل من الامير سالار والامير بيبرس الجوشن غير ، وكان الاخير قائد الجيش الملوكي ومن أعظم أمراء مصر في ذلك الوقت . وفي دمشق استعد الجند للقتال واضطر الاهالي الى الجلاء عن المدينة . ولم يمض على ذلك طويل وقت حتى التقى نواب الشام بالسلطان في ضواحي دمشق ، ومن ثم اجتمعت الجيوش الشامية والمصرية بمرج الصفر وأخذ السلطان والخليفة المستكفي بالله العباسي يحثان الجنود على القتال ، ودارت بينهم وبين جيش المغول بقيادة قتلغ شاه عدة معارك انتهى الامر فيها بأن أوقع المماليك الهزيمة بالمغول ، وفر قتلغ شاه مع فلول جيشه ، فغرق بعضهم ومات البعض الآخر في الصحراء من شدة الجوع والعطش . ويصف المقرئ قتل الناصر محمد للمغول في الشام بقوله : « مشى السلطان والخليفة بجانبه ومعهما القراء يتلون القرآن ، ويحثون على الجهاد ، ويشوقون الى الجنة ، وصار السلطان يقف ويقول الخليفة : يا مجاهدون ! لا تنظرون لسلطانكم ، قاتلوا عن حريمكم وعلى دين نبيكم صلى الله عليه وسلم (م ١٤ - تاريخ الدولة المغولية)

والناس في بكاء شديد ومنهم من سقط عن فرسه الى الارض ، وتواصى ببيبرس وسالار على الثبات في الجهاد ، وعاد السلطان الى موقفه ، ووقف الغلمان والجمال وراء العسكر صفا واحدا ، وقيل لهم : من خرج عن المصاف غاقتلوه ولكم سلاحه وفرسه (٢٤) .

وفي الثاني من شهر رمضان سنة ٧٠٢ هجرية (مارس ١٣٠٢ م) تقابل المغول والمماليك عند مرج الصفر على مقربة من حمص ، وانقض المصريون على المغول ، وكان تعدادهم قرابة سبعين ألف مقاتل ، وهزموهم هزيمة نكراء ، وهلك معظم جيش المغول ، ومن لم يمت بالسيف مات من شدة الظمأ . وضر قائد المغول قتلغ شاه شرقا الى الفرات وتبعته فلول جيشه الذين نجوا من الهلاك المحقق ، فغرق بعضهم في نهر الفرات ومات آخرون في الصحراء ، وأسر المماليك عشرة آلاف من المغول ، كما غنموا أسلحة ومؤن لا حصر لها ، ومن ضمن ما غنموه عشرون ألف رأس من الماشية (٢٥) .

أما فيما يتعلق بالمغول ، فانه لما وصل خبر هزيمتهم اضطربوا اضطرابا شديدا ، كما حنق غازان خان على ما حل بجنده من النكبات ، وزاد غضبه حين وصل اليه كتاب من السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون يحقر فيه من شأنه ، ويطلب منه الجلاء عن العراق ، ويتوعدده بأنه سيأتى اليه بجيوشه ليقتصيه عن تلك البلاد .

وكانت نتائج المعركة حاسمة حيث ظهر التفوق العسكرى للمماليك المصريين ، كما عرف المغول انهم لن يستطيعوا منازلة المصريين . أما غازان خان فانه لم تقم له بعد تلك الموقعة قائمة ، فقد أصيب بحالة من الاضطراب والوجوم عندما بلغه خبر الهزيمة ، واستدعى على الفور مجلس الامراء - وكان أشبه ما يكون بالقوريلتاي في العهد الوثني - لمحاكمة قادة الجيش المهزمين ، فحكم المجلس على قائدين منهم بالاعدام ، أما قتلغ شاه والامير چوبان فانهما ضربا ضربا مبرحا ، وعدهم غازان خان مسئولين عن النكبة . كما قام غازان

(٢٤) المقرئى : كتاب السلوك ، ج ١ ص ٩٣٣ . وأيضا أبو الفداء في المختصر في أخبار البشر ، ج ٤ ، ص ٤٨ .
(٢٥) أبو الفداء : كتاب المختصر ، ج ٤ ، ص ٩٣٣ .

خان باتخاذ اجراء غريب ليس له مثيل في التاريخ ، ذلك أنه ضرب خيمة كبيرة واحضر كل قادة الجيش الذين اشتركوا في القتال ، وأهداهم هدايا قيمة تشمل ذهباً وفضة وجواهر ، حتى قيل أنه خلال خمسة عشر يوماً وزع ثلاثمائة تومان ذهباً (ما يعادل ثلاثة ملايين من الجنيهات الاسترلينية الذهبية) وعشرين ألف خلعة موشاة وخمسين حزاماً مرصعاً وثلاثمائة حزام ذهبي وأسلحة نفيسة وأشياء أخرى تفوق الوصف (٢٦) .

أما السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون فإنه عاد الى القاهرة في موكب حافل ، وكان أهلها قد استعدوا لاستقباله . وعندما دخل القاهرة مر السلطان بين جموع غفيرة استقبلته بالبشر والسرور يحوطه حراسه وكبار رجال دولته ، يتبعهم ألف وستمائة من أسرى المغول مكبلين بالسلاسل والاغلال ، ويتدلى من رقبة كل منهم رأس مغولي آخر ، وحمل ألف رأس من رؤوس قتلاهم على أسفنة الرماح تطوها طبول الحرب المغولية الكبيرة بجلودها الممزقة (٢٧) .

وفاة غازان خان :

لقد كانت الهزيمة التي منى بها المغول في موقعة « مرج الصفر » قاسية على السلطان محمود غازان خان . ويتضح من تصرفاته بعد المعركة أن صحته قد ضعفت واعتلت بسبب تلك الكارثة التي حلت بجيوشه وأودت بسمعته ، واشتد الضيق به حين علم بمؤامرة ترمى الى خلعه وتولية الامير « ألافرك ابن كيخاتو » عرش المغول في ايران ، فلم يعمر كثيراً ومات كمداً وهو في عنفوان شبابه ولم يكمل الثانية والثلاثين ، وذلك في ١١ شوال سنة ٧٠٣ هجرية (١٧ مايو سنة ١٣٠٤ م) قرب قزوین ، وأوصى بأن ينقل جسده الى المدفن الذي أعده في « شنب غازان » في تبريز بعد أن ظل في الحكم الايلخاني تسع سنوات .

أخلاق غازان خان وسلوكه :

يعد غازان خان أحد سلاطين المغول المشهورين ، فلا غرو أن حزن

(٢٦) حبيب الله شاملوئی : تاريخ ايران ، ص ٥١٣ .

(٢٧) المقریزی : كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ٩٣٧ - ٩٣٨ .

المسلمون من الايرانيين لموت غازان خان حزنا عميقا ، أنه أعاد للإسلام قوته ومكانته التي كان يقبواها في بلادهم قبل غزوات چنكيز خان ، وكذلك حزن عليه المسلمون من المغول والذين خلص اسلامهم لأنه كبح جماح الوثنية وقضى على الفوضى التي كانت منتشرة في امبراطوريتهم . وعلى الرغم من شدته وقسوته ، فقد كان رحيمًا اذا ما قورن بأسلافه ايلخانات المغول ، كما اشتهر بكراهيته لسفك الدماء الا اذا اعتبر ذلك أمرا ضروريا لقرار الامن والسكينة في ربوع دولته الواسعة . كما عرف عنه أنه كان اداريا ممتازا ومصلحا اجتماعيا عظيما ، ذلك أنه أدخل الكثير من ضروب الإصلاح في الادارة المالية وشجع النمو الاقتصادي في امبراطوريته . وكان الخراج يفرض حتى عهده وفقا لأهواء الحكام من المغول وعمالهم من الايرانيين ، فلما آل الحكم اليه ، أمر بأن تمسح الأراضي كلها من جديد ، وأن تتخذ نتائج ذلك أساسا في غرض الضريبة . وأصدر قرارا أمر فيه أن يحاط الرعايا علما بكل ما يتصل بالضرائب عن طريق تعليق البيانات الوافية عند مداخل القرى أو في المساجد وكنائس المسيحيين ومعابد اليهود وبيوت نار الزردشتيين . وكذلك وصلت قراراته البدو الرحل في غلواتهم ومراعيهم بواسطة النقش على الخشب أو الحجارة أو المعدن أو الألواح المكتوبة . وشجع غازان خان أيضا السكنى في المناطق البعيدة والمتطرفة والتي هجرها سكانها بسبب الاعصار المغولي والتي ظلت منذ ذلك الحين خربة خاوية على عروشها ، وأمر بإسقاط الضرائب عن كاهل المستعمرين الجدد تشجيعا لهم على الاستمرار في الاقامة وتمعير المناطق الخالية .

وكان غازان خان أول من خرج من ايلخانات فارس عن طاعة الخاقان في يكين (خانباليق) بعد أن تحول الى الاسلام ، حيث كان ايلخانات فارس الى عهد غازان مجرد عمال اقطاعيين تابعين للخاقان . وأفرد غازان خان نفسه بالذكر والخطبة (٢٨) ، ويستفاد من النقود المصروبة في عهد غازان خان أنه اتخذ لنفسه صفة الحاكم المستقل . كما أدخل روحا جديدة من الثقة في الميدان التجارى والاقتصادى بأن ألغى الاوراق المالية ذات القيمة التحكيمية

(٢٨) ابن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة ، ج ٣ ، ص ٢١٣ .

الرجراجة ، والتي سبق لسلفه أن استحدثها على الطريقة الصينية ، وأحل محلها نقدا معدنيا صحيح الوزن والقيمة . وكان لهذه التدابير أثرها الواضح في زيادة موارد الدولة الرسمية ، فارتفعت من ١٧٠٠ تومان الى ٢١٠٠ تومان، أى حوالى اثنى عشر مليون دولار (٢٩) .

ومن أعمال غازان خان القيمة والتي تستحق التسجيل أنه أعاد تنظيم القضاء في إيران بعد أن عبث به العرف المغولى . وكان هذا العرف سانجا غير محدود دائما ويصعب تطبيقه على شعب متحضر مثل الشعب الإيراني . ومع أن غازان خان يعد أول زعيم مغولى بعد چنكيز خان يحسن استخدام الياسا ، فإنه حاول في بداية حياته نشر الكثير من رسومها وآدابها على أنها تراث آبائه وأثداده ، إلا أنه وجدها غير مستحسنة وتتعارض مع أحكام القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ، فأعاد للشرع الاسلامى سلطانه وقوته ، وأنشأ محكمة عليا اسلامية . وذكر هيوارث أن غازان خان كان يحرص كل الحرص على نشر العدل وبسط الأمن بين رعاياه ، وأنه تشدد في تنفيذ الشرع واختيار القضاة لتوفير أسباب السعادة والطمأنينة بين المتقاضين (٣٠) .

ومن أعماله الخالدة كذلك والتي تدل على حبه للفنون والتعمير قيامه بتجميل عاصمة مملكته تبريز بأبنية فخمة ، وأيقافه الأموال الضخمة على المساجد ودور العلم ، وتشبيده مرصدا فلكيا ومدرسة للعلوم الدنيوية لما لب من الفائدة العملية . وكان غازان خان بطبيعته انسانا مثقفا ثقافة عالية ، فقد كان على معرفة كاملة باللغتين الفارسية والمغولية ، وعلى اطلاع وافر باللغتين العربية والصينية ، وعلى معرفة واسعة بتاريخ المغول وأصولهم وفروعهم ، وفي الوقت نفسه كان يهتم بالكيمياء وله معمل في قصره كان يقضى فيه أوقاتا طويلة بين أبحاثه العملية . وفي عهد غازان خان انتهت اللغة الفارسية الى أن تكون الى جانب اللغة التركية لغة الديوان الرسمية وأيضا اللغة الدولية . ولم ينتصر غازان خان للغته المغولية لأنها كانت

(٢٩) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية (الترجمة العربية)،

ص ٣٩٢ .

Howorth; History of the Mongols, Part III, P. 491.

(٣٠)

تعوزها المرونة والطواعية . ولم يكن ثمة مجال لنشوء حياة فكرية مستقلة بين المغول ، فأقبلوا على الفارسية وتراثها والاسلام وحضارته حتى أصبحوا قوة جديدة للاسلام والمسلمين .

وكانت علاقة السلطان محمود غازان خان بدول أوروبا المسيحية تدل على حنكة سياسية وبراعة دبلوماسية ، فحاول اتباع سياسة أسلافه في ايجاد تحالف عسكري مع الدول الأوروبية ضد المماليك ، فأجرى اتصالات مع الامبراطور البيزنطي « اندرينيكوس الثاني » ، وملك فرنسا « فيليب الرابع » ، وملك انجلترا « إدوارد الأول » وملك أراجون (جزء من دولة أسبانيا الحالية) « جيمس الثاني » ، وكانت بينه وبينهم مراسلات وبعثات ، إلا أن جهوده في هذا المضمار لم تأت بنتائج ايجابية لعاملين أساسيين : وهما اسلام مغول ايران وانشغال الدول الأوروبية بمشاكلها الخاصة وانصرافهم الى المخاصمات والعداوات وفتور الفاحية الصليبية عندهم آخر الأمر .

محمد خدابنده أولجايتو (٧٠٣ - ٧١٦ هـ) :

خلف أولجايتو أخاه غازان خان على العرش بعد وفاته تاركاً الدولة الايلخانية وهي في أوج عزها ومجدها . وكان أخوه السلطان محمود غازان خان قد اختاره ولياً لعهدده أثناء حياته ، وأقطعه حكومة خراسان فعاش فيها يدير شئونها . ولم يكن أولجايتو في العاصمة تبريز عندما توفي غازان خان ، بل كان يدير إحدى المعارك على تخوم الهند . وعلى عادة مغول ايران فان الأمراء الايلخانيين انقسموا الى فريقين ، كل فريق اختار أميراً لتنصيبه ايلخانا ، فكانت جماعة على رأسها الأمير « مولاي » تحبذ اعتلاء أولجايتو العرش ، والأخرى يتزعمها الأمير « هرقداق » تسعى لتنصيب الأمير « ألامرنك بن كيخاتو خان » . وتمكن أولجايتو من الوصول الى السلطة دون اراقة دماء ، ذلك أنه أرسل في الخفاء جماعة استطاعت ان تغتال كل من ألامرنك وهرقداق وأنجزت عملها في هدوء وسرية كاملة (٣١) . واعتلى أولجايتو العرش الايلخاني في مدينة « أوجان » في احتفال رسمي في ١٥ ذى الحجة سنة ٧٠٣ هجرية (٢١ يولية سنة ١٣٠٤ م) ، ولم يكن عمره قد تجاوز الرابعة والعشرين .

(٣١) حبيب الله شاملوئي : تاريخ ايران ، ص ١٥٤ .

ويعد أولجايتو ثامن الحكام الايلخانيين في ايران والعراق ، وهو ثالث أبناء أرغون خان وأول حاكم مغولي يعتنق المذهب الشيعي ، وتسمى بمحمد ، واستبدل لقبه المغولي بلقب اسلامي فأصبح « خدابنده » (أى عبد الله) ، كما تلقب بغياث الدنيا والدين ، فعرف باسم « السلطان محمد خدابنده أولجايتو » . ونظرا لاعتناق أولجايتو المذهب الشيعي ومحاولته نشره في مملكته ، فان العامة من الشعب الذين كانت غالبيتهم من أهل السنة ، أطلقوا عليه لقب « خربنده » (وكلمة خر بمعنى الحمار في الفارسية) استهزاء منه واحتقارا لشأنه وتصرفاته وقد أورد شرف الدين خان البولييسي رواية أخرى تقول ان سبب تسمية هذا السلطان بلقب خربنده هو أنه بعد وفاة أبيه كان قد هرب خوفا من غازان خان الى نواحى شيراز وكرمان ، واختلط هناك بالخريندكية والمكارين (أى الحمارين والبغالين) ، وأمضى وقتا غير قليل معهم فى التردد على هرمز وما حولها ، فأطلق الناس عليه لقب « خربنده » (الحمار) (٣٢) . وعندما بدأ أولجايتو يزاوّل نشاطه فى الحكم ، كان أول قرار أصدره هو التزام كافة المغول باعتناق الدين الاسلامي الحنيف ، وأنه يسن الدولة الرسمية . كما كان قراره الثانى هو الابقاء على « خواجه رشيد الدين فضل الله الهمداني » فى منصب الوزارة ، ويعاونه فى عمله خواجه سعد الدين محمد الساوجي .

السلطان أولجايتو وانتصاره للمذهب الشيعي :

يجدر بنا الإشارة الى الأسلوب الذى أدى الى اعتناق أولجايتو بن أرغون الدين الاسلامي الحنيف وانتصاره لمذهب آل البيت . ولد أولجايتو ، شأنه شأن كافة المغول لا دين له ، وعادة ما يتلقفه رجال الدين من كافة الأديان والعقائد يحسنون له معتقدتهم ويقبجون له الأديان الأخرى . أما أولجايتو فانه قد وقع تحت تأثير ديانة أمه « أروك خاتون » وكانت مسيحية نسطورية من أميرات قبيلة الكراييت ، فعمدته وأسمته « نيقولا » . ونظرا لتعلقه الشديد بأمه فانه استمر على ديانته المسيحية حتى وفاتها . ثم أسلم بعد ذلك وهو لايزال شابا فى مقتبل العمر نتيجة تأثير إحدى زوجاته المسلمات

(٣٢) شرف الدين خان البولييسي : شرفنامه ، الجزء الثانى ، الترجمة العربية ، ص ٢٠ .

التي رغبته في اعتناق الدين الاسلامي . ولما كان المذهب الحنفي هو السائد في خراسان في ذلك الوقت ، فاعتنق أولجايتو الدين الاسلامي على مذهب الامام أبي حنيفة ، وقرب اليه رجال الدين الحنفية وفقهاءهم ، وتعلم منهم أصول الدين وجزئياته ، وهو فخور بدينه الجديد مقتنع تمام الاقتناع بالرسالة المحمدية . ثم قدم تبريز عالم شافعي المذهب كان يعتبر أعلم أهل السنة في زمانه هو الفقيه نظام الدين عبد الملك الشافعي . وما أن سمع السلطان بمقدمه حتى طلبه للاستفادة من علمه وفقهه، ورتب له مناظرات مع علماء المذهب الحنفي ، فكان يفاظهم في حضرة السلطان فيفاجهم . ولما تحققت له الغلبة جذب هذا السلطان الى المذهب الشافعي وعدل عن المذهب الحنفي . ويذكر مؤلف كتاب « تاريخ الشيعة » أنه عدل برهة عن الدين الاسلامي ، وأن الذي أعاده بعد رده أحد أمراء البلاط المقربين اليه ويدعى « طرمطاز » وكان شيعيا ، فأخذ يطلعه على محاسن مذهب آل البيت ويرغبه فيه ، فمال معه . وفي هذه الآونة ورد على السلطان السيد تاج الدين محمد الآوي الامامي مع جماعة من الشيعة ، فوقعت بينه وبين نظام الدين الشافعي مناظرات أدارها السلطان بنفسه . تلى ذلك توجه السلطان الى العراق وزيارته مرقد أمير المؤمنين علي عليه السلام ، فرأى ما تقوى به مذهب الامامية ، وعرض ما شاهده على أمرائه ، حرضه على اعتناق مذهب أهل البيت من كان منهم شيعيا . فأظهر السلطان التشيع ، وأمر به الجند وأهل المملكة ، وأجرى في جميع بلاده مراسم المذهب الامامي، وجعل السيد تاج الدين محمد الآوي نقيب الممالك (٣٣) .

وفي الخامس من صفر سنة ٧٠٩ (سنة ١٣٠١ م) أمر السلطان أولجايتو بحذف أسماء الخلفاء الثلاثة « أبي بكر وعمر وعثمان » من الخطبة ، وتعصب للشيعة ومذهب آل البيت ، وأصدر الأوامر والفرامانات الى البلاد بذكر ونقش أسامي الأئمة الاثني عشر في الخطبة والسكة ، فكان اعتناقه للمذهب الشيعي وتعصبه الأعمى له نكبة كبيرة على مملكته ، ذلك أنه اتخذ آنئذ اجراءات شديدة مع أتباع المذهب السني ، وكانوا لا يزالون أصحاب الأغلبية في البلاد ، وأخذ شبح الحرب الأهلية يخيم على الدولة ، وتعقدت

الأمر بين الحكام والمحكومين . وعندما أدرك السلطان أولجايتو في آخر أيامه ما حل بحولته من تفتت وسلبية نتيجة ذلك أعاد ذكر الخلفاء الأربعة الراشدين في الخطبة ، ودون أسماءهم على السكة .

سياسة أولجايتو الداخلية والخارجية :

اعتلى أولجايتو العرش المغولي والمملكة في عزها ورخائها ، وسار على نهج أخيه غازان خان في حسن معاملته لرعاياه والنهوض بهم والوقوف بجانب الفقراء والمظلومين ومنع تعدى المغول على الأهالي . وكان من أهم الأحداث الداخلية أن أصدر أمرا في ١٠ شوال سنة ٧١١ هجرية بقتل الوزير « خواجه سعد الدين محمد الساوجي » بعد اصطدامه بالوزير الأول خواجه رشيد الدين فضل الله الهمداني ، واتهام الأخير له بالاستيلاء على مبالغ طائلة من أموال الدولة رغم ما كان يكنه السلطان لوزيره خواجه سعد الدين الساوجي من احترام وتقدير ، كما قتل جماعة من أتباعه الذين شاركوه في تهمة الاستيلاء على أموال الدولة ، وكذلك المقربين إليه ، وأسند منصبه إلى غريمه « تاج الدين على شاه جيلان التبريزي » الذي كان وراء اتهام الوزير خواجه سعد الدين محمد الساوجي . وبمقتله انفرد خواجه رشيد الدين فضل الله بالصدارة وإدارة كافة أمور المملكة .

أما علاقته بالدول الأجنبية ، فإنه حافظ على الصلات الودية مع دول أوروبا المسيحية ، فأرسل السفراء إلى « البابا كلمنت الخامس » و « إدوارد الثاني » ملك إنجلترا وفيليب الجميل ملك فرنسا لعقد حلف مغولي مسيحي للاستيلاء على بلاد الشام ومصر وإنزال العقاب بالمماليك والقضاء عليهم . وقد بقي من تلك الكتب التي تشير إلى هذا الموضوع كتابان أحدهما من إدوارد الثاني بتاريخ ٣٠ نوفمبر ١٣٠٨ م (٣٤) . كما لا تزال بسجلات باريس رسالة السلطان محمد أولجايتو إلى الملك فيليب الجميل التي يرجع تاريخها إلى شهر مايو سنة ١٣٠٥ م .

كذلك جرد السلطان محمد خدابنده أولجايتو حملة عسكرية توجهت إلى آسيا الصغرى بناء على طلب الامبراطور البيزنطي « ميخائيل باليولوجوس

.. The Crusade in the Later Middle Ages, P. 233 - 259. (٣٤)

Michael Palaeologos لمساعدته في صراعه مع الدويلات التركية في الاناضول والتخفيف عن جبهته . ومع أن الجيش المغولي قد تمكن من اجبار الترك على تقسيم جيوشهم في آسيا الصغرى والتخفيف من حدة الضغوط على الدولة البيزنطية . فلم تؤثر الحملة المغولية في سير الصراع التركي البيزنطى أو بمعنى أصح الصراع الاسلامى المسيحى في آسيا الصغرى .

أما العلاقات المصرية المغولية في عهد السلطان محمد خدابنده أولجايتو ، فانها تأثرت تأثرا كبيرا باعتناق الايلخان للمذهب الشيعى . وقد حاول السلطان محمد خدابنده أولجايتو تخفيف حدة العداء الذى استحكم بين المماليك والمغول في بداية عهده ، فأوفد السفراء الى بلاط السلطان الملك الناصر محمد تؤكد حرصه على توثيق عرى الصداقة وتأكيد حسن نياته نحوه ، وخاطب سلطان المماليك في احدى رسائله بالأخ وسأل اخماد الفتن وطلب الصلح حتى أنه قال في آخر خطاب له : « عفا الله عما سلف ، ومن عاد فينتقم الله منه » ، كما بعث اليه هدية فلبى السلطان طلبه وجهز هدية مع بعض الرسل (٣٥) ، وبإدلة ودا بود . على أن أولجايتو لم يكن مخلصا في تودده للناصر محمد بن قلاوون خاصة بعد اعتناقه المذهب الشيعى ومحاولته فرضه على المسلمين وسبه للخلفاء الراشدين الثلاثة الأول ، فاصطدم بالمماليك السنيين وطمح في الاستيلاء على سورية ومصر (٣٦) .

وقد استأنف المغول في عهد أولجايتو هجومهم على سورية فقاموا بحملة على بلاد الشام في ١٨ صفر سنة ٧١٢ هجرية ، ويرجع السبب في ذلك الى وقوف السلطان محمد خدابنده أولجايتو على حالة البلاد السورية من كل من قراسنقر والأغرم وهما من قادة الناصر محمد وكانا قد لجأ الى السلطان أولجايتو ورحب بهما ورتب لهما الرواتب السنية . وكان السلطان الملك الناصر محمد قد اتهم قراسنقر باشتراكه مع لاجين في قتل أخيه الأشرف خليل بن قلاوون وعول على الأخذ بثأره . فما كان من قراسنقر الذى كان يتملكه الشعور بجريمته الا أن فر هو وأعوانه واتجهوا شرقا حتى وصلوا الى البلاد الايرانية ومثلوا بين يدي أولجايتو الذى استقبل كلا من قراسنقر

(٣٥) المقرئى : السلوك ، ج ٢ ، القسم الأول ، ص ٦ .

(٣٦) دكتور على ابراهيم حسن : تاريخ المماليك البحرية ، ص ١٦١ .

والأفرم على أفراد ، فحسن له قراسنقر السير الى بلاد الشام واحتلالها
وهون عليه أمر فتحها ، أما الأفرم وإن كان قد حسن له أيضا الاستيلاء على
بلاد الشام فقد حذره من قوة السلطان وكثرة عساكره . وعندما اقتنع
السلطان محمد خدابنده أولجايتو بذلك جرد حملته على الشام ، وسارت من
تبريز لكنها توقفت عند اصطدامها بقلعة الرحبة الواقعة على نهر الفرات
ولم يتمكن من الاستيلاء عليها . وكانت قلعة الرحبة تعد أولى القلاع
الملوكية على الحدود الشامية . وما أن فشل السلطان أولجايتو في إخضاع
قلعة الرحبة حتى عاد أدراجه في السادس والعشرين من شهر رمضان من
نفس العام يجر أذيال الفشل وخيبة الأمل . وقد كافأ أولجايتو الأميرين
قراسنقر والأفرم على المعلومات التي أدليا بها عن حالة دولة المماليك بوظائف
في دولته ، فمنح قراسنقر ولاية مراغة وأقطع همدان للأفرم (٣٧) .

وفاة السلطان محمد خدابنده أولجايتو :

وتوفي السلطان محمد خدابنده أولجايتو في ٢٨ رمضان سنة ٧١٦
هجرية (١٦ ديسمبر سنة ١٣١٦ م) ولم يزد عمره على أربعين عاما ، نتيجة
افراطه في شرب الخمر وتفريطه في صحته على ملذاته وشهواته ، فمرض
مرضا شديدا أودى بحياته . وقد اتهم الوزير خواجه رشيد الدين فضل الله
الهمداني بقتله بعد ذلك .

وكان أولجايتو رجلا اداريا ممتازا وسياسيا قديرا وقائدا عظيما ،
ومع ذلك كان من البساطة بحيث يمكن خداعه وتوريطه في أعمال تجر عليه
غضب الشعب في داخل مملكته كاجبار الناس على اعتناق المذهب الشيعي ،
واضطهاد مخالفه في المذهب اضطهادا شديدا وصل الى درجة الاعداء .
أما في الخارج فانه جرد حملة على بلاد الشام لا لشيء سوى قول بعض
مخالفى سلطان مصر بسهولة الاستيلاء على سورية ، واغرائه بأن قوة
المماليك قد ضعفت بسبب الاختلاف بين الأمراء المماليك فوافقهم على ذلك
وأراد احراز نصر لم يتمكن منه آباءه وأجداده من قبل . وعلى كل فان
السلطان محمد خدابنده أولجايتو يعتبر من الملوك الايلخانيين الممتازين
الذين نهضوا بإيران نهضة كبيرة ، فأحيا قوانين غازان خان التي نتج عنها

(٣٧) المقرئى : السلوك ، الجزء الثانى - القسم الأول ، ص ١١٥ .

أن زاد رخاء البلاد • كما زاد في نهضة ايران وازدهارها حسن ادارة الوزير خواجه رشيد الدين فضل الله الهمداني • وكان أولجايتو حاكما حر الفكر يهتم بالعلم والأدب • وعنى بمرصد المراغة الذي كان يشرف عليه منجم السلطان أصيل الدين بن نصير الدين الطوسي ، وناصر الحركة الأدبية والتاريخية التي قام بها كل من الوزير خواجه رشيد الدين فضل الله الهمداني وعبد الله بن فضل الله الشيرازي المعروف بوصاف الحضرة • وكان يسعى لنشر العمران ، وهو الذي أتم مدينة سلطانية ، وجعلها حاضرة للكه ، وذلك عندما رزقه الله بولده وخلفه أبى سعيد • كما شيد مدينتين أخرتين ، احدهما تسمى « سلطان آباد چم چال » وكانت تقع أسفل جبل بيستون ، والأخرى مدينة « سلطان آباد أولجايتو » وكانت تقع على حافة نهر أرس (٣٨) •

أبو سعيد بهادرخان (٧١٦ - ٧٣٦ هـ) :

تولى السلطان أبو سعيد بن محمد خدابنده أولجايتو العرش الايلخاني خلفا لوالده ، وكان قد أوصى قبيل وفاته أن يخلفه على العرش ابنه أبوسعيد الذي كان لا يتجاوز الثانية عشر من عمره في ذلك الحين • وكان اختيار السلطان أولجايتو لابنه أبى سعيد يعد مخالفة صريحة لأحكام الياسا الچنكيزية التي كان المغول يطبقونها بدقة متناهية ، مما يدل على تركهم التقاليد المغولية وانصرافهم عن عاداتهم ورسومهم القديمة التي توارثوها عن أجدادهم ، واتباعهم أسلوب الحياة الايرانية والاسلامية عامة •

ولد أبو سعيد في اليوم الخامس من ذى القعدة سنة ٧٠٤ هجرية ، وخصص والده الأمير « سونج » أحد كبار أمراء البلاط الايلخاني لتربيته وتنشئته نشأة اسلامية خالصة • ثم عينه والده حاكما على خراسان وهو في سن السابعة سنة ٧١٣ هجرية (١٣١٣ م) ، وقد توفي السلطان محمد خدابنده أولجايتو وابنه مقيم في خراسان ، فصاحبه كل من الأمير سونج والأمير چوبان الى العاصمة سلطانية ليشارك في تشييع جثمان والده ، فنصبوه ايلخانا • ولم يحتفل بجلوسه على العرش الا عندما بلغ الرابعة عشرة من عمره وذلك في شهر صفر سنة ٧١٧ هجرية (ابريل عام ١٣١٧ م) •

واشترك كل من الأمير سونج والأمير چوبان في إدارة شئون المملكة الايلخانية باسم السلطان الشاب ، فاختص سونج بشئون البلاط وتربية السلطان ، أما الأمير چوبان فإنه اختص بأمرة الأمراء وقيادة الجيوش الايلخانية ، فأكسبه هذا المنصب نفوذا كبيرا لجمعه بين الإدارة وشئون الجيش ، وعين أبناءه حكاما على الولايات الهامة في المملكة الايلخانية حتى صارت بأيديهم شئون الدولة يديرونها بمعرفتهم ، وكان أهمهم على الإطلاق تيمور تاش بن چوبان الذي اختص بحكومة بلاد الروم ، فتغلغل النفوذ المغولي في آسيا الصغرى حتى زاحم نفوذ اليونان والترك ، وأدار حكومتها بجد وصدق حتى أمن الناس على حياتهم وزاد في رفاهيتهم .

الامير چوبان واستغلاله منصبه في توطيد نفوذه :

عين السلطان أبو سعيد الأمير چوبان أميرا للأمراء سنة ٧١٧ هجرية (١٣١٧ م) ، واطلق يده في شئون الحكم واصدار القوانين وتعيين الحكام ، وزوجه من أخته « دولندی » كما اتخذ چوبان من الوزير خواجه رشيد الدين فضل الله الهمداني مساعدا له في تصريف شئون البلاد ، وتعاوننا معا على النهوض بالشعب وتأمينه ضد الفقر والجوع ، ونشر الأمن والأمان حتى عادت البلاد الى سابق عهدها من الازدهار والتقدم ، وسيطرا على الحكم حتى لم يبق للسلطان أبي سعيد سوى الاسم فقط . وكانت تلك الصداقة التي نشأت بين الأمير چوبان والوزير خواجه رشيد الدين فضل الله سببا في حقد الوزير تاج الدين على شاه جيلان التبريزي ، الذي شغل منصب الوزير خواجه سعد الدين محمد الساوجي بعد قتله . وبرغم أن معظم المؤرخين اتفقوا على أن الوزير على شاه كان رجلا جاهلا محدود الذكاء ، واتهموه بالوصولية وسوء الإدارة الا أنه دبر خطة تمكن بها من خلع خواجه رشيد الدين فضل الله الوزير الأول في أواخر شهر رجب سنة ٧١٧ هجرية ، واتهمه بأنه قتل السلطان محمد خدابنده أولجايتو ، فقبض عليه وعذب تعذيبا شديدا وانتزعوا منه اعترافا بأنه أعطى السلطان أولجايتو دواء أودى بحياته . فأمر أبو سعيد بقتل رشيد الدين ، ونفذ الحكم في ١٧ جمادى الأول سنة ٧١٨ هجرية . ومن المؤسف حقا أن قتلة رشيد الدين قاموا بذبح ابنه الشاب « عز الدين ابراهيم » أمام أبيه ، وكان في سن السادسة عشرة من عمره . ثم أقدموا على قتل الأب بشرطه نصفين ، وكان عمره في ذلك الحين

قد تجاوز الثالثة والسبعين . وعلى هذا النحو انتهت حياة أحد كبار الحكماء والأطباء والمؤرخين الإيرانيين وأحد الشخصيات الإسلامية الفذة (٣٩) .

وبعد قتل خواجه رشيد الدين فضل الله على هذا النحو المفجع ، نهبت أمواله ، وقبض على أبنائه الاثنى عشر الذين كانوا في خدمة الحكومة الايلخانية ، فقتل بعضهم وسجن البعض الآخر . كما أغار العامة بايعاز من الوزير تاج الدين على شاه على « ربيع رشيدى » ، أحد أحياء تبريز الذى شيده خواجه رشيد الدين وأقام به وبني به مؤسسات اجتماعية وتعليمية وخيرية كثيرة شملت مستشفى وصيدلية ومكتبة ومدرسة ومسجدا ودورا للأيتام ومطابخ للفقراء والمحتاجين ، كذلك دفن فيه ، فأتوا على كل شىء وأصبح خرابا ولم تقم له قائمة بعد ذلك . كما قتل رجال الحكومة جماعة من المقربين اليه وفصلوا كل من ثبت عليه تهمة صلته برشيد الدين . أما الوزير تاج الدين على شاه الذى كان سببا فى ذلك الفجيعة ، فانه مكث فى منصب الوزارة والصدارة بعد ذلك ست سنوات كاملة مؤيدا من كل من السلطان أبى سعيد وأمير الأمراء چوبان الى أن توفى فى ٢٦ جمادى الثانى سنة ٧٢٤ هجرية ، فأسند السلطان أبو سعيد الى أولاده المناصب العالية .

ولم يبد الأمير چوبان ، الذى اشتهر بالشجاعة وحسن قيادة الجيوش ، أى براعة وحنكة فى سياسة الحكم وإدارة دفة أمور الدولة حتى أفلست للحكومة الايلخانية تماما ، وفشل الحكام فى سياسة الرعية ، وبدأت الفتن والاضطرابات تسود المملكة مما أدى الى الخراب وتوقف المؤسسات الحكومية عن العمل السليم الجاد . وقد ساعد على ذلك ما كان عليه الوزير تاج الدين على شاه من الجهل وسوء التصرف . حينئذ أدرك السلطان أبو سعيد قيمة ما كان عليه الوزير خواجه رشيد الدين فضل الله ، فأصدر أوامره بإسناد الصدارة الى ابنه خواجه غياث الدين محمد . ومن الغريب حقا أن الوزير

(٣٩) وبعد مائة عام من قتل الوزير المؤرخ رشيد الدين فضل الله الهمداني ، اتهم باليهودية لأنه كان فى شبابه على صلة بيهود همدان ، فأمر ميران شاه بن تيمور حاكم آذربيجان - وكان معروفا عنه بالشطط والجنون - بإخراج عظام رشيد الدين من قبره المدفون به فى المسجد الذى أقامه فى حي « ربيع رشيدى » بتبريز ، ودفنها فى مقابر اليهود .

تاج الدين على شاه يعتبر الوزير الوحيد الذى مات ميتة طبيعية فى الدولة الايلخانية .

وكان اضطراب الأحوال الداخلية فى الدولة الايلخانية فى عهد السلطان أبى سعيد سببا فى اغارة بعض أمراء المغول من حكام الدولة الجغتائية فى التركستان والقبيلة الذهبية (آلتون أوردو) فى جنوب روسيا على أطراف الدولة الايلخانية ، ومحاولاتهم المتكررة الاستيلاء على السلطة والعرش الايلخانى . ومن بين هؤلاء الأمراء « يسور الجغتائى » الذى استولى على خراسان وهزم أمراء السلطان أبى سعيد فيها ، وتقدم نحو مازندران فى محاولة للاستيلاء عليها ، فوقف أهلها فى وجهه وقتلوه . ونتج عن ذلك أن خربت مازندران وسفكت دماء أهلها . وقد تصدى له اثنان من قادة الجيوش الايلخانية هما الأمير حسين الكوركاني والأمير كيك ، وكان بينهما وبين « يسور الجغتائى » عدااء قديم ، وتمكنا من محاصرته وهزيمة جيشه وقتله آخر الأمر . كذلك قام « أوزبك خان » ملك دولة صحراء القيقاق (دشت قيقاق) بالاغارة على أملاك الدولة الايلخانية ، ولكن الأمير چوبان تصدى له وتمكن من هزيمته والقضاء على مقتنقه .

وعلى هذا النحو تمكن الأمير چوبان من القضاء على الطامعين فى الاستيلاء على السلطة والمناوئين للحكم ، مستغلين بذلك صغر سن السلطان ، وانشغال رجال الحكم والبلاط بمشاكلهم الخاصة ، وكثرة تغيير الوزراء وما يلاقونه آخر الأمر من قتل وتشرد للأهل والأصدقاء ، فأحكم الأميرچوبان سيطرته على أجهزة الدولة ، وأيده فى ذلك السلطان أبوسعيد نفسه الذى أطلق يده فى أمور المملكة كلها . الا أن بعض الأمراء من داخل البلاط الايلخانى حاولوا الكيد للأمير چوبان والايقاع به ، فطلبوا من السلطان العفو عن أوزبك خان ، لكن الأمير چوبان رفض طلبهم واتهمهم بالاشتراك فى المؤامرات التى تدبر ضد الدولة ، فعاداه هؤلاء وعملوا على التخلص منه مبتدئين بالتشهير به والنيل منه هو وأبناءه ، وحاولوا الايقاع بينه وبين السلطان أبى سعيد ، لكنه لم يوافقهم على ذلك وأيد چوبان وناصره فى حربه ضدهم . وكان وراء تأييد السلطان أبى سعيد للأمير چوبان شخصيتان نسائيتان كان لهما دور فعال فى سياسة الدولة هما « ساتى بك » أخت أبى سعيد ،

والتي تزوجها الأمير چوبان بعد وفاة أختها « دولندی » والأخرى زوجة أبي سعيد « قتلخ خاتون » ابنة الأمير « ایرنجین » أحد كبار الأمراء المغول ، وكانت تؤيد سياسة الأمير چوبان وتناصره ، فانضم أبوسعيد الى جانب چوبان في صراعه مع مناوئيه ، واشتبكا معهم في حرب في ٤ جمادى الأولى سنة ٧٠٩ هجرية قرب بلدة «ميانه» وهزما المناوئين لهما ، الذين قادهم الأمير « ایرنجین » والد زوجة أبي سعيد هزيمة فاحشة رغم كثرتهم ، وقتل في المعركة قادة للفتنة ومن بينهم الأمير ایرنجین . وفي تلك الحرب التي قادها أبوسعيد بنفسه أظهر السلطان براعة وحكمة في قيادة الجيوش الايلخانية وتحريكها ووضع خطط المعركة ، وتمكن من الفتك بأعدائه الذين كادوا يهددون عرشه ، وأضيف الى اسمه بعد تلك المعركة لقب «بهاذر خان» أي المقاتل الشجاع ، فعرف باسم « السلطان أبي سعيد بهادر خان » . كما أطلق المغول على الأمير چوبان لقب « الوالد والسيد » (آقا - آقا) تقديرا له على حسن خدماته التي أداها للدولة واعترافا بفضله في اخماد الثورات والفتن . وزاد السلطان أبو سعيد من قدره فأطلق يده هو وأبناءه في ادارة أمور المملكة .

لقد دب الضعف في الدولة الايلخانية نتيجة اختلاف الأمراء ونشوب الحروب الداخلية وسوء الادارة . وبرغم أن وزراء الدولة كانوا من الشخصيات المشهود لهم بالحنكة والكفاءة الا أنهم لم يتمكنوا من عمل شيء يؤدي الى احكام السيطرة على ولاياتها والنهوض بالشعب الايراني والأخذ بيده وانتشاله من الفوضى والاضطرابات السائدة . لقد تولى الوزارة في عهد أبي سعيد شخصيات ثلاث ، هم على التوالي : خواجه غياث الدين محمد بن خواجه رشيد الدين فضل الله الهمداني ، ونصرت الدين عادل النسوي ودمشق خواجه بن الأمير چوبان . وعندما توفي السلطان أبو سعيد كانت الوزارة في يد خواجه غياث الدين محمد الذي تولاها للمرة الثانية .

نهاية الجوبانيين :

لقد رأينا كيف كانت ثقة السلطان أبي سعيد في أمير الأمراء چوبان غير محدودة ، حتى أن مصير أحدهما ارتبط بمصير الآخر ، فقد تزوج الأمير چوبان بأخت السلطان أبي سعيد دولندی وعندما توفيت تزوج أختها الأخرى ساتي بك . وهذا في حد ذاته قمة الصداقة والتعاون ، لكن الدولة الايلخانية

ابتليت في عهد أبي سعيد بالفتن والقلق ، فأتت على الأمراء الواحد بعد الآخر ، ولم ينج من ذلك الا من كان ضعيف الرأي قليل الحيلة مدهنا منافقا . فلفحت الموجة السائدة الأمير جوبان فكانت نهايته سيئة للغاية وقضت عليه تماما ، ذلك أن السلطان أبا سعيد وجد أن الأمور تسير من سيء الى أسوأ بسبب وجود الأمير جوبان أمير الأمراء واستبداده بالأمور هو وأبنائه ، وأن كثيرا من القلاقل كانت نتيجة تصرفاته ، فاستقر عزمه على تحطيم سلطان الجوبانيين . ومما زاد الموضوع تعقيدا تدخل المسائل الشخصية في القضاء على تلك الأسرة ، ذلك أنه كانت للأمير جوبان ابنة جميلة تدعى « بغداد خاتون » وقع في غرامها أبو سعيد ، وكانت متزوجة من الأمير شيخ حسن بن الأمير حسين الكوركاني الجلايري (٤٠) ، ورغبها السلطان أبو سعيد لنفسه ، وهام بها حبا حتى جن بها وبغرامها ، الا أن الأمير جوبان منع أبا سعيد من الزواج بابنته التي كانت في عصمة رجل آخر ، وأن اجراء مثل ذلك يخالف الشرع الاسلامي . ورغم ذلك فان السلطان أبا سعيد عشقها وتغنى بجمالها وسحرها ونظم فيها أشعارا غاية في الرقة والعذوبة . ومن ناحية أخرى كان دمشق خواجه بن الأمير جوبان والوزير الأول على علاقة آثمة باحدى نساء أبي سعيد ، وعرف أمرهما السلطان فثار لشرفه وكرامته ، فكانت تلك الواقعة سببا في غروب النفوذ الجوباني ومقدمة لانقراض الأسرة بكاملها ، بدأها السلطان أبو سعيد بقتل دمشق خواجه بتهمة صلته بعدد من حريمه وتم اعدامه في ٥ شوال سنة ٧٢٧ هجرية (٢٤ أغسطس سنة ١٣٢٧ م) .

وعندما فكر السلطان أبو سعيد في القضاء على الأسرة الجوبانية ، كان قد اتخذ الحيلة والحذر ، واختار الأشخاص الذين يحلون محل الجوبانيين ، حيث كانت الدولة الايلخانية موزعة بينهم ، فكانت خراسان تحت حكم الأمير حسن بن جوبان ، وبلاد الروم في يد تيمور تاش وبلاد الكرج في يد محمود وكلهم أبناء جوبان . أما الأبورئيس العائلة فانه اختص بحكومة فارس وكرمان . ولما بلغ الأمير حسن كوجك نبأ مقتل أخيه دمشق خواجه الوزير الأول رغب في

(٤٠) يعرف الأمير شيخ حسن في التاريخ باسم « شيخ حسن بزرگ » أي الكبير وأيضا « الأمير شيخ حسن الايكاني » ، وكذلك « الأمير حسن الجلايري » .
(م ١٥ - تاريخ الدولة المغولية)

الانتقام من أبى سعيد وجهاز جيشا قاده بنفسه للاطاحة بالسلطان والقبض على قتلة أخيه ، لكن والده لم يقره على ذلك ، وأراد تسوية المشلكة سلميا للعلاقات القوية التي تربطه بأبى سعيد ، وقرر التوجه الى العاصمة ، سلطانية ، لكن أعداء الأسرة الجوبانية لم يرقهم ذلك ، وانتهزوا الفرصة للقضاء على نفوذ الأمير جوبان ، فأبلغوا السلطان أبا سعيد بما يدبره له الأمير حسن كوچك . فأصدر السلطان أمره بقتل الأمير جوبان ، فما كان منه الا أن هرب الى هراة ، والتجأ الى سلطانها الملك غياث الدين كرت . وتمكن أبو سعيد من القبض على معظم أفراد الأسرة الجوبانية المنتشرين في كافة أنحاء المملكة الايلخانية ، وقتلهم جميعا .

وقف الأمير جوبان ينظر الى الأحداث بعين زائغة ، وقد تمكن منه أعداؤه وقتل السلطان أبناءه وأحفاده وأقاربه وكل من اتصل بهم بنسب أو مصاهرة أو عمل ومصلحة ، ومع ذلك حاول الأمير جوبان التفاوض مع السلطان أبى سعيد ، واعتمد في هذه المرة على قوته وكثرة جنده ، فتقدم بجيشه حتى وصل مدينة الري ، ولكن خاب ظنه وهجره معظم جنده ، ولم تنفعه شجاعته وفر موليا وجهه نحو هراة . وبذل السلطان أبو سعيد جهده لاغراء الملك غياث الدين كرت بقتل الأمير جوبان ، وقدم له الهدايا . فما كان من الملك غياث الدين كرت الا أن أقدم على قتل الأمير جوبان وابنه الشاب « الأمير چلاو خان » (وهو ابن أخت السلطان أبى سعيد) . وهكذا تصرف السلطان ملك غياث الدين كرت مع الأمير جوبان تصرفا غير شريف ، فغدر به وقتله في سبيل وعود زائفة وهدايا زائفة . وعندما وصل خبر قتل الأمير جوبان الى مسامع السلطان أرسل قاضى القضاء الى الأمير شيخ حسن الكبير وأجبره على طلاق زوجته « بغداد خاتون » ، ففعل ذلك عن كره خشية أن يناله ما أصيب به جوبان وأسرته . وبعد أن قضت عدتها عقد عليها السلطان أبو سعيد .

أما تيمور تاش بن جوبان فانه هرب من بلاد الروم عندما بلغته أخبار مذابح الأسرة الجوبانية وفسر الى مصر ، والتجأ الى سلطانها الملك الناصر محمد بن قلاوون الذى أحسن معاملته أول الأمر وأكرمه غاية الاكرام ، وأنزله منزلة تليق بمقامه ، على أن مؤامرات أعداء الأسرة الجوبانية - وكثير

منهم كان قد التجأ الى مصر فرارا من سطوة الأمير چوبان - والحاح السلطان أبى سعيد الذى طلب من السلطان المملوكى ابعاد تيمور تاش . ونظرا للعلاقات الحسنة التى ربطت البلاط الايلخانى بنظام الحكم المملوكى ، وجد السلطان الناصر محمد بن قلاوون أن بقاء تيمور تاش فى مصر مصدر ازعاج له ، فاستقر رأيه على القضاء عليه ، وغدر به وقتله فى ١٣ شوال سنة ٧٢٨ هجرية (٢١ أغسطس سنة ١٣٢٨ م) .

أبو سعيد وانفراذه بالسلطة بعد مقتل الجوبانيين :

وبعد أن قضى السلطان أبو سعيد على الأسرة الجوبانية أشرف بنفسه على كافة شئون المملكة ، وعمل على القضاء على كل قوة أو مصدر قوة يمكنها أن تطل برأسها ، وحصر جهده فى تتبع أبناء الأمير چوبان والمقربين اليه ، وشغل نفسه بذلك . كما كان لزوجته « بغداد خاتون » دور كبير ونفوذ قوى فى سير دفة الأمور وتصريف سياسة المملكة الداخلية . وترك لها أبوسعيد مطلق الحرية فى ذلك من فرط عشقه لها ، وكانت قد ملكت فؤاده وأصبح أسير هواها ، ومنحها لقب « خداونديكار » (أى سيدة العالم) ، وبسببها عزل السلطان ملك غياث الدين كرت ، لكن أبا سعيد لم يقتله ، وأعاده الى منصبه عندما وجد أن ذلك فى صالحه . ومع عشقه لزوجته بغداد خاتون ابنة الأمير چوبان ، الا أنه عمل على القضاء على نفوذ اخوتها مما كان له آخر الأمر أسوأ الأثر ، بل والقضاء على السلطان نفسه .

وحدثت فى أواخر عهد السلطان أبى سعيد فتنة قام بها جماعة من كبار أمراء البلاط الايلخانى بغرض الاطاحة بالوزير خواجه غياث الدين محمد الذى أعاده السلطان بعد مقتل دمشق خواجه . وكان من زعماء تلك الفتنة « نارى طغاي » حاكم خراسان والأمير على پادشاه خال السلطان أبى سعيد وحاكم أردبيل ، والأمير طاش تيمور ، وواجه السلطان بنفسه جيوش أعدائه . وتمكن بعد جهد من القضاء على ثورتهم والقبض على زعمائها ، وأعدم كلا من نارى طغاي وطاش تيمور أما الأمير على پادشاه فانه أفلت من العقاب بفضل شفاعته أخته « حاجى خاتون » أم السلطان .

كذلك أغار أوزبك خان ملك دولة صحراء القپچاق للمرة الثانية على النواحي الشرقية من المملكة الايلخانية ، وعاث فيها فسادا ، وقتل كثيرا من

أهلها ، فأسرع اليه السلطان بنفسه ورافقه الوزير خواجه غياث الدين محمد ، لكن السلطان مرض في مدينة « أران » بسبب شدة الحرارة ولم يمهل له المرض كثيرا اذ توفي قرب شيروان في ١٣ ربيع الآخر سنة ٧٣٦ هجرية (٣٠ نوفمبر سنة ١٣٣٥ م) ، ونقلوا جثمانه الى العاصمة « سلطانية » حيث دفن بها . وقد أجمع المؤرخون^{علي} أنه عندما كشف الأطباء على أبي سعيد أثناء مرضه وهو في النزع الأخير اكتشفوا أنه قد دس له السم في الطعام ، وأن موته كان نتيجة لذلك . وعرف فيما بعد أن الفاعل لتلك الجريمة هي بغداد خاتون . وكان الوازع على ذلك أن السلطان أبا سعيد كان قد تزوج من دلشاد خاتون ابنه دمشق خواجه سنة ٧٣٤ هجرية (١٣٣٤ م) ، وأن قلبه مال اليها ، بعد أن كان أبو سعيد أسير عشقها ، فلم تسترح لذلك . فحققت على السلطان وقررت الانتقام منه ، وتذكرت أنه قاتل أبيها وأخوتها ومحطم فؤادها ، فانتهزت فرصة مرضه ووضعت السم في غذائه وقضت عليه ولم يتجاوز عمره الثانية والثلاثين . وكان عقاب بغداد خاتون أن أمر بخنقها « أريباكاون » الذي خلف أبا سعيد في السلطة وهي في الحمام .

ويعتبر السلطان أبو سعيد آخر ملوك الأسرة المغولية الايلخانية العظام الذين حكموا في ايران ، ذلك لأن أبا سعيد لم يعقب ولدا ، فلم يكن يمثل الأسرة والحالة هذه الا أمراء من بيت هولكو ، ظلوا يتعاقبون على العرش الايلخاني حتى سنة ٧٥٦ هجرية (١٣٥٥ م) . وكان أبو سعيد رجلا كريما وقائدا شجاعا محبا للأدب والفنون ، نشأ في أحضان الاسلام والثقافة الفارسية ، فكان أقرب ما يكون بملك فارسي من مغولي . وقد نالت العلوم والفنون والآداب في عهده حظا كبيرا من الاهتمام والانتشار ، فانتعش سوقها وراجت بضاعتها ، وساعد في احياء تلك النهضة الوزير خواجه غياث الدين محمد بن خواجه رشيد الدين فضل الله الهمداني . وكان أبو سعيد نفسه شاعرا وصاحب ذوق شعري ، نظم غزليات وقطعات في عشق بغداد خاتون وفراقها . وهذا بيت من إحدى غزلياته :

بيبا بمصر دلم تا دمشق جان بينی .

که آرزوی دلم در هوای « بغداد » است

وترجمة البيت :

يا قلبي ! تعال الى مصر لتري دمشق الروح
فان غاية قلبي في هوى بغداد

وكان أبو سعيد الى جانب شاعريته يحسن كتابة الخط الجميل ،
ويعشق الموسيقى ، وكان فنانا أصيلا . أما عن حياته الدينية فكان
أبو سعيد مسلما غير متعصب ، ولد مسلما وشب وترعرع في بيئة اسلامية
خالصة ، وتعلم الفقه الاسلامي وقرأ القرآن الكريم على يد علماء الدين ،
ومن أفعاله في التقريب بين المسلمين الغائه المذهب الشيعي الذي كان قد
صيره والده مذهب الدولة الرسمي ، وعادت العملة تحمل من جديد أسماء
الخلفاء الراشدين الأربعة .

سياسة أبي سعيد الخارجية :

كانت سياسة السلطان أبي سعيد الخارجية تعتمد على حفظ علاقات
الصداقة والود والسلام مع الدول الأخرى ، اسلامية ومسيحية ، والبعد عن
الحرب وسفك الدماء . وقد نغل ذلك بأن با سعيد ترك أمور الدولة في بداية
أمره في يد غيره من الأمراء والوزراء ، الذين كانوا يعملون لتوطيد سلطانهم
وانشغلوا بالقضاء على منافسيهم ومناوئتهم ، فعاش أبو سعيد في جو
كثرت فيه الفتن والثورات الداخلية . كما شاهد بنفسه ما عاناه الشعب
الايراني من جراء هجوم الغزاة المغول حكام دولة القبيلة الذهبية (آلتون
أوردو) بجنوب روسيا والچغتائيين في التركستان وأواسط آسيا . ولهذا
فانه لم يكن يستطيع مناهضة المماليك حكام مصر اذا دخل معهم في صراع
مسلح لعدم استقرار الأمور في بلاده .

أما علاقة أبي سعيد بالمماليك فانها لم تتحسن الا بعد فترة من جلوسه
على العرش وانفراده بالحكم ، ذلك أن السلطان الملك الناصر محمد بن
قلاوون كان لا يزال يحمل العداوة والبغضاء للمغول الى حد كبير ويستقبل
المنشقين من أمراء المغول ، ويذكر المقریزی أن الناصر محمد أرسل في سنة
٧٢٠ هجرية ثلاثين رجلا من طائفة الحشاشين في سورية الى فارس لاغتيال
قراسنقر حاكم مراغه من قبل المغول . وعلى الرغم من فشل المؤامرة فانها

أخافت المغول إلى حد كبير ، فقد ذاع بينهم أن هؤلاء الاسماعيلية حضروا لقتل السلطان أبى سعيد والأمير جوبان والوزير على يادشاه وقراسنقر وأمراء المغول ، واحتجب السلطان أبو سعيد بخيمته خوفا على نفسه ، كما أنكر جوبان على مجد الدين اسماعيل السلاى الذى كان يقوم بالسفارة للسلطان الملك الناصر محمد هذه المؤامرة وهدده بالقتل (٤١) .

على أن الفريقين المتخاصمين المغولى والملوكى سرعان ما جنحا للصلح ، فرأى السلطان أبو سعيد أنه من الحكمة وبعد النظر أن يخطب ود المماليك ، كما كانت هناك دواع لتحسين العلاقات ، ذلك أنه نزل بآسيا الصغرى فى عامى ١٣١٨ و ١٣١٩ م قحط شديد ومجاعة مخيفة ، ثم تلى ذلك فى عام ١٣٢٠ م أعاصير مدمرة وزوابع مخربة . وقد راع هذا أبى سعيد فاستشار علماء الدين عن سبب تلك المحن ، فعزوها إلى انتشار الموبقات والاسراف فى شرب الخمر ، حتى أن الحانات كانت فى كثير من الأحيان ملاصقة للمساجد ودور العلم . ومن ثم أمر أبو سعيد باغلاق هذه الدور ، واتلاف الخمر ، ولم يسمح إلا بإقامة حانة واحدة للرحالة فى كل مركز . ولعل هذا الاجراء كان من العوامل التى ساعدت على توطيد العلاقات بين أبى سعيد وبين الناصر محمد . فجنح الفريقان للسلام وطرحا ما كان بينهما من الاحن والاحقاد القديمة (٤٢) . وكان سفراء البلاط المغولى يحملون الهدايا وأهمها الأقمشة الثمينة عندما يتوجهون للقاهرة (٤٣) . وفى عام ٧٢٢ هـ (١٣٢٢ م) أرسل أبو سعيد إلى الناصر محمد يطلب الصلح والدخول فى علاقات مودة وإخاء ونبذ الخصومة والعداوة . وكان يحمل هذا الخطاب القاضى نوروز ، فوافق هذا الطلب هوى فى نفس السلطان الناصر محمد ، وبعث مملوكه سيف الدين أيتمش المحمدى يحمل كتابه إلى أبى سعيد (٤٤) .

وما أن أصبح الجو ممهدا لعقد الصلح وإحلال السلام حتى أرسل السلطان أبو سعيد سفيرا هو نصير الدين قاضى القضاة بتبريز على رأس وفد من أعيان الدولة الايلخانية ومعهم كتاب بشأن الصلح ، كان من شروطه:

-
- (٤١) المقرئى : السلوك ، ج ٢ ، القسم الأول ، ص ٢٠٩ .
 - (٤٢) أبو المحاسن : المنهل الصافى ، ج ٣ ، ص ٢٥٠ .
 - (٤٣) أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر ، ج ٤ ، ص ٩٥ - ٩٦ .
 - (٤٤) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٧ ، ص ٢٥٣ - ٢٥٩ .

- ١ - ألا تدخل الاسماعيلية بلادالمغول .
 - ٢ - لا يرد أى فرد قدم من مصر الى بلاد المغول .
 - ٣ - من يفد الى مصر من المغول ، لا يرد الى بلده الا برضاه .
 - ٤ - ألا يعهد سلطان مصر الى العرب أو التركمان بالاغارة على بلاد المغول .
 - ٥ - أن يكون الطريق بين دولة المغول في فارس ودولة المماليك خاليا من الموانع التى تعوق سير التجارة بين الدولتين .
 - ٦ - أن يسير المحمل كل عام من العراق الى الحجاز رافعا علم سلطان مصر مع علم السلطان أبى سعيد .
 - ٧ - ألا يسعى سلطان مصر فى القبض على الأمير قراسنقر حاكم مراغه .
- وقد جمع السلطان الملك الناصر محمد الأمراء وشاورهم فى هذا الصلح، فاتفق الرأى على امضائه ، وجهزت الهدايا لأبى سعيد ومن بينها خالعة أطلس وقباء تترى(٤٥) .
- وكان من أثر هذا الصلح أن حل الوثام بين المغول والمماليك محل الخصام ، وقدم رسول السلطان أبى سعيد يطلب من الناصر محمد تجهيز « السفنق السلطانى » ليسير مع المحمل الى بلاد الحجاز ، فأجيب الى طلبه وكتب لصاحب مكة باكرام حاج العراق ، كما منح السلطان الملك الناصر محمد على منح العرب من التعرض لهؤلاء الحجاج ، وصار يدعى لأبى سعيد بعد الدعاء لسلطان مصر على منابر مكة(٤٦) .
- كذلك ارتبط السلطان أبو سعيد بعلاقات تجارية مع أوروبا ، تلك التى بدأها والده فى أواخر عهده ، فمنح تجار البندقية امتيازات تجارية . واستمر السلطان أبو سعيد فى اعطاء تلك الامتيازات لتجار البندقية ، فراجت التجارة بشكل ظاهر فى عهده أكثر من ذى قبل .

(٤٥) المقرئى : السلوك ، ج ٢ ، القسم الاول ، ص ٢٠٩ - ٢١٠ .

(٤٦) المرجع السابق ، ص ٢١١ - ٢١٢ .

الفصل التاسع

الايلاخانات خلفاء السلطان أبى سعيد

كان موت السلطان أبى سعيد بهادر خان المفاجيء ، وهو فى طريقه لحرب أوزبك خان ملك دشت القيقاق ضربة كبيرة للدولة الايلخانية، خاصة وأن أبى سعيد توفى دون انجاب وريث للعرش ، فوقع الامبراطورية الايلخانية فريسة لأغف الاضطرابات مما عجل بنهايتها ودخولها فى دور الاحتضار . ومع ذلك فان الوزير خواجه غياث الدين محمد تمكن بحكمته وحزمه من تنفيذ وصية السلطان أبى سعيد ، كما عرف كيف يسوس النفوس الجامحة الطامعة فى الملك بحكمة هائلة جعلت الأمراء وكبار الموظفين الذين كانوا على وشك امتشاق الحسام ضد بعضهم البعض ، يطرحون أحقادهم جانبا ، ويتعاونون جميعا فى المحافظة على سلامة الدولة ورخائها .

وعندما اشتد المرض بأبى سعيد وشعر بدنو أجله ، ذكر لوزيره خواجه غياث الدين محمد وهو على فراش الموت أن يخلفه على العرش الايلخانى الأمير « أرياكاون » لأنه أصلح الأمراء لتولى هذا المنصب، فقام الوزير خواجه غياث الدين محمد بتنفيذ الوصية ، فاستدعى أرياكاون الذى كان يعمل مشرفا على الاصطبلات السلطانية ، وأبلغه بقرار تنصيبه فى نفس الليلة التى توفى فيها السلطان أبى سعيد .

أريا خان (٧٣٦ - ٧٣٦ هـ) :

واجه أرياكاون صعوبات عديدة حتى تستتب له الأمور ، كان أهمها على الاطلاق أنه ليس من بيت هولاكو المؤسسين للدولة الايلخانية فى ايران والعراق ، وإنما هو من حفدة « أريق بوقا » الأخ الاصغر لهولاكو ، وهو ابن سوسه (سفيان) بن سنجقان بن ملك تيمور بن أريق بوقا بن تولى خان ابن چنكيز خان . وقام الوزير خواجه غياث الدين محمد بمجهودات مكثفة واتصالات عديدة مع أمراء المغول ونساء السلطان أبى سعيد ، وأميرات البيت

المالك وأزواجهن وكبار رجال الدولة وقادة الجيش للحصول على موافقتهم على ترشيح أرياباكون ، فوافقوا على ذلك ، وتم تنصيب أرياباكون إيلخانا في احتفال كبير حضره جميع الأمراء وأعيان المملكة حيث وضع التاج المرصع على رأسه وتسمى باسم « أريا خان » ، و تلقب بمعز الدين والدنيا . ولم يخالف تنصيب أريا خان سوى بغداد خاتون التي أعلنت معارضتها توليه العرش . ومع ذلك استمر الوزير خواجه غياث الدين محمد يكثف جهوده حتى تمت الاحتفالات دون معارضة تذكر . ثم قام السلطان الجديد ومعه الأمراء وكبار رجال الدولة بتشجيع جثمان السلطان الراحل أبي سعيد إلى مثواه الأخير . ووقف يتقبل العزاء ، كما فرق الصدقات على روح السلطان المتوفى .

ولم يرض أريا خان عن تصرفات بغداد خاتون ابنة چوبان ، وأكبر خواتين السلطان أبي سعيد فقد استخفت به وبشخصيته على أساس أنه لا يليق للسلطنة وغير جدير بها ، بل ولا تحق له لأنه ليس من أسرة هولاكو . وبدأت تحرض الأمراء الإيلخانيين على أريا خان وتحقر من شأنه ، بل وصل بها الأمر أن كاتبت أوزبك خان رئيس القبيلة الذهبية . ولم يقف أريا خان مكتوف الأيدي أمام هذا التيار المناوئ ، وتلك الحملة التي رفعت لواءها بغداد خاتون . وانتهاز فرصة ثبوت تهمة قيامها بوضع السم لأبي سعيد والذي أثبتته الأطباء الذين لازموه أثناء مرضه ، وقرروا ذلك . ولما ضيق الخناق على بغداد خاتون اعترفت بجريمتها انتقاما منه لحبه « دلشاد ختون » ابنة « دمشق خواجه » حبا شديدا وهجره إياها . وعرض أريا خان موضوعها على الأمراء ، فقرروا التخلص منها . وقام أحد الأمراء ويدعى خواجه لؤلؤ في أواخر ربيع الآخر سنة ٧٣٦ هجرية بقتلها وهي في الحمام ، وظلت جثتها أياما لا يقترب منها أحد كرها لها وتشفيا منها (١) .

وكان أول عمل قام به أريا خان ، أن أكمل خطة سلفه أبي سعيد ، ونهج سياسته في قتال أوزبك خان ، الذي وجد أمامه الفرصة سانحة بوفاة أبي سعيد وطمع في مملكته ، وأعلن الحرب على أريا خان ، وتقدم بجيوشه نحو الأطراف الشمالية ، وكانت من الكثرة بحيث يمكنها تدمير إيران

(١) ميرخواند : روضة الصفا ، ج ٥ ، ص ٥٣٥ .

تماما ، فأسرع أريا خان لملاقاته وحاربه وانتصر عليه . لكنه ما أن عاد الى سلطانیه عاصمة ملكه ، وقد تصور أن أمراء مغول ایران سوف يسعدون بانتصاره ، الا أنه وجد عكس ذلك تماما ، فقد وجد الأمراء الايلخانيين وقد انقلبوا عليه ، ولم يقدموا التهنئة له كايلىخان لانتصاره على أوزبك خان رئيس القبيلة الذهبية ، والعدو التقليدى للدولة الايلخانية . ومع ذلك لم يبادلهم العداء ، بل أقبل على استرضائهم ، ومن بين ذلك زواجه من ساتى بك ابنة السلطان محمد خدابنده أولجايتو وأخت السلطان أبى سعيد ، والتي كانت فى يوم ما زوجة الأمير جوبان فى محاولة منه لاسترضاء بيت هولاکو ، وليضمن ولاءه له . لكن هذه الزيجة حركت الخلافات المستترة بين أفراد الأسرة الايلخانية ، فقامت عليه دلشاد خاتون أرملة السلطان أبى سعيد ابنة دمشق خواجه بن الأمير جوبان ، وأيدتها « حاجى خاتون » أم السلطان أبى سعيد ، وصرحتا بعدم اقتناعهما بسلطنة أريا خان . كذلك وجد بعض الأمراء من بيت هولاکو الفرصة سانحة للدخول فى الخلافات التى نشبت بين أريا خان ونساء أبى سعيد ، فانضموا اليهما ، وقوى حزبهم ، وغادرت دلشاد خاتون المعسكر السلطانى وتوجهت الى بغداد ، ولجأت الى الأمير على پادشاه خال السلطان أبى سعيد ، والذي كان غير راض عن تنصيب أريا خان للعرش الايلخانى . وانتهزت الجماعة المعادية للايلخان الجديد فرصة حمل دلشاد خاتون أرملة أبى سعيد ، وأعلنت أنه فى حالة انجابها ذكرا ، فانه سيعين سلطانا خلفا لأبيه ولاشعار أريا خان بأنهم غير راضين عن ساطنته .

تصاعد النزاع بين أريا خان والأمراء الايلخانيين :

تزعم الأمير على پادشاه ، خال السلطان أبى سعيد وحاكم بغداد ، الحركة المناوئة لأرياخان واتصل بأمراء الأويرات وبعض أمراء العرب للانضمام الى حركته ، وسرعان ما انضم اليه عدد كبير من أمراء وأميرات بيت هولاکو . واستقر رأيهم على تنصيب الأمير موسى بن على بن بايدوخان ايلخانا ، وأجلسوه على العرش الايلخانى ، وتلقب بموسى خان . وتلا ذلك قيام على پادشاه بمراسلة أمراء الجيش وكبار جال الدولة للانضمام الى حركته وتأييد موسى خان . وفى الوقت نفسه كان يستعد لحرب أريا خان والاطاحة به .

وجد أريا خان نفسه مضطرا لمواجهة الموقف بعد أن يئس من مصالحة

مناوئيه ، وجيش الجيوش لحرب موسى خان وعلى پادشاه . وما أن عام بتحرك جيش على پادشاه وبصحبتة الايلخان الجديد موسى خان حتى أسرع للملاقاتة ، وتقابل الفريقان قرب شاطيء نهر « جغاتو » عند مراغه وجعل أريا خان نفسه على قلب الجيش ، ووقف في صفوفه كأي جندي عادى ، كما قاد الوزير خواجه غياث الدين محمد الميسرة . ورأى الأمير على پادشاه أن جيش أريا خان يفوق جيشه عددا وعدة فأعمل الحيلة والمكر للايقاع بهدوه . فأرسل شخصين من رجاله الى الوزير خواجه غياث الدين محمد أخبراه بهزيمة الايلخان ، وفي الوقت نفسه أرسل رسولين الى أريا خان ، وأبلغاه هزيمة وزيره خواجه غياث الدين محمد ، وفعلت هذه الأخبار في نفس الايلخان ووزيره فعلها ، ودخل اليأس والخوف قلوبهما ، كذلك تفرقت الجنود بعد أن علموا بأخبار الهزيمة ، واضطربت صفوفهم . وما أن تأكد الأمير على پادشاه قائد جيوش موسى خان بنجاح خطته ، حتى حمل على من بقى من جنود في أرض المعركة . وفي ١٧ رمضان سنة ٧٣٦ هجرية قبض على أريا خان بعد هزيمته ، أما الوزير خواجه غياث الدين محمد فانه هرب مع أخيه « پير سلطان » بعد أن علما بحقيقة الأمر ، وما وقعا فيه من خطأ وتأكدا من اللقاء القبض على الايلخان أريا خان فانسحبا الى مراغه ، فتبعهما بعض الجنود وقبضوا عليهما في موضع يقال له « سه گنبدان » بجهة مراغه وأحضرهما أمام الأمير على پادشاه الذى استقبلهما بكل ترحاب وتكريم .

وكان بين الأمير على پادشاه والوزير خواجه غياث الدين محمد عداوة دفينة ، لكنه كان يقدره كشخصية ممتازة سواء في خلقه أو علمه أو ادارته . وكان الأمير على پادشاه يميل الى الابقاء على حياته ، بل انه بذل كل ما في وسعه ليحفظ له حياته ، لكن تحت ضغط سائر الأمراء المغول الذين أصروا على اعدامه ،لقى خواجه غياث الدين محمد الموت في الحادى والعشرين من رمضان سنة ٧٣٦ هجرية . وبعد ثلاثة أيام قتل أخوه پير سلطان مع جماعة من الأمراء الذين كانوا في جانب أريا خان . ثم تلى ذلك مصادرة أموال الوزير خواجه غياث الدين محمد وأموال أسرته وأقربائه وأتباعه ، كما قام أهالى تبريز بالاغارة على منازل أسرة غياث الدين ، وكان عددها يزيد على الألف ، واغاروا على ربع رشيدى ومنازل الوزراء ، واستولوا على ما بها من

جواهر ونقود وأقمشة وأمتعة وكتب نفيسة ، وباعوها بأثمان بخسة لم تصل الى عشر قيمتها .

أما أريا خان ، غان أمراء المغول تخلصوا منه حيث سلموه في اليوم الثالث من شوال من نفس السنة الى أسرة اينجو حكام شيراز ليقتصروا منه، حيث كان أريا خان قد قتل الأمير شرف الدين محمود شاه اينجو ، فقتلوه (٢) .
وحكم أريا خان قرابة ستة أشهر ليس أكثر (٣) .

موسى خان (٧٣٦ - ٧٣٦ هـ) :

تولى موسى خان العرش الايلخاني بعد أريا خان ، وقام أمراء المغول الذين ساعدوه وأيدوه بالاحتفال بتنصيبه ايلخانا ، حيث عقدوا مؤتمرا في مدينة « أوجان » أعلنوا فيه تنصيب موسى خان العرش الايلخاني . وكافأ موسى خان قائد جيوشه الأمير على پادشاه فعينه أميرا للأمراء ونائبا للملك ، وأطلق يده في شئون الحكم والادارة ، وعين معه جمال الدين بن تاج الدين على شيروانى وزيرا .

ولم تستقر الأمور في الدولة المغولية بقولية موسى خان العرش الايلخاني ، بل تصدعت أركان الدولة في عهده ، ذلك أن كبار أمراء المغول كانوا يطمعون في الوصول الى العرش ، وبدأ كل واحد منهم يهيء خططه للوثوب الى السلطة ، واتفقوا جميعا في ذلك واستهانوا بموسى خان ، ولم يقبلوه في قرارة نفوسهم ، كما لم يقبلوا الأمير على پادشاه أميرا للأمراء ، ولا جمال الدين الشيروانى وزيرا . وأخذوا يثيرون الفتن والاضطرابات في كافة أنحاء المملكة حتى عمت الفوضى واختلت أمور الدولة . وانتهز أمراء الأطراف الفرصة ، وزادوا النار لهيبا ، وعمل كل واحد منهم على اضعاف الحكومة المركزية والدخول في المهاترات الدائرة بأى شكل من الأشكال ، فاستغلوا بما تحت أيديهم من ولايات أو مدن . وقامت ثورات تطالب بتغيير الأوضاع كان من أهمها ثورة الأمير الشيخ حسن بزرگ الايلكانى الذى كان يحكم بلاد الروم بآسيا الصغرى ، وأيضا ثورة حاجى طغاي حاكم ديار بكر

(٢) حافظ آبرو : ذيل جامع التواريخ رشيدى ، ص ١٤٥ - ١٥١ .

(٣) ميرخواند : روضة الصفا ، ج ٥ ، ص ٥٣٤ - ٥٣٧ .

وأرمينية منذ عام ٧٣٢ هجرية وكان بينه وبين الأمير علي يادشاه عدوة وثار ، فأرسل الى الأمير شيخ حسن بزرگ يطلب منه اعداد قواته لمواجهة الموقف . وما أن اتحدت الثورتان ، ثورة شيخ حسن بزرگ وثورة حاجي طغاي ضد موسى خان ونائبه الأمير علي يادشاه ، حتى سار شيخ حسن بزرگ قاصدا تبريز على رأس جيش من التركمان والعرب والایرانیین لمحاربة علي يادشاه (٤) .

واختار الثوار أحد الأمراء من سلالة منگو تیمور بن هولاکو انصب الايلخانية ، كما اختاروا خواجه محمد زكريا سبط الوزير خواجه رشيدالدين فضل الله الهمداني وزيرا .

نهاية موسى خان:

أسرع موسى خان لقتال أعدائه ، واصطفت في أرض المعركة جيوش الطرفين استعدادا للنزال والقتال ، ولكن حدث ما غير الوضع كلية ، ذلك أن زعماء المتصارعين اتفقوا على ألا تتقابل جيوشهما ، ويكتفيا . بصراع المطالبين بالملك على أن يعين من ينتصر منهما ايلخانا . وفعلتا تقابل موسى خان مع محمد خان وتصارعا بالسيف تارة وبالأيدى تارة أخرى تبادلا خلالها اللكمات ، وأخيرا تمكن موسى خان من هزيمة خصمه محمد خان ، وطرحه أرضا بعد أن أشبعه لكما وضربا . وحدث أثناء الصراع بين الملكين المغوليين أن قام الشيخ حسن بزرگ فجأة وقتل بسيفه الأمير علي يادشاه قائد جيوش موسى خان ، فخشى الأخير على نفسه ، وفر من أرض المعركة . وكان هروبه السبب الذي من أجله قرر أمراء المغول هزيمته وتنحيته عن الحكم ، ففر إلى بغداد . وانتهت بذلك دولته وعصره بعد أن حكم شهرين اثنين (٥) .

محمد خان (٧٣٦ - ٧٣٨ هـ) :

اتفق كل من الأمير شيخ حسن بزرگ ومحمد خان على دخول تبريز بعد مقتل الأمير علي يادشاه وهروب موسى خان الى بغداد . وفي الرابع

(٤) Howorth; History of the Mongols, Vol. III, P. 637-638.

(٥) شرف خان البديليسي : شرف نامه ، المجلد الثاني ، الترجمة العربية ، ص ٣٥ .

والعشرين من ذى الحجة سنة ٧٣٦ هجرية جلس محمد خان على العرش الايلخانى .

وكان أول عمل أقدم عليه الايلخان الجديد أن سمح للأمير شيخ حسن بزرگ أن يتزوج من دلشاد خاتون أرملة السلطان أبى سعيد ، لاسترداد حقه واستعادة كرامته بعد أن لحقه الضرر نتيجة اغتصاب أبى سعيد زوجته بغداد خاتون . ثم عينه الايلخان الجديد محمد خان أميرا للأمراء ونائبا للملك ، فقبض الأمير شيخ حسن بزرگ على زمام الأمور بيده من جديد ، حتى أن محمد خان لم يكن له من الملك شيء ، بل كان العوبة في يد نائبه يحركه كيف يشاء .

وبدأ الأمير حسن بزرگ يقتص من الأمراء الذين وقفوا ضده في عهد أبى سعيد ، بل وأذى كل من كان على صلة ببغداد خاتون ، فعاداه نتيجة لذلك أمراء البيت الايلخانى قاطبة ، ونفر منه كبار رجال الدولة لبطشه بهم ، علاوة على أعدائه القدماء وكانوا كثيرين ، وعادوا أيضا الايلخان الجديد محمد خان ، وتوجهوا الى خراسان بعيدا عن آذربيجان والعاصمة تبريز وسلطانية ليعلموا فيها الثورة ضد شيخ حسن بزرگ الايلكانى نائب الملك . واستدعى الثائرون أحد أمراء المغول من أعقاب چنكيز خان ، ويدعى طغاتي مور ، وكان يقيم بمارندران بعد تولية محمد خان ، ونصبوه ايلخانا بخراسان ، وصار يدعى له في الخطبة وينقش اسمه على السكة (٦) . وعلى هذا النحو أصبح في ايران ايلخانان اثنان ، أحدهما في الشرق وهو طغاتي مور والآخر في الغرب وهو محمد خان .

وطمع شيخ على قوشجى ، أحد زعماء الحركة المناوئة لحكم محمد خان ونائبه الأمير شيخ حسن بزرگ في منصب امرة الأمراء ، وجمع جيشا أرسله برفقة طغاتي مور للاطاحة بمحمد خان وشيخ حسن بزرگ المقيمان في آذربيجان ، وبقي في خراسان كنائب الملك . وعند وصول طغاتي مور الى حدود آذربيجان انضم اليه موسى خان - الايلخان السابق وكان يقيم في بغداد - وتعاهدا على أنه في حالة انتصارهما فانهما يقسمان المملكة بينهما ، على أن تكون

خراسان والمناطق الشرقية من الدولة الايلخانية من نصيب طغاتيمور ، أما محمد خان فانه يختص بحكم المناطق الغربية . وبعد أن درس خطة المعركة وطريقة القتال تابعا مسيرهما في آذربيجان نفسها حتى التقيا بجيش محمد خان وشيخ حسن بزرگ في الخامس عشر من ذي القعدة سنة ٧٣٧ هجرية (يونيو عام ١٣٣٧ م) قرب مدينة مراغة .

وعلى هذا النحو تقابل المطالبون الثلاثة بالعرش الايلخاني في أرض معركة واحدة ، حيث دارت رحى الحرب بين الفريقين . وانهزم طغاتيمور هزيمة منكرة وتبدد شمل جيشه وفر من ميدان القتال تاركاً حليفة موسى خان لمصير محتوم ، وهزم موسى خان بدوره ولكنه لم يتمكن من الفرار ووقع أسيراً في يد أعدائه وهو يحاول الفرار ، فقتله شيخ حسن بزرگ بيده في العاشر من ذي الحجة من العام نفسه (شهر يوليو سنة ١٣٣٧ م) (٧) . وفي اليوم نفسه الذي هزم فيه طغاتيمور ، قام أحد الأمراء ويدعى « أرغون شاه ابن الأمير نوروز » وهو في خراسان بقتل شيخ على قوشجي . وبذلك قضى في يوم واحد على عدوين قوين لمحمد خان ، وإن كان طغاتيمور قد رحل الى خراسان وأنشأ حكومة هناك .

نهاية محمد خان :

لم يكد ينعم محمد خان وأمير أمرائه شيخ حسن بزرگ بجنى ثمار انتصارهما ، حتى فوجئاً في الاثنى عشر من جمادى الثانية عام ٧٣٨ هجرية، أى بعد بضعة أشهر من انتصارهما على كل من طغاتيمور خان وموسى خان بقيام الأمير شيخ حسن كوچك بن تيمور تاش بن چوبان بثورة ضدهما ، وقاد عدة معارك في بلاد الروم بآسيا الصغرى انتصر فيها على جيوش الايلخان واستعد لدخول آذربيجان والاستيلاء على الحكم . وفي ٢٠ ذي الحجة سنة ٧٣٨ هجرية تقابل شيخ حسن كوچك مع جيوش محمد خان والتي كان يقودها أمير أمرائه شيخ حسن بزرگ في « آلا تاغ » من نواحي نخجوان ببلاد القوقاز . واستمر فترة لم ينته فيها الى نصر حقيقى لأحد الأطراف المتنازعة ، ولكن رجحت كفة شيخ حسن كوچك بسبب ضيافة أحد قادة جيش

(٧) Howorth : History of the Mongols, Vol. III, P. 649

وأيضاً : حبيب الله شاملوئى : تاريخ ايران ، ص ٥٢١ - ٥٢٢ .

شيخ حسن بزرگ ، ويدعى الأمير پير حسين ، وهو ابن عم شيخ حسن كوچك ، فانهزم جيش الايلخان ، وفر شيخ حسن بزرگ من ميدان القتال . أما محمد خان فانه ظل يحارب بشجاعة حتى وقع أسيرا في يد شيخ حسن كوچك الذى قتله في الحال . وأسس شيخ حسن كوچك حكومة في تبريز واتخذها عاصمة له . ولم تمض مدة حتى أصبحت الأسرة الجوبانية تتحكم في العران وأذربيجان بعد أن فقد محمد خان عرشه وحياته في آن واحد .

السلطان الناصر محمد بن قلاوون يطمع في ضم بلاد الدولة الايلخانية الى دولته :

وكانت أنباء اضطراب الأحوال الداخلية التى أعقبت موت السلطان أبى سعيد ، سببا في طمع السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون في ضم ايران والعراق - أو بمعنى أدق ممتلكات الدولة الايلخانية - الى دولته . وعندما قدمت اليه بعثات من شيخ حسن بزرگ ومحمد خان في أوائل عام ٧٢٨ هجرية (١٣٣٧ م) تطلب مساعدته ، فأرسل السلطان المملوكى بعض قواته الى حدود الدولة المغولية (٨) . ووقفت هذه القوات تنتظر ما تتمخض عنه المعارك الدائرة بين الأطراف المتنازعة . وقد أفلقت انتصارات شيخ حسن كوچك السلطان الملك الناصر محمد ، ذلك أن والده تيمورقش بن چوبان ، والذي كان حاكما على آسيا الصغرى في عهد أبى سعيد وفر لاجئا الى مصر وقتل بأمر الناصر محمد سنة ٧٢٨ هجرية ، خوفا من أن يطالب شيخ حسن كوچك بدم والده مما يسبب للسلطان المملوكى مشاكل عديدة . وكان الناصر محمد يخشى من ازدياد قوة شيخ حسن كوچك ومن اتصالاته بأمراء مصر . وكان من بين الادعاءات التى أطلقها شيخ حسن كوچك احضاره رجلا تركيا يدعى « قراچار » ، وزعم أنه والده وادعى أنه هرب من سجون القاهرة ، وأنه ظل مشردا عدة سنين في دول بعيدة (٩) . ولما وصلت أنباء ثورة شيخ حسن كوچك مسامع الناصر محمد ، وظهر والده تيمورقش خشى أن يكون الرجال الذين عهد اليهم بقتله قد خدعوه ، وأنه اذا استعاد مركزه لا بد وأن يشكل خطرا كبيرا وعدوا لودا له . واستمر

(٨) محمد جمال الدين سرور (دكتور) : دولة بنى قلاوون في مصر ، ص ٢١٣ - ٢١٤ .

(٩) Howorth; History of the Mongols, Vol. III, P. 641.

السلطان المملوكي يتحرى الحقيقة حتى علم بكذب الادعاءات ، فاستراح لذلك وترك الساحة الايرانية بما فيها من متاعب ومشاكل ومن فيها من شخصيات متهورة متنافرة .

طغاتيمور خان (٧٣٧ - ٧٥٤هـ) :

لم يكن طغاتيمور خان من سلالة چنكيز خان ، بل هو من الرعييل السادس لسلالة أخ من أخوة چنكيز خان . كان جده « بابا بهادر » قد قدم الى خراسان عام ٧٠٥ هجرية على رأس تومانة ووصل في خدمة السلطان محمد خدابنده أولجايتو ، وأغار على خوارزم عام ٧١٥ هجرية (١٣١٥ م) فشكا أوزبك خان ، ملك دولة دشت القيقاق بابا بهادر الى السلطان محمد خدابنده أولجايتو فعاقبه على ذلك بأن قتله هو وابنه شري ولد طغاتيمور . أما قبيلة بابا بهادر فانها ظلت في مازندران ، وكان هذا الاقليم يضم في ذلك الوقت جرجان والجزء الشرقي من طبرستان (١٠) .

وبعد أن استولى شيخ حسن بزرك على آذربيجان واستقرت بالسلطة ، اتفق جماعة من أمراء السلطان أبي سعيد على إقامة حكومة بخراسان . وكان من بين رؤساء الحركة الأمير بير حسين حفيد چوبان ، وأرغون شاه بن نوروز ، وعبد الله بن أمير مولاي وعلى جعفر وساعدهم الأمير شيخ علي بن علي قوشجي ، وقرروا تنصيب الأمير طغاتيمور بالعرش المغولي ، ونادوا به ايلخانا عام ٧٣٧ هجرية (١٣٣٧م) . وبذلك أصبح في ايران ايلخانان ، أحدهما في شرق البلاد والثاني في غربها .

وكما سبق أن ذكرنا سار طغاتيمور خان على رأس الجيش المناصر له صحبة أمرائه وانضم اليه موسى خان المطالب الآخر بالعرش ، يظاهاهم الأويرات لقتال محمد خان . واتفق كل من طغاتيمور وموسى على اقتسام ايران والعراق بينهما ، ولكن شيخ حسن بزرك أمير أمراء محمد خان أوقع بهما الهزيمة في الثالث من ذي الحجة عام ٧٣٧ هجرية عند نهر « گرم رود »

(١٠) حمد الله المستوفى القزويني : نزهت القلوب ، ص ٢٥٩ .

(م ٢٦ - تاريخ الدولة المغوية)

الى الغرب من ميانه فانسحب طغاتييمور الى بسطام حيث حكم مازندران وخراسان بوصفه خانا .

وفي عام ٧٣٩ هجرية دعا شيخ حسن بزرگ طغاتييمور الى العراق ، فذهب اليها صحبة الأمير أرغون شاه بن نوروز وحفيد أرغون آقا أول حاكم مغولي على ايران . وتوجه شيخ حسن بزرگ للقاء طغاتييمور قرب ساوه . كما شرع طغاتييمور في الاتصال بشيخ حسن كوچك للجوباني ومفاوضته للانضمام الى حركته . وذاذات تتم مصالحة نهائية بين الأطراف المتنازعة لولا أن طغاتييمور خان برم ، بن دسائس شيخ حسن بزرگ ، فترك المنطقة كلها وعاد الى خراسان دون نتيجة تذكر .

وفي عام ٧٤١ هجرية (١٣٤١م) أغار طغاتييمور خان للمرة الثالثة على العراق فتناصره الأميرة ساتي بك ابنة السلطان أولجايتو خان وأخت السلطان أبي سعيد بهادر ، ومعها ابنها « شبرغان » من الأمير جوبان ، فلحقت الهزيمة بجيش طغاتييمور الذي كان على قيادته أخوه الأمير على كاون . وعلى هذا النحو انتصر شيخ حسن كوچك على منافسيه وأصبح سيد الموقف .

ظهور السربداريين على مسرح السياسة الايرانية في خراسان :

لم تسلم خراسان من الفتن والثورات ، ولكن هذه المرة لم يقم بالثورة أحد أمراء المغول أو قادة جيوشهم ، بل كانت ثورة نبعت من الشعب نفسه ، ذلك أن خواجه علاء الدين محمد وزير خراسان زمن طغاتييمور نهج سياسة غاشمة ، وأخذ الناس بالشدة ، واستغل بطانته نفوذهم في المكاسب ، فأدى كل ذلك الى استيلاء السربداريين على مدينة سبزوار ، واعلانهم الاستقلال عام ٧٣٧ هجرية . وسرعان ما بسط السربداريون سلطانهم على خراسان ، وطردها منها أرغون شاه صاحب نيسابور وطوس ، وهزم قائدهم وجيه الدين مسعود السربداري جيوش طغاتييمور عند نهر أترك وقتل أخوه على كاون ، وتمكنوا من توطيد سلطانهم وتأسيس دويلة لهم في خراسان .

ان العداء الذي نشأ بين طغاتييمور والسربداريين ما لبث أن زال بعد

تمكنهم من السلطة واقرار طغاتييمور خان بوجودهم ، وحدث بين الطرفين مصالحة نستشفها من قيام أمراء السربداريين بزيارات الى بلاد طغاتييمور خان مرة كل سنة لتقديم ولائهم . ويذكر المؤرخون أن طغاتييمور خان كان رجلا متواضعا لا يميل الى القتال وسفك الدماء ، واستمر يحكم مدة سبعة عشر عاما في هدوء وراحة بال الى أن قتله أحد السربداريين في إحدى زيارته للخان . وكانت وفاته في اليوم السادس عشر من ذي القعدة عام ٧٥٤ هجرية (ديسمبر ١٣٥٣م) قبل أن ينتهي الحكم الايلخاني نهائيا في ايران والعراق بسنتين بوفاة الايلخان أنوشيروان العادل الفجائية .

ويذكر دولتشاه السمرقندي أن طغاتييمور خان كان يشبه السربداريين في رعايته للفقراء وصلاته بعوام الناس ، وأنه كان يشجع الدهماء ولا يثق في النبلاء . وكان من عادته أنه يصيف في « رادكان » ويشقى على نهر جرجان ، وبنى في مشهد عمارة جميلة . وكان لقبه على السكة « سلطان العالم » . وجاء في مجمع الفحساء أن الشاعر ابن يمين الفريومدي كان مداح طغاتييمور خان ، ويذهب بعض الكتاب الى أن الخان نفسه كانت له مشاركة في الشعر .

ساتي بك (٧٣٩ - ٧٤١هـ) :

عندما دخل شيخ حسن كوچك مدينة تبريز منتصرا ، لم يجذ أحدا من أمراء الأسرة الايلخانية يليق بأن تسلم اليه مقاليد البلاد ، لكنه وجد الأميرة ساتي ابنة السلطان محمد خدابنده أولجايتو وأخت السلطان أبي سعيد بهادر متزعمة البيت الايلخاني ، وانضم الى جانبها بعد أن رفضت الانحياز الى شيخ حسن بزرگ ، وتوجه اليها وصحبها معه الى تبريز . وقد وافق الأمراء الايلخانيون بتحريض من شيخ حسن كوچك على تعيين ساتي بك ايلخانا . وبرر الأمراء ذلك بأن لهذه الأميرة الحق في العرش ما دام لم يبق هناك ذكر من سلالة هولاكو على قيد الحياة ، ومن ثم ارتقت ساتي بك العرش الايلخاني سنة ٧٣٩ هجرية وصار يذكر اسمها في الخطبة وينقش على السكة ، واختارت لادارة شئون البلاد وزيرين هما ركن الدين شيخي من أسرة خواجه رشيد الدين فضل الله الهمداني وغيث الدين محمد من أبناء علي شاه . وما لبثت الايلخان الجديد ساتي بك أن سارت بصحبة شيخ حسن كوچك على رأس الجيش الذي التقف حولها

إلى مدينة سلطانية . ولما سمع بذلك شيخ حسن بزرگ تقديم ليوأجه منافسيه ، ثم دارت المفاوضات بينهما وحل الوثام بين المتحاربين محل الخصام ، واعترف شيخ حسن بزرگ بأحقية ساتى بك في عرش المغول (١١) .

وانحصرت مملكة الايلخان ساتى بك في آذربيجان وأران ، وبدأ شيخ حسن كوچك يتدخل في أمور الدولة . أما بقية الولايات فكانت تحت حكم أمراء منفصلين عن الدولة الايلخانية الأم مثل سلطانية والعراق العجمي اللتين كانتا تحت حكم شيخ حسن بزرگ، وديار بكر تحت حكم حاجى طغاي، وبغداد والعراق العربي يحكمها أمراء قوم « الأويرات » ، والولايات الرومية (آسيا الصغرى) يحكمها الأمير « أريتقا » ومملك أشرف وهو ابن تيمور تاش ابن الأمير نوروز ، وفارس تحت حكم أمراء آل لينجو ويزد تحكمها أسرة آل المظفر ، وقهستان يحكمها عبد الله بن أمير مولاى ، وهراة وجزء من خراسان يحكمها آل كرت ، وجرجان وجزء من خراسان يحكمها طغاتييمورخان وأيضا السربداريين ، أما كرمان وأصفهان فكان بهما أمراء محليون يتولون حكمها .

وبعد أن استقرت ساتى بك على العرش الايلخاني ، ظهر شبح الحرب بين الأميرين شيخ حسن كوچك وشيخ حسن بزرگ ، وتدخلت الملكة ساتى بك لفض نزاعهما وأصلحت في كثير من الأحيان ما بينهما ، ولكن شيخ حسن بزرگ نقض العهد بعد ذلك ، وجرى طغاتييمور خان على محاربة حسن كوچك ، فما كان من الأمير الأخير إلا أن رتب جنوده واستعد لملاقاة طغاتييمور خان .

وهدد شيخ حسن كوچك طغاتييمور خان قبل بداية القتال ، وذكر له أوضاع البلاد السيئة وأن شيخ حسن بزرگ هو الذى يحرض على الفتنة ، وهو الذى يجب محاربته . كما أسر إليه أن ساتى بك سوف تتزوجه ويكون لهما العرش الايلخاني وجمعهما . فما كان من طغاتييمور خان إلا أن بعث

(١١) ميرخواند : روضة الصفا ، المجلد الخامس ، ص ٥٤٦-٥٤٧ .

(١٢) شرف خان البدييسى : شرف نامه : الجزء الثانى ، ص ٣٨

برسالة الى الملكة ساتى بك يخطب ودها ويناشدها الوثام ونبذ الخصام .
فكانت تلك الرسالة سببا في نقض شيخ حسن بزرگ لعهدده ، وجاء لخدمة
ساتى بك وقبل يدها ، وأحمد للفطنة التي كانت قد أثارها شيخ حسن
كوجك ، وفي الوقت نفسه تعبت ساتى بك من دسائسه ، فقربت اليها شيخ
حسن بزرگ حتى صار معززا مكرما عندها .

نهاية ساتى بك :

وجد شيخ حسن كوجك الجوبانى أن غريمه شيخ حسن بزرگ
الجلاليرى قد انتصر عليه ، وأصبح صاحب الكلمة العليا في المملكة ، وأنه
لا بد أن يعمل شيئا للقضاء على التحالف الموجه ضده فأعلن عداؤه للملكة
ساتى بك ، وصرح بأن منصب الايلخان لا يليق الا للرجال ، وأحضر أحد
أحفاد يشموت بن هولكو ويدعى « سليمان » ونصبه ايلخانا ولقبه باسم
« سليمان خان » ، وأجبر ساتى بك على الزواج منه . ولم يقبل شيخ حسن
بزرگ عن هذا الوضع ، فقام بتنصيب « عز الدين » ابن أافرنگ بن كيخاتو
ايلخانا ولقبه باسم « شاه جهان تيمور خان » واختار لمنصب الوزارة
شمس الدين زكريا .

وبذلك أصبح يحكم ايران ايلخانان هما سليمان خان وشاه جهان
تيمور خان . وواقع الأمر أنهما لم كونا الا واجهة للخلاف بين شيخ حسن
كوجك وشيخ حسن بزرگ . وأخيرا التقى الفريقان المتنازعان على الايلخانية
في اليوم الأخير من شهر ذى الحجة عام ٧٤٠ هجرية قرب نهر « جغاتو »
عند مراغه وانهزم شاه جهان تيمور خان وشيخ حسن بزرگ ، وتوجه الأخير
الى بغداد . وبعد عزل شاه جهان تيمور خان رسميا استقل شيخ بزرگ
ببغداد والعراق وأسس الدولة الايلكانية أو الجلايرية .

شاه جهان تيمور خان (٧٣٩ - ٧٤٠ هـ) :

اسمه الأصلي عز الدين بن الأمير أافرنگ بن كيخاتون خان ، وعندما
اعتلى العرش الايلخانى تلقب باسم « شاه جهان تيمور خان » ، وكان رجلا
ضعيفا خاملا ولم يكن الا آلة في يد شيخ حسن بزرگ الجلايرى ، ولم تكن
له معرفة بفنون السياسة والحرب وإدارة الحكم مما كان سببا في هزيمته
والإطاحة بعرشه وإحلال النكبة بجليفته الجلايرى .

وقد أشار شرف خان البديلى الى أحداث شاه جهان تيمور خان على النحو التالى : « سنة ١٣٣٩/٧٤٠ - ٤٠ : فى مطلعها اعتلى العرش فى بغداد جهان تيمور بن أولافرنك ابن كيخاتون خان بفضل مساعى الشيخ حسن بزرگ ، فحدث بينه وبين سليمان خان والشيخ حسن كوچك صدام فى يوم الأربعاء من شهر ذى الحجة من السنة المذكورة فى نواحى تقتوى ؟ من أعمال مراغه ، فلهفته الهزيمة وانتصر الأمير الشيخ حسن كوچك انتصارا باهرا ، وعاد الى تبريز ظافرا فعين من هناك الأمير سيورغان بن چوبان وأخاه الأمير أشرف بن تيمور تاش فى منصب امارة العراق العجمى ، وأرسل ابن عمه الأمير پير حسين بن الأمير الشيخ محمود بن الأمير چوبان الى فارس ليتولى حكومتها . هذا ولما بلغ الأمير الشيخ حسن بزرگ بغداد منهزما من تلك المعركة الساحقة لاحظ عدم لياقة جهان تيمور للمنصب السامى فعزله » (١٣) .

هذا وقد نصب الشيخ حسن بزرگ الجلايرى شاه جهان تيمور ايلخانا فى الخامس من ذى الحجة سنة ٧٣٩ هجرية ، وخلعه أيضا فى ١٧ ذى الحجة سنة ٧٤٠ هجرية . وليست له أفعال تذكر تستحق التسجيل .

سليمان خان (٧٤١ - ٧٤٥هـ) :

وبعد هزيمة شاه تيمور خان ، قام الأمير شيخ حسن كوچك بتنصيب سليمان خان ايلخانا ، ولم يكن فى واقع الأمر سوى آله فى يده . أما حكمه فكان يشمل أقاليم أزان وأذربيجان وكرجستان والعراق العجمى . أما شيخ حسن بزرگ الجلايرى الذى أصيب بهزائم متتالية من غريمه حسن كوچك الجوبانى ، وأراد أن يصل لهذفه ولو تحالف مع الشيطان حتى يتلافى الهزيمة مرة أخرى ، فإنه اتصل بالملك الناصر محمد بن قلاوون لسلطان المملوكى ليعاونه فى حربه ضد شيخ حسن كوچك . وكان القتال فى بدايته فى صالح الأمير شيخ حسن كوچك . وبعد هزيمة « حاجى طغاي » أمير دينار بكر ، حمل شيخ حسن كوچك على العراق العربى مقر حكم شيخ

حسن برزگ ، ولكنه هزم على يد قائد شيخ حسن برزگ ، فاضطر للعودة الى تبريز بعد أن قتل من الأهالي عددا كبيرا ونهب البلاد التي في طريقه . ولم يهنا شيخ حسن كوچك بانقصاره وتوطيد أركان حكمه ، فانه واجه في عام ٧٤١ هجرية فتنا وثورات وتكتلات سياسية وعسكرية ضده ، من بينها ثورة الأمير سيورغان بن ساتي بك من الأمير چوبان الذي اتحد مع طغاتيمور خان ، وأيضا ثورة الأمير « على گاوان » أخ طغاتيمور خان الذي تمكن من الاستيلاء على أبهر وشرع يناوش قوات شيخ حسن كوچك . كذلك لم يسكت شيخ حسن برزگ الجلايري على عدوه القديم شيخ حسن كوچك ، فاستمر يحرض الأمراء ويشعل الثورات ويؤلب العامة ضده في كل مكان .

مقتل شيخ حسن كوچك :

كان شيخ حسن كوچك من القوة بحيث يمكنه مواجهة أعدائه مجتمعين ، وكان الجميع يرهبنه لقوته وسطوته ويتمنون القضاء عليه حتى يستريح الناس من بطشه وقسوته . فحياته لم تنقته الا على يد زوجته التي قتلتها بيدها غدرا .

ان قصة مقتل شيخ حسن كوچك الجوباني تبين بوضوح سلوك الأسرة المغولية الخاص ، وانهيار الأخلاق بينهم وعدم الوفاء بين الزوجين ، ذلك أن « عزت ملك » زوجة شيخ حسن كوچك كانت على علاقة بأحد قادة زوجها ويدعى الأمير يعقوب شاه ، وكان من أمراء بلاد الروم وتربطه علاقة وطيدة بشيخ حسن كوچك الجوباني . وعندما هزم الأمير يعقوب شاه قائد جيش شيخ حسن كوچك في الحرب ضد شيخ حسن برزگ ، سجنه شيخ حسن كوچك عقابا له على تخاذله وخطئه فظنت « عزت ملك » أن زوجها اطلع على أسرارها مع الأمير يعقوب شاه وعرف خيانتها فأودعه السجن ، وحتى تحفظ ماء وجهها ، قامت في ٢٧ رجب عام ٧٤٦ هجرية بضرب زوجها بخنجر فمات على الفور . وعندما علم أعوان شيخ حسن كوچك ما حل بزعيمهم وما فعلته زوجته « عزت ملك » وخيانتها لزوجها قتلوها على الفور ، وقطعوها اربا اربا .

وبعد موت شيخ حسن كوچك الجوباني ، قام سلفيمان خان بتقسيم

أموال شيخ حسن كوچك وممتلكاته على أمرائه . وإذا كان سليمان خان العوبة في يد شيخ حسن كوچك أثناء حياته فإنه بعد وفاته أصبح آلته في يد ثلاثة من الأمراء الجوبيانيين ، وهم سيورغان وياغى باسقى أبناء الأمير جوبان ، وملك أشرف حفيد جوبان . وقد استمروا يحكمون ما تحت أيديهم من مناطق فترة الى أن نشب بينهم الخلاف والقتال . وكان ملك أشرف في جانب ، وسيورغان وياغى باسقى وسليمان خان في الجانب الآخر ، وقامت الحرب بين الطرفين المتنازعين . كان النصر فيها لطيف ملك أشرف ، وأطاح بهم جميعا وأحضر شخصا يدعى « أنو شيروان » غير معلوم الأصل والنسب ، وأجلسه على العرش الايلخاني وتلقب بالعادل . وعلى هذا النحو انتهى عهد سليمان خان .

أنو شيروان العادل (٧٤٤ - ٧٥٦هـ) :

يعد أنو شيروان العادل آخر من حكم من الأسرة الايلخانية . وقد نصبه ملك أشرف الجوبياني ايلخانا في ٢٤ المحرم سنة ٧٤٤ هجرية بعد اقتصاره على أعدائه المثلثين في سليمان خان الايلخان المغولي وقائديه سيورغان وياغى باسقى . وكان أنو شيروان رجلا مغمورا غير معروف حتى لأمراء البيت الايلخاني الحاكم ، ولم يطمع في منصب ولا نفوذ بعد أن وجد الأمور تسير من سىء الى أسوأ أثر السلامة . وعندما فطن ملك أشرف الى أحوال أنو شيروان وأوضاعه وجد ضالته في شخصه ، وبخاصة أن أنو شيروان كان يقضي طوال يومه في الشراب والطرب مع الغانيات ، كما كان يتعاطى المواد المخدرة ، فنصبه ملك أشرف ايلخانا ، واستحوذ هو على رئاسة الحكومة وإدارة شئونها ، وكان ينجز باسمه أعمال الدولة كلها .

أما عن قائد سليمان خان ، فإن سيورغان قد التجأ الى شيخ أوييس ابن شيخ حسن الجلايرى الذى استضافه فترة ، ثم قتله بعد ذلك ، كما التجأ ياغى باسقى الى ملك أشرف لكنه قتله أيضا وبذلك تخلص من أخطر منافسيه .

واستمر حكم أنو شيروان العادل حتى توفي فجأة في الرابع والعشرين من رجب عام ٧٥٦هـ وتذكر بعض المصادر التاريخية أن ملك أشرفه شك في

اُخلّصه له فأمر بإعدامه . واستمر ملك أشرف يحكم ما تبقى من ولايات بعد وفاة أنو شيروان مدة ثلاث سنوات .الى أن قتل في ١٧ صفر ٧٥٩ هـ بأمر « جاني بيك » ملك دشت القيقاق الذي حرض أهل تبريز على القيام ضد ملك أشرف والاطاحة به ووجد أهالي تبريز الفرصة سانحة لأخذ ثأرهم من ملك أشرف الجوباني الذي مكث خمسة عشر عاما يظلمهم ويسومهم سوء العذاب ، فحملوا عليه الى أن قتل آخر الأمر .

وقبل سنتين من وفاة أنو شيروان العادل ، كان طغاتيمور خان أيلخان المناطق الشرقية من الدولة الأيلخانية قد توفي سنة ٧٥٤ هجرية ، بعد أن حكم سبعة عشر عاما . وعلى ذلك تعتبر سنة ٧٥٦ هجرية - وهي السنة التي توفي فيها أنو شيروان العادل - السنة التي انقرضت فيها الأسرة الأيلخانية التي حكمت إيران قرابة قرن من الزمان .

أولا : المراجع الفارسية

(أ) الكتب :

ابن بيبى : ناصر الملة والدين يحيى بن محمد بن على الجعفرى الرغدى
المعروف بابن بيبى المنجمة .

١ - الأوامر العلانية فى الأمور العلانية ، تحقيق م . ه . هوتسما ،
ليدن ١٩٠٢ م .

ابن شهاب : حسن بن شهاب الدين حسين بن تاج الدين اليزدى ،

٢ - جامع التواريخ حسينى ، نسخة مخطوطة بمكتبة السلطان الفاتح
بإستانبول رقم ٤٣٠٧ مدونة سنة ٨٥٩ هجرية ، وأخرى بالمكتبة
الوطنية الايرانية (كتابخانه ملى ايران) رقم ١٣٣٠ مدونة
سنة ٨٨٠ هجرية .

اقبال ، عباس ——— آشتيانى :

٣ - تاريخ مفصل ايران ، جلد أول : از جمله چنكيز تا تشكيل دولت ،
تيمورى ، طهران ١٣١٢ هـ ش .

البنفاكتى : فخر الدين أبو سليمان داود بن تاج الدين أبو الفضل ،

٤ - روضة أولى الألباب فى معرفة التواريخ والأنساب ، المعروف باسم
« تاريخ بنفاكتى » ، تحقيق جعفر شعار ، نشر « انجمن آثار ملى » ،
طهران ١٣٤٨ هـ ش .

البيضاوى : القاضى أبو الخير ناصر الدين عبد الله بن عمر
البيضاوى الشيرازى ،

٥ - نظام التواريخ ، تحقيق بهمن كويمى ، طهران ١٣١٣ هـ ش .
حافظ ابرو : شهاب الدين عبد الله بن لطف الله ،

٦ - زبدة التواريخ بايسنقرى ، وهو المجلد الرابع من كتاب حافظ ابرو
« مجمع التواريخ سلطانى » ، المعروف بزبدة التواريخ ، تحقيق دكتور

- خانبابا بیانی ، طهران ۱۳۱۷ هـ.ش.
- حمد الله المستوفی : أبو بکر بن أحمد بن نصر القزوينی (تـ ۷۵۰ هـ) ،
- ۷ - تاریخ گزیده ، تحقیق عبد الحسین نوائی ، نشر مکتبه امیر کبیر ، طهران ۱۳۳۹ هـ.ش.
- ۸ - نزهۃ القلوب ، تحقیق محمد دبیر سیاقی ، نشر مکتبه طهوری ، طهران ۱۳۳۷ هـ.ش.
- الجوينی : عطا ملک بن بهاء الدين (تـ ۶۸۱ هـ) ،
- ۹ - تاریخ جهانگشا ، تحقیق محمد رمضان ، طهران ۱۳۳۸ هـ.ش.
- خوانصیر : غیاث الدین بن همّام الدین ،
- ۱۰ - حبیب السیر فی أخبار افراد البشر ، الجزء الثالث ، نشر مکتبه الخيام ، طهران ۱۳۳۴ هـ.ش.
- ۱۱ - دستور الوزراء ، تحقیق سعید نفیسی ، نشر مکتبه اقبال ، طهران ۱۳۱۷ هـ.ش.
- رشید الدین فضل الله الهمدانی : فضل الله بن عماد الدولة (تـ ۷۱۸ هـ) ،
- ۱۲ - تاریخ فرهنگ از جامع التواریخ ، تحقیق محمد دبیر سیاقی ، نشر مکتبه فروغی ، طهران سنه ۱۳۳۰ هـ.ش.
- ۱۳ - تاریخ مبارک غازاتی (داستان غازان خان) ، نشر کارل یان Karl Jahn ، هرتفورد انجلترا ، سنه ۱۳۵۸ هـ = ۱۹۴۰ م.
- ۱۴ - تاریخ اجتماعی دوره مغول از جامع التواریخ ، تحقیق امیر حسین جهانبگلو ، نشر مکتبه تائید ، اصفهان سنه ۱۳۳۶ هـ.ش.
- ۱۵ - جامع التواریخ ، تحقیق بهمن کریمی ، نشر مکتبه اقبال ، طهران سنه ۱۳۳۸ هـ.ش.
- ۱۶ - جامع التواریخ ، جلد دوم : در تاریخ پادشاهان مغول از اوکتای قا آن تا تیمور قا آن ، نشر بلوشیه Blochet ، لیسن سنه ۱۳۲۹ هـ = ۱۹۱۱ م.

۱۷ - جامع التواریخ ، (تاریخ مغول در ایران) ، نشر کاترمیر ، پاریس
سنة ۱۸۳۷ م .

ستوده : حسین قلی (دکتر) ،

۱۸ - تاریخ آل مظفر ، جزءان ، نشر جامعة طهران رقم ۱۱۴۵ ، طهران
۱۳۴۶ هـ . ش .

سعدی شیرازی : أبو عبد الله مشرف الدین بن مصباح الدین
(ت ۶۹۴ هـ) ،

۱۹ - کلیات شیخ سعدی شیرازی ، تحقیق محمد علی فروغی ، نشر مكتبة
محمد علی علمی ، طهران ، بدون تاریخ .

قزوینی : محمد بن عبد الوهاب .

۲۰ - یاد دشتهای قزوینی ، جلد ششم ، تحقیق ایرج افشار ، نشر
جامعة طهران رقم ۷۴۲ ، طهران سنة ۱۳۴۱ هـ . ش .

شاملوتی : حبیب الله ،

۲۱ - تاریخ ایران : از ماد تا پهلوی ، نشر بنگاه مطبوعاتی صفیعلیشاه ،
طهران ۱۳۴۷ هـ . ش .

صدیق ، عیسی :

۲۲ - تاریخ فرهنگ ایران ، نشر جامعة طهران رقم ۵۶۷ ، الطبعة الرابعة ،
طهران سنة ۱۳۴۷ هـ . ش .

صفا : ذبیح الله (دکتر) ،

۲۳ - تاریخ ادبیات در ایران ، المجلد الثالث ، القسم الأول ، نشر مكتبة
ابن سینا ، طهران سنة ۱۳۴۱ هـ . ش .

کرمانی : ناصر الدین مفشی ،

۲۴ - نسائم الأسحار من لطائف الأخبار در تاریخ وژرا ، تحقیق میر
جلال الدین حسینی آرموی «محدث» ، نشر جامعة طهران ، طهران
سنة ۱۳۳۸ هـ . ش .

کریم الاقبرائی : محمود بن محمد المعروف بکریم الاقبرائی ،

٢٥ - مسامرة الأخبار ومسايرة الأخبار ، تحقيق عثمان توران ، أنقرة ،
سنة ١٩٤٣ م .

لوى : حبيب (دكتور) ،

٢٦ - تاريخ يهود ايران - المجلد الثالث ، الطبعة الأولى ، نشر مكتبة
بروخيم طهران سنة ١٩٦٠م = ١٣٣٩ هـ .ش .

مرتضوى : منوچهر .

٢٧ - تحقيق در باره دوره ايلخانان (دين ومذهب ، تصوف ،
تاريخنويسى ، مقلدين شاهنامه) ، نشر مكتبة طهران في تبريز ،
سنة ١٣٤١ هـ .ش .

منهاج سراج : قاضى منهاج الدين ابو عمرو عثمان بن سراج الدين
محمد الجوزجاتى (تـ ٦٩٨ هـ) ،

٢٨ - طبقات ناصرى ، تحقيق عبد الحى حبيبي القندهارى ، طبع المجلد
الأول في كابول سنة ١٣٢٨ هـ .ش . = ١٩٤٩م ونشر المجلد الثانى
بجامعة البنجاب ، لاهور ١٩٥٣ م .

مير خواند : مير محمد بن سيد برهان الدين خواند شاه الشهر
بمير خواند ،

٢٩ - روضة الصفا ، المجلد الخامس ، نشر مكتبة الخيام بالاشتراك مع
مكتبتى مركزى ويروز ، طهران سنة ١٣٣٩ هـ .ش .

نافذ أوزلوق : فريدون ،

٣٠ - تاريخ آل سلجوق در آنا طولى ، ويعرف أيضا باسم « الآثار المولوية
في الادوار الساجوقية » غير معروف المؤلف ، نشر النص الفارسى
وترجمة له بالتركية العالم التركى فريدون نافذ أوزلوق أنقرة
سنة ١٩٥٢ م .

وصاف الحضرة : اديب شرف الدين عبد الله بن فضل الله الشيرازى
(تـ ٧٣٠ هـ) ،

٣١ - تاريخ وصاف المعروف باسم « تجزية الأمصار وتزجية الأعصار » ،

تحقیق محمد مهدی أرباب الأصفهانی ، بومبی سنة ۱۲۶۹ هـ = ۱۸۵۳ م .

(ب) المقالات :

- آلیاری : حسین (مکتر) ،
 ۳۲ - چنگیز خان مغول ، مجلة كلية الآداب جامعة تبریز ، العدد الأول ،
 السنة العشرون ، رقم مسلسل ۸۵ ، ربيع سنة ۱۳۴۷ هـ . ش .
 استروویوا : ل . و . ،
 ۳۳ - باز پسین خوارزمشاه ، واسماعیلیان الموت ، ترجمة کریم کشاورز ،
 مجلة راهنمای کتاب ، السنة السادسة .
 اقبال : عباس ——— آشتیانی ،
 ۳۴ - هولاکو ومستعصم خلیفه ، مجلة مهر ، السنة الأولى .
 اوری : پیتر ،
 ۳۵ - بر رسی عوامل حمله چنگیز خان به ما وراء النهر . مجلة كلية الآداب
 جامعة طهران ، العدد الأول ، السنة السابعة .
 بوبل ، جان اندرو :
 ۳۶ - مغولان وأوربا ، ترجمة علی محمد عامری ، مجلة سخن ،
 السنة العاشرة .
 بطروشفسکی :
 ۳۷ - نهضت سربداران در خراسان ، ترجمة کریم کشاورز ، مجلة فرهنگ
 ایران زمین ، العدد العاشر .
 حقیقت ، (رفیع) عبد الرفیع :
 ۳۸ - نهضت سربداران ، مجلة وحید ، السنة الثالثة .
 غرجستانی ، م :
 ۳۹ - مأموریت هولاکو برای دفع اسماعیلیه ، مجلة آریانا ، العدد العاشر ،
 المجلد السادس عشر .

- گروسه ، رفقه : نسخة مخطوطة من تاريخ طبرستان .
- ٤٠ - ايران وعالم ترك ومغول ، ترجمة عيسى بهنام ، مجلة قمدين ايراني ، ص ٤٧٠ - ٤٧٥ .
- ٤١ - مغول در ايران ، ترجمة عيسى بهنام ، تمدن ايراني ، ص ٢٧٦ - ٢٨١ .
- مير حسين شاه :
- ٤٢ - چنگيز در غور و غرجستان ، مجلة آريانا ، العدد الرابع ، المجلد السادس عشر .
- فنجواني ، حاج حسين :
- ٤٥ - فرماني از فرامين دوره مغول ، مجلة كلية الآداب جامعة تبريز ، العدد الأول ، المجلد الخامس .
- ولاديمير نيسف ، ب :
- ٤٦ - گروه بندي ايلات واختلاف طبقاتي جامعه ايلي مغول در قرون ١١ و ١٢ ميلادي ، ترجمة الدكتور شيرين بياضي ، مجلة كلية الآداب جامعة طهران ، العدد ٥٠ السنة ١٣٠٥ ، طهران سنة ١٣٤٤ هـ . ث .
- هادي حسن .
- ٤٧ - عمليات نظامي مغول ، ضمن مجموعة مقالات في كتاب بعنوان « مجموعة مقالات من الصفحة ١٤٧ الى ١٥٨ » .

ثانيا : المراجع العربية

- ابن أبي الفضائل : مفضل (ت ٦٧٢ هـ) .
- ٤٨ - النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن النعميد ، نشر بلوشنيه باريس سنة ١٩١١ م .
- ابن الأثير الجزري : علي بن أحمد بن أبي الكرم (ت ٦٣٠ هـ) ،
- ٤٩ - الكامل في التاريخ ، المكتبة التجارية ، القاهرة ١٣٤٨ - ١٣٥٨ هـ .
- ابن بطوطة : أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي (ت ٧٧٩ هـ = ١٣٧٧ م) ،
- ٥٠ - رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظائر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، نشر دار صادر ، بيروت سنة ١٣٨٤ هـ = ١٩٦٤ م .

ابن تغرى بردى : جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغرى
بردى الأتابكى ،

٥١ - النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة - الجزء السابع ، نشر الهيئة
المصرية العامة للتأليف والنشر ، القاهرة سنة ١٩٦٨ م .

٥٢ - المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى - الجزء الأول ، تحقيق
أحمد يوسف نجاتى ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة
سنة ١٣٧٥ هـ = ١٩٥٦ م .

ابن حجر العسقلانى : شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن على بن حجر
العسقلانى :

٥٣ - الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة ، الجزء الثالث ، القاهرة .

ابن خلدون : ولى الدين عبد الرحمن بن محمد (تـ ٨٠٨ هـ) ،

٥٤ - العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ويعرف بتاريخ ابن خلدون ، القاهرة
١٢٨٤ هـ = ١٨٦٧ م .

ابن خلكان : شمس الدين أبو العباس أحمد بن ابراهيم بن أبى بكر
الشافعى (تـ ٦٨١ هـ) ،

٥٥ - وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، نشر مكتبة النهضة المصرية ،
القاهرة ١٣٤٨ هـ .

ابن شاکر الکتبى : فخر الدين محمد بن أحمد الکتبى (تـ ٧٦٤ هـ) ،

٥٦ - فوات الوفيات ، نشر مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة سنة ١٩٥١ م .

ابن طباطبا : محمد بن على بن طباطبا ، المعروف باسم ابن الطقطقى ،

٥٧ - الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية ، نشر مكتبة صبيح ،
القاهرة ١٣٨١ هـ = ١٩٦٢ م .

ابن العبرى : غريغوريوس أبو الفرج بن أهرون الطبيب الملقى المعروف
بأبن العبرى (تـ ٦٨٥ هـ) ،

٥٨ - تاريخ مختصر الدول ، طبعة معادة عن الطبعة الأولى ١٨٩٠ بالمطبعة
(م ١٧ - تاريخ الدولة المغولية)

الكاثوليكية بيروت ، لبنان سنة ١٩٥٨ ، وضع حواشيها الأب أنطوان صالحاني اليسوعي .

ابن عربشاه : شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن عبد الله ابن ابراهيم بن عربشاه الدمشقي الحنفي العجمي المعروف بابن عربشاه (ت ٨٥٤ هـ) ،

٥٩ - فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء ، طبعة بولاق سنة ١٢٧٦ هـ .

ابن الفرات : ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن الفرات ،

٦٠ - تاريخ ابن الفرات ، تحقيق الدكتور قسطنطين رزيق والدكتورة نجلا عز الدين ، المطبعة الأمريكية ، بيروت سنة ١٩٣٨ م .

ابن الفوطى : كمال الدين عبد الرزاق (ت ٧٢٣ هـ) ،

٦١ - الحوادث الجامعة في التجارب النافعة في المائة السابعة ، نشر مصطفى جواد ، بغداد سنة ١٣٥١ هـ .

ابن كثير : عماد الدين أبو الفداء اسماعيل (ت ٧٧٤ هـ) ،

٦٢ - البداية والنهاية في التاريخ ، القاهرة ١٣٥١ - ١٣٥٨ هـ = ١٩٣٢ - ١٩٣٩ م .

ابن الوردي : زين الدين عمر (ت ٧٥٠ هـ) ،

٦٣ - تنمة المختصر في أخبار البشر ، القاهرة سنة ١٢٥٨ هـ = ١٨٦٨ م . أبو رابية : عبد الخالق سيد ،

٦٤ - الاسلام والتتار ، نشر المجلس الأعلى للشئون الاسلامية ، سلسلة «دراسات في الاسلام» ، العدد ٢٢١ ، القاهرة سنة ١٩٧٩ م .

أبو شامة : عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم بن شهاب الدين المعروف بأبي شامة المقدسي الدمشقي (٦٦٥ هـ) ،

٦٥ - كتاب الذيل على الروضتين ، تحقيق عزت العطار الحسيني الدمشقي بعنوان «تراجم رجال القرنين السادس والسابع» ، القاهرة سنة ١٣٦٦ هـ = ١٩٤٧ م .

أبو الفداء : عماد الدين اسماعيل بن الملك الأفضل علي صاحب حماء (ت ٧٣٢ هـ) ،

٦٦ - المختصر في أخبار البشر ، القسطنطينية سنة ١٢٨٦ هـ .

- أدى شير ، رئيس أساقفة سعرد الكلداني :
- ٦٧ - الألفاظ الفارسية العربية ، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين ، بيروت ١٩٠٨ م .
- أرنولد : سير توماس و .
- ٦٨ - الدعوة الى الاسلام ، ترجمة الدكتور حسن ابراهيم حسن والدكتور عبد المجيد عابدين واسماعيل النحراوى ، الطبعة الثانية ، نشر مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٥٧ م .
- بارتولد : فلاديمير (ت-١٩٢٧ م) ،
- ٦٩ - تاريخ الترك في آسيا الوسطى ، نقله الى العربية الدكتور أحمد السعيد سليمان ، القاهرة سنة ١٩٥٨ .
- ٧٠ - تاريخ الحضارة الاسلامية ، نقله من التركية الى العربية حمزة طاهر ، نشر دار المعارف بمصر ، القاهرة سنة ١٩٥٢ .
- باركر (أرنست) ،
- ٧١ - الحروب الصليبية ، نقله الى العربية السيد الباز العرينى ، القاهرة ١٩٦٠ م .
- بحرى محمد فهد (دكتور) .
- ٧٢ - تاريخ العراق في العصر العباسى الأخير (٥٥٢ - ٦٥٦ هـ = ١١٥٧ - ١٢٥٨ م) مطبعة الرشاد ، بغداد سنة ١٩٧٣ م .
- البدليسى : شرف خان ،
- ٧٣ - شرفنامه - الجزء الثانى ، ترجمه الى العربية محمد على عونى ، نشر دار احياء الكتب العربية « عيسى البابى الحلبي وشركاه » ، القاهرة سنة ١٩٦٢ م .
- براون : ادوارد جرانفيل (ت-١٩٢٦ م) ،
- ٧٤ - تاريخ الأدب في ايران من الفردوسى الى السعدى ، ترجمه الى العربية الدكتور ابراهيم أمين الشواربى ، القاهرة سنة ١٣٧٣ هـ = ١٩٥٤ م .
- بروكلمان (كارل) :
- ٧٥ - تاريخ الشعوب الاسلامية ، نقله الى العربية نبيه أمين فارس ومنير

البعليكي ، الطبعة السابعة ، نشر دار العلم للملايين ، بيروت
سنة ١٩٧٧ م .

حافظ حمدي :

٧٦ - الدولة الخوارزمية والمغول ، نشر دار الفكر العربي ، القاهرة
سنة ١٩٤٩ م .

٧٧ - الشرق الاسلامي قبيل الغزو المغولي ، نشر دار الفكر العربي ،
للقاهرة ١٩٥٠ م .

حسين مؤنس :

٧٨ - الشرق الاسلامي في العصر الحديث ، القاهرة سنة ١٩٣٨ م .

الخربوطلي : علي حسني (دكتور) ،

٧٩ - بين المغول واليهود ، نشر المجلس الأعلى للثقون الاسلامية ، سلسلة
« دراسات في الاسلام » ، العدد ١٠٣ ، القاهرة سنة ١٩٦٩ م .

٨٠ - غروب الخلافة الاسلامية ، نشر مؤسسة المطبوعات الحديثة ،
بدون تاريخ .

خصباك : جعفر حسين (دكتور) ،

٨١ - العراق في عهد المغول الايلخانيين ، بغداد سنة ١٩٦٨ م .

الدياربكري : (ت ٩٦٦ هـ = ١٥٥٨ م) .

٨٢ - تاريخ الخميس في احوال انفس نفيس ، القاهرة سنة ١٢٨٣ هـ =
١٨٦٦ م

الذهبي (الحافظ) : شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان

الذهبي التركماني الدمشقي الفاروقي الشافعي (ت ٧٤٨ هـ) .

٨٣ - دول الاسلام ، الجزء الثاني ، الطبعة الثانية ، حيدر آباد الدكن ،
سنة ١٣٣٧ هـ .

٨٤ - العبر في خبر من غبر - الجزء الخامس ، تحقيق الدكتور صلاح الدين
المنجد ، نشر وزارة الارشاد والاثباء في دولة الكويت ، سلسلة التراث

العربي رقم ١٥ ، مطبعة حكومة الكويت ، الكويت سنة ١٣٨٦ هـ =
١٩٦٦ م .

الرافعي : عبد الرحمن الرافعي بالاشتراك مع سعيد عبد الفتاح عاشور ،
٨٥ - مصر في العصور الوسطى - من الفتح العربي حتى الغزو العثماني ،
الطبعة الأولى نشر دار النهضة العربية ، القاهرة سنة ١٩٧٠ م .

رشيد الدين فضل الله : فضل الله بن عماد الدولة أبي الخير بن موفق
الدولة (ت٧١٨هـ) ،

٨٦ - جامع التواريخ ، تاريخ المغول ، المجلد الأول : تاريخ هولاكو مع
مقدمة كاترمير ، نقله عن الفارسية الأستاذ محمد صادق نشأت
والدكتور محمد موسى هندلوي والدكتور فؤاد عبد المعطي الصياد ،
وترجم مقدمة كاترمير عن الفرنسية الدكتور محمد محمد القصاص ،
القاهرة سنة ١٩٦٠ م .

رنسيمان ، ستيقن :

٩٠ - تاريخ الحروب الصليبية : الجزء الثالث ، ترجمة الدكتور السيد
عريني الباز ، بيروت ١٩٦٩ م .

زيتير ستين :

٩١ - تاريخ سلاطين المماليك - مجهول المؤلف ، تحقيق زيتير ستين ،
لينن سنة ١٩١٩ م .

سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور) :

٩٢ - الحركة الصليبية ، صفحة مشرفة في تاريخ الجهاد العربي في العصور
الوسطى ، الجزء الثاني ، الطبعة الأولى ، نشر مكتبة الانجلو المصرية ،
القاهرة سنة ١٩٦٣ م .

٩٣ - تاريخ أوروبا في العصور الوسطى ، القاهرة سنة ١٩٧٢ م .

٩٤ - الظاهر بيبرس ، سلسلة أعلام العرب ، رقم ١٤ .

٩٥ - مصر في عصر دولة المماليك البحرية ، نشر مكتبة النهضة المصرية ،
القاهرة .

السيوطي : جلال الدين بن عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد
(ت ٩١١ هـ) .

٩٦ - تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الله ، القاهرة سنة
١٣٥١ هـ = ١٩٣٢ م ، أعيد طبعه بتحقيق محمد محيي الدين
عبد الحميد ، القاهرة ١٣٧١ هـ = ١٩٥٢ م .

السرنگاوى : عبد الفتاح ،
٩٧ - النزعات الاستقلالية في الخلافة العباسية ، الطبعة الرابعة ،
القاهرة ١٩٤٥ م .

سرور : محمد جمال الدين (دكتور) ،
٩٨ - دولة بني قلاوون في مصر ، نشر دار الفكر العربى ، القاهرة
سنة ١٩٤٧ م .

٩٩ - دولة الظاهر بيبرس وحضارة مصر في عصره ، القاهرة سنة ١٩٦٠ م .
الشواربى : ابراهيم أمين (دكتور) ،
١٠٠ - مصادر فارسية في التاريخ الاسلامى ، مقال منشور بمجلة كلية
الآداب جامعة فؤاد الأول المجلد السابع ، يوليو ١٩٤٤ ،
ص ٨٩ - ١٢٤ .

الشوكانى :
١٠١ - البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع - جزآن ، القاهرة
سنة ١٣٤٨ هـ .

عباس العزاوى (الحامى) ،
١٠٢ - تاريخ العراق بين احتلالين - الجزء الأول (حكومة المغول) ، بغداد
١٣٥٣ هـ = ١٩٣٥ م .

١٠٣ - التعريف بالمؤرخين في عهد المغول والتركمان - الجزء الأول (٦٠١ -
٩٤١ هـ = ١٢٠٤ - ١٥٣٤ م) ، بغداد سنة ١٣٧٦ هـ = ١٩٥٧ م .

العدوى : ابراهيم أحمد (دكتور) ،
١٠٤ - العرب والتتار ، المكتبة الثقافية رقم ٨٨ ، القاهرة سنة ١٩٦٣ م .

- العرينى : السيد الباز (دكتور) ،
١٠٥ - المغول ، بيروت ١٩٦٧ م .
- على ابراهيم حسن (دكتور) ،
١٠٦ - تاريخ الممالك البحرية ، نشر مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة الثالثة ، القاهرة سنة ١٩٦٧ م .
- فايد حماد عاشور (دكتور) ،
١٠٧ - العلاقات السياسية بين الممالك والمغول في الدولة المملوكية الأولى ، نشر دار المعارف بمصر ، القاهرة سنة ١٩٧٦ م .
- فؤاد عبد المعطى الصياد (دكتور) ،
١٠٨ - مؤرخ المغول الكبير : رشيد الدين فضل الله الهمداني ، القاهرة ١٣٨٦ هـ = ١٩٦٧ م .
- ١٠٩ - السلطان محمود غازان خان المغولى واعتناقه الاسلام ، الطبعة الأولى ، نشر مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة سنة ١٣٩٩ = ١٩٧٩ م .
- ١١٠ - المغول في التاريخ ، القاهرة سنة ١٩٧٥ م .
- القزوينى : زكريا بن محمد بن محمود ،
١١١ - آثار البلاد وأخبار العباد ، نشر دار صادر ، بيروت سنة ١٩٦٩ م .
- القلقشندى : أبو العباس أحمد (ت ٨٢١ هـ) ،
١١٢ - صبح الأعشى في صناعة الانشا ، الجزء الثامن ، القاهرة ١٣٣٣ هـ = ١٩١٤ م .
- كرد على ، محمد :
١١٣ - الاسلام والحضارة العربية ، الطبعة الثالثة ، القاهرة سنة ١٩٦٨ م .
- ١١٤ - خطط الشام ، الجزء الثانى ، الطبعة الثانية ، بيروت ١٣٩٢ هـ = ١٩٧٢ م .
- الكازرونى .
١١٥ - مقامة في قواعد بغداد في الدولة العباسية نشر كوركيس عواد وميخائيل عواد ، بغداد سنة ١٩٦٢ م .

كاهن ، كلود :

١١٦ - تاريخ العرب والشعوب الاسلامية - المجلد الأول ، نقله الى العربية الدكتور بدر الدين القاسم الأستاذ في جامعة دمشق ، نشر دار الحقيقة للطباعة والنشر في بيروت ، الطبعة الأولى ، بيروت سنة ١٩٧٢ م .

كريم - (فون) :

١١٧ - الحضارة الاسلامية ومدى تأثرها بالمؤثرات الأجنبية ، ترجمة الدكتور طه بدر ، نشر دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة سنة ١٩٦٧ م .

كويزيلي ، محمد فؤاد :

١١٨ - قيام الدولة العثمانية ، ترجمة الدكتور أحمد السعيد سليمان ، نشر دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة سنة ١٩٦٧ م .

لام ، هارولد :

١١٩ - چنگيز خان وجحافل المغول ، ترجمه الى العربية مئري أمين ، نشر مكتبة الانجلو المصرية بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر ، القاهرة سنة ١٩٦٢ م .

لسترانج ، ج Le Strange :

١٢٠ - بغداد في عهد الخلافة العباسية ، نقله الى العربية بشير يوسف فرنسيس ، الطبعة الأولى بغداد سنة ١٣٥٥ هـ = ١٩٣٦ م .

لين بول ستانلي Stanly Lane - Poole :

١٢١ - تاريخ الدول الاسلامية ومعجم الأسرات الحاكمة ، الجزء الثاني ، نقله عن التركية الدكتور أحمد السعيد سليمان ، دار المعارف ، القاهرة سنة ١٩٧٢ م .

١٢٢ - بلدان الخلافة الاسلامية ، ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد ، بغداد ١٩٥٤ م .

محمد حسين المظفرى ، الشيخ :

١٢٣ - تاريخ الشيعة ، نشر مكتبة بصيرتى ، قم ، ايران ، سنة ١٣٦١ هـ .

مزاوى ، ميشيل :

١٢٤ - تاريخ ايران بين المغول والصفويين ، مقال منشور بمجلة كلية الآداب

جامعة طهران ، العدد ٧١ ، السنة ١٧ ، طهران سنة ١٣٤٨ هـ . ش . ،
ص ٨٨ - ٩٤ .

مصطفى طه بدر (دكتور) :

١٢٥ - محنة الاسلام الكبرى أو زوال الخلافة العباسية من بغداد على أيدي
المغول ، للجيزة سنة ١٩٤٦ م .

١٢٦ - مغول ايران بين المسيحية والاسلام ، للقاهرة سنة ١٩٤٧ م .

المقريزى : تقى الدين أحمد بن على (ت ٨٤٥) ،

١٢٧ - الخطط المقريزية المسماة بالمواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ،
بيروت سنة ١٩٥٩ م .

١٢٨ - السلوك لمعرفة دول الملوك ، نشر الدكتور محمد مصطفى زيادة ،
القاهرة ١٣٥٣ - ١٣٥٨ هـ = ١٩٣٤ - ١٩٣٩ م .

الفرشخى : أبو بكر محمد بن جعفر (ت ٣٤٨ هـ) ،

١٢٩ - تاريخ بخارى ، عربيه عن الفارسية الدكتور أمين عبد المجيد بحوى
ونصر الله مبشر الطرازى الطبعة الثانية ، نشر دار المعارف ، القاهرة
سنة ١٩٧٧ م

النسوى : نور الدين محمد بن أحمد بن على بن محمد المنشى ،

١٣٠ - سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ، نشر وتحقيق حافظ أحمد
حمدى ، القاهرة ١٩٥٣ م .

ياقوت الحموى : شهاب الدين أبو عبد الله الحموى الرومى (ت ٦٢٦) ،

١٣١ - معجم البلدان ، نشر وستيفلد ، ليبزج ١٨٦٦ - ١٨٧٠ م .

اليوسف ، عبد القادر أحمد (دكتور) ،

١٣٢ - علاقات بين الشرق والغرب بين القرنين الحادى عشر والخامس عشر ،
نشر المكتبة العصرية ، صيدا/بيروت لبنان ، سنة ١٩٦٩ م .

١٣٣ - كتاب الحوادث الجامعة وهو مجهول المؤلف، حوادث سنة ٦٥٦ هجرية .

١٣٤ - كتاب مختصر أخبار الخلفاء وهو مجهول المؤلف وينسب خطأ
لابن الساعى ، بولاق ١٣٠٩ هـ .

ثالثا : المراجع الأوروبية

- Atiya, A.S.;
- 135 — The Crusade in the Middle Ages, London, 1939.
- Barthold;
- 136 — Turkestan down to the Mongol Invasion, London, 1928.
- Bloch, E.;
- 137 — Introduction à l'Histoire des Mongols de Fadlallah Rachid Ed Din, Lyden, 1910.
- Boulger, D. C.;
- 138 — The Mongols and the Court of Kublai Khan, Universal History of the World Vol. V, PP. 2847 - 2860.
- Budge, E. A. W.;
- 139 — The Monks of Kublai Khan, Emperor of China, London, 1928.
- Cahen, G.;
- 140 — "Notes sur l'Histoire des Croisades et de l'Orient Latin III, Orient Latin et Commerce du Levant", dans le Bulletin de la Faculté des Lettres de Strasbourg, 9e Année, No. 8, 1951.
- Cahun, L.;
- 141 — Introduction à l'Histoire de L'Asie, Turcs et Mongols des origines à 1405. Paris, 1896.
- Chabut;
- 142 — "Relation du Roi Argoun avec l'Occident", dans la Revue de l'Orient Latin, Vol. II, P. 571.
- Curtin, J.;
- 143 — The Mongols' History. Boston, 1908.
- D'Ohsson, M. Le Baron;
- 144 — Histoire des Mongols depuis Tchingiz-Khan jusqu'à Timour Bey ou Tamerlan, Amsterdam, 1834 - 5.
- Douglas;
- 145 — The Life of Jenghiz Khan; Translated from Chinese, London, 1877.

- Glubb, J.;
 146 — The Lost Centuries 1145 - 1453, London, 1937.
- Grekov, B. and Iakoubovski, A.;
 147 — La Horde d'Or (trans. into French by Thuret), Paris, 1939.
- Grenard, F.;
 148 — Gengis - Khan, Paris, 1935.
- Grousset, R.;
 149 — L'empire des Mongols, Paris, 1945.
 150 — L'empire des Steppes, Paris, 1948.
- Haenisch, E.;
 151 — Die Latzen Feldzuge Cingis Han's und sein Tod'in Asia Major, Leipsic, 1932.
- Howorth, Sir Henry;
 152 — History of the Mongols, London, 1876 - 88.
 Lamb, H.;
 153 — Genghiz Khan, Emperor of All Meen, London, 1965.
- Martin, H.D.;
 154 — The Rize of Chingis Khan and his Conquest of North China. Baltimore, 1950.
- Pelliot, Paul;
 155 — Les Mongols et la Papaute, dans la Revue de l'Orient Chrétien. Vols. XXIII, XXIV XXVIII., Paris, 1922 - 32.
- Pelliot (Paul) et Masse (Henri);
 156 — Les Mongols et la Papaute (Lettre de Guyuk au pape Innocent IV) facsimile et traduction de la lettre Rev. Orient Chrétien t. III (XXIII) pp. 3 - 30.
- Piquet, J.;
 157 — Les Bankuiers du Moyen Ages: Les Templiers, Paris, 1939.
- Quatremere;
 158 — Histoire des Mongols de la Perse, Paris, 1933.
- Runicman;
 159 — A History of the Crusades, Vol. III, Cambridge, 1959.

Setton, K.m.;

160 — A History of the Crusades (2 vols.), Pennsylvania, 1958.

Strakosch - Grossmann, G.;

161 — Der Einfall der Mongolen in Mitteleuropa in den Jahren 1241 und 1242, Innsbruck, 1893.

Sykes, Percy;

162 — A History of Persia, London, 1921.

Vambéry, A.;

163 — History of Bokhara from the Earliest Period down to the Present, London, 1873.

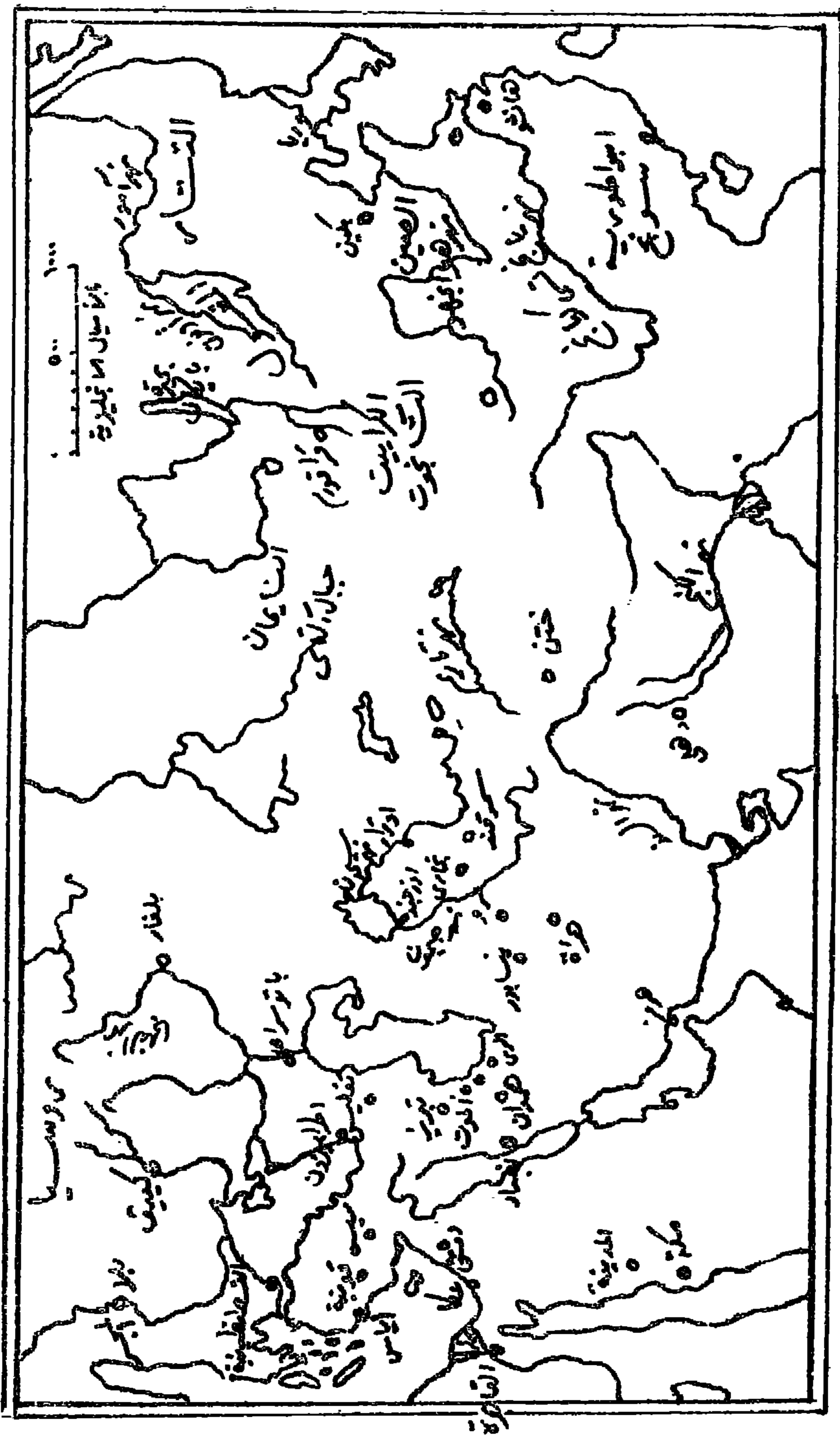
Vladimirov;

164 — The Life of Genghis - Khan, London, 1930.

Walker, C. C.;

165 — Jenghiz - Khan, London, 1939.

امبراطورية المغول



المحتويات

صفحة

مقدمة ٣ - ٦

الباب الأول ٧ - ٨٠

الفصل الأول : المغول في أوائل القرن السابع الهجرى ٩ - ٢٨
ماذا تعنى كلمة المغول ؟ - موطن القبائل المغولية - أشهر
طوائف المغول والتتار والترك - الحياة الاجتماعية :
المأكل - الملابس - وسائل المعيشة وحاجاتهم - بيوت
المغول - حياتهم الأسرية - المرأة في المجتمع المغولى -
المعتقدات الدينية عند المغول - نفوذ رجل الدين عند
المغول . صفات المغول : الصفات الجسدية - الصفات
الخلقية - الصفات الحربية .

الفصل الثانى : چنكيز خان ٢٩ - ٥٦

مولده واسمه الأصلى - وراثته عرش أبيه - انفضاض
الطف المغولى ضد امراطورية كين الصينية - توحيد
تيموجين القبائل المغولية - اعتلاء تيموجين العرش
المغولى وتلقبه بچنكيز خان - تفضيم الشئون الداخلية
وسن القوانين فى الدولة المغولية الحديثة .

الحرب بين چنكيز خان والصين - القضاء على دولة
كين الصينية - تعقب چنكيز خان أعداءه فى الغرب -
كوچوك خان يؤسس دولة كبيرة على أنقاض دولة
القراخانيين - السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه
وانشغاله بحدود مملكته الشرقية - مساهمة السلطان
علاء الدين محمد فى القضاء على دولة القراخانيين -
العلاقات بين چنكيز خان والخوارزمشاه - رسالة

چنكيز خان الى الخوارزمشاه بعد عودته من العراق -
توقيع معاهدة تجارية بين المغول والخوارزميين - تبادل
التجار والتجارة بين الدولتين - اينال خان ومذبحة
أوترار ، مبرراتها ونتائجها •

الفصل الثالث : حملات چنكيز خان على الدولة الخوارزمية ٥٧ - ٨٠

استعدادات الخوارزمشاه وخطته - خطة چنكيز خان في
حربه مع الخوارزمشاه - الاستيلاء على سمرقند - فتح
المغول اقليم خوارزم - المغول في خراسان - خضوع
الأقاليم الغربية من الدولة الخوارزمية للمغول - المغول
في غزنة - السلطان جلال الدين منكبرتي يهزم المغول -
الخلاف بين قادة الجيوش الاسلامية والاهتمام بمشاكلهم
دون مواجهة العدو - جلال الدين منكبرتي يفر الى
الهند كلاجئ وطريد - نهاية چنكيز خان •

الباب الثاني ٨١ - ٢٥٠

الفصل الرابع : المقاومة الاسلامية بعد وفاة چنكيز خان ٨٣ - ٩٩

غياث الدين شيرشاه وحكمه لبعض أقاليم الدولة
الخوارزمية الجنوبية والغربية - استيلاء شيرشاه على
اقليم فارس - عودة جلال الدين منكبرتي من الهند -
الخلاف بين الأخوين جلال الدين منكبرتي وغياث الدين
شيرشاه - انقصار جلال الدين منكبرتي على أخيه -
زوال الدولة الخوارزمية على أيدي المغول - قتل
جلال الدين منكبرتي - عوامل زوال الدولة الخوارزمية •

الفصل الخامس : حملة هولاكو على ايران والقضاء على

الاسماعيلية والخلافة العباسية ١٠٠ - ١٣٦

المغول من چنكيز خان حتى هولاكو خان - انتخاب
أوكتاى خاقانا للمغول - كيوك خان - منكوقا آن -
حملة هولاكو على ايران - إعادة فتح خراسان - اخضاع

صفحة

الاسماعيلية - مصير ركن الدين خورشاه وشعبه - توجه
هولاكو لفتح بغداد - سقوط الخلافة العباسية - مصرع
ال خليفة العباسي المستعصم بالله في بغداد - وقع
انتصارات هولاكو على الدويلات الاسلامية المجاورة
لبغداد - اسباب سقوط بغداد - نتائج سقوط
الدولة العباسية .

الفصل السادس : حملة هولاكو على الشام ١٣٧ - ١٥٠

حالة البلاد الشامية قبيل غزو المغول - خضوع الملك
الناصر يوسف الايوبي صاحب حلب ودمشق لهولاكو -
فتح ميافارقين - فتح حلب - فتح دمشق - هزيمة
المغول على أيدي المصريين في موقعة عين جالوت -
وفاة هولاكو خان .

الباب الثالث ١٥١ - ٢٤٩

الفصل السابع : ايلخانات فارس من عهد أباقا حتى بايبدو

(العصر الوثني) ١٥٣ - ١٨٩

أباقا خان - حروب المماليك والمغول في بلاد الشام -
الظاهر بيبرس يهزم المغول في أبلستين - سياسة أباقا
خان الداخلية - السلطان أحمد تكودار - معاداة المغول
لتكودار لاسلامه - أرغون يتزعم المغول ويحارب
أحمد تكودار - قتله - أرغون خان - وزارة سعد الدولة
اليهودي - سياسة أرغون خان الخارجية - سفارة
ربان سوما للبابا والدول المسيحية في أوروبا - وفاة
أرغون خان - كيخاتو خان - الجاو كعملة متداولة في عهد
كيخاتو - انشقاق في البيت المغولي الحاكم في ايران -
قتل كيخاتو - بايبدو يتولى العرش الايلخاني - غازان
يفازع بايبدو بالحكم - هزيمة بايبدو وانتصار غازان .

صفحة

الفصل الثامن : المغول في ايران من عهد غازان الى نهاية

الدولة الايلخانية (العصر الاسلامي) ١٩٠ - ٢٣١
 غازان خان - اسلام غازان - اسلام المغول - انفصال
 مغول ايران عن الدولة المغولية الأم - سياسة غازان خان
 الداخلية - نهاية الأمير نوروز - نهاية الوزير صدر
 جهان - علاقة غازان خان بالمماليك حكام مصر والشام -
 موقعة الخازندار - استيلاء المغول على دمشق - هزيمة
 المغول وطردهم من سورية - تبادل المراسلات بين
 غازان والناصر محمد - موقعة مرج الصفر - وفاة غازان
 خان - رأى في السلطان محمود غازان خان - أعماله
 واصلاحاته .

محمد خدابنده أولجايتو - أولجايتو وانتصاره
 للمذهب الشيعي - سياسة أولجايتو الداخلية
 والخارجية - وفاة أولجايتو - أبو سعيد بهادر خان
 واعتلائه العرش الايلخاني - الأمير چوبان وامرة
 الأمراء - استغلال الأمير چوبان منصبه في توطيد
 نفوذه - نهاية الجوبانيين - أبو سعيد وانفراجه بالسلطة
 بعد القضاء على نفوذ الجوبانيين - سياسة
 أبي سعيد الخارجية .

الفصل التاسع : الايلخانات خلفاء السلطان أبي سعيد ٢٤٢ - ٢٤٩

حالة الدولة الايلخانية بعد موت السلطان أبي سعيد
 المفاجيء - أريا خان - أريا خان يقدم على قتل بغداد
 خاتون أرملة السلطان أبي سعيد - النزاع بين الأمراء
 المغول وأريا خان - هزيمة أريا خان وقتله - موسى
 خان - نهايته - محمد خان - الأمير شيخ حسن برزك
 وامرة الأمراء - معركة آلاطاغ وهزيمة شيخ حسن برزك
 على يد شيخ حسن كوچك - السلطان الناصر محمد بن
 قلاوون يطمع في ضم بلاد فارس الى دولته - طغاتيمور

صفحة

خان - ظهور السربداريين على مسرح السياسة في
 خراسان - ساقى بيك - نهاية حكمها - شاه جهان
 تيمور خان - سليمان خان - قتل الأمير شيخ حسن
 كوجك - أنوشيروان العادل آخر حاكم مغولى في إيران -
 وفاته - انقراض الدولة المغولية في إيران .

مراجع الكتاب ٢٥٠ - ٢٦٩

المراجع الفارسية : كتب - مقالات - المراجع العربية -
 المراجع الأوروبية

الفهرس ٢٧٣

وردت بعض أخطاء وهذا صوابها

| الخطأ | الصواب | سطر | صفحة |
|---------|---------|------|------|
| عد | عند | ١١ | ١٧ |
| ألوال | ألواح | ١٧ | ٢٢ |
| مسنيره | مستفيرة | ١١ | ٢٥ |
| حلف | خف | ٢٠ | ٣١ |
| وينال | ويناول | ١٣ | ٣٦ |
| وشروع | وشرع | ١٠ | ٣٨ |
| وتعب | وتعقب | ٩ | ٤٧ |
| استنار | استنفار | ١٩ | ٥٧ |
| قحوم | قدم | ٣ | ٥٨ |
| حصولها | حصونها | ٢ | ٦٣ |
| رأسها | راسلها | ١٣ | ٦٤ |
| اسبقله | استقبله | ٥ | ٦٩ |
| النزاع | النزال | ٧ | ٧٥ |
| ادراك | أدرك | ١٧ | ٧٦ |
| وكان | وكاد | ١١ | ٧٧ |
| طلاء | علاء | ٤ | ٨٠ |
| الدولة | الدابة | أخير | ١١٤ |
| مؤرخو | مؤرخي | ١ | ١٢٦ |
| وأرسل | وأرسل | ١١ | ١٤٣ |
| وطالب | وطاب | ١٤ | ١٦٤ |
| مسانقده | مساندته | ٢٠ | ١٧٤ |
| وتمعير | وتعمير | ٢٠ | ٢١٢ |
| وفقه | وفقهه | ٧ | ٢١٦ |
| أبا | أبي | ٤ | ٢٢٥ |
| أنه | على أنه | ٥ | ٢٢٨ |
| اتفقوا | اتفقوا | ١٣ | ٢٣٧ |
| أبو | أبا | ١٠ | ٢٣٠ |
| معوم | مغول | ١ | ٢٥٣ |
| هاد | هادي | ١٥ | ٢٥٦ |

رقم الايداع بدار الكتب المصرية

١٩٨١ / ١٥٦٨

دار نشر الثقافة

٢١ من كامل صدف (النجاة سابقا) القاهرة

تليفون ٩١٦٠٧٦

